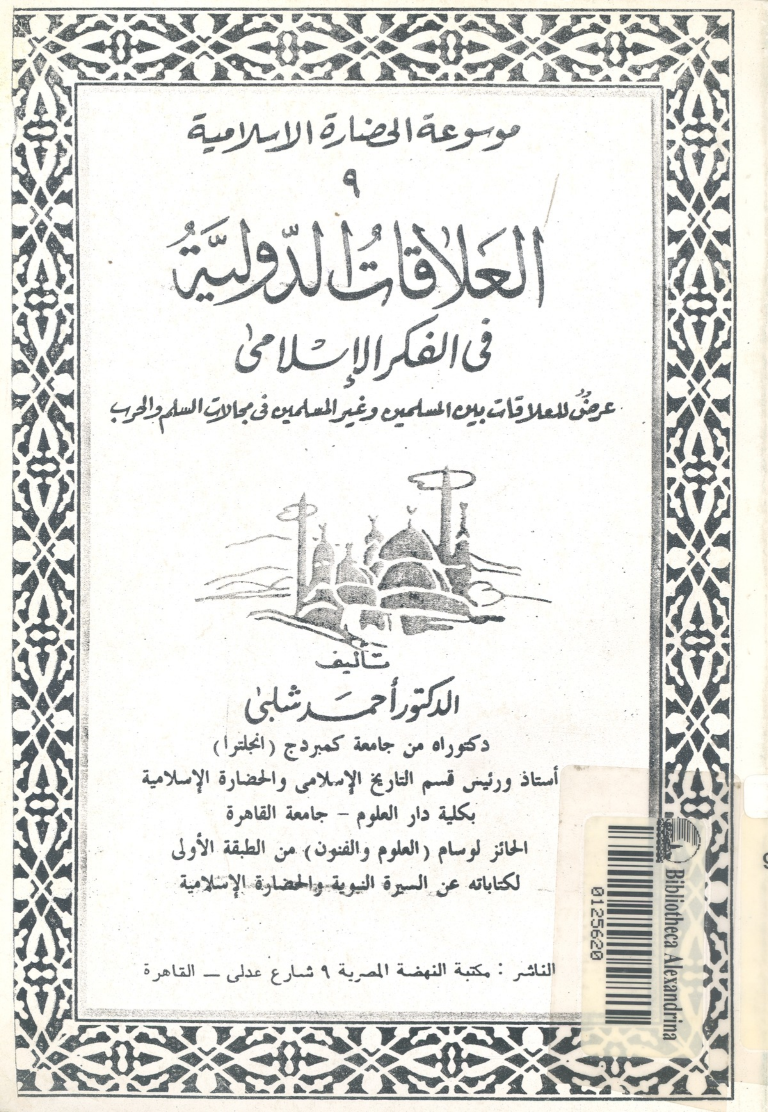


موسوعة الحضارة الإسلامية

٩

العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي

عرض للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين في مجالات السلم والحرب

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج (انجلترا)

أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

بكلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الحائز لوسام (العلوم والفنون) من الطبقة الأولى

لكتاباته عن السيرة النبوية والحضارة الإسلامية

الناشر : مكتبة النهضة المصرية ٩ شارع عدلى ـ القاهرة

موسوعة الحضارة الإسلامية

٩

العلاقات الدولية في الفكر الإسلامي

عرض للعلاقات بين المسلمين وغير المسلمين في مجالات السلم والحرب

في المجال السياسي (الدبلوماسي) والاقتصادي
والاجتماعي والثقافي والعسكري

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج (انجلترا)
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة السادسة ١٩٩٤



ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة النهضة المصرية
لأصحابها حسن محمد وأولاده
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

الطبعة الأولى سنة ١٩٦٨
الطبعة الثانية سنة ١٩٧٤
الطبعة الثالثة سنة ١٩٧٨
الطبعة الرابعة سنة ١٩٨٢
الطبعة الخامسة سنة ١٩٨٧
الطبعة السادسة ١٩٩٤

بسم الله الرحمن الرحيم

ويه نستعين

الحضـــارة الاســلامية ....

منحة الاســلام لهداية البشرية

دكتور أحمد شلبي

كتب المؤلف

أولا : موسـوعة التاريخ الاسـلامى

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسـلامى كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى اسـهم بها المسلمون فى ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشرى :

١ ــ الجزء الأول : (الطبعة الثانية عشرة)

ــ مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامى ــ تفسير التاريخ ــ هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ ــ فائدة التاريخ ــ مراحل تدوين التاريخ ــ قضية الالتزام فى كتابة التاريخ الاسـلامى ــ علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...

ــ تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر ــ حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .

ــ السـيرة النبوية العطـرة : جوانب من السـيرة تدون لأول مـرة

ــ الدعـوة الاسـلامية وفلسـفتها ــ عصر الخلفـاء الراشـدين

٢ ــ الجزء الثانى : (الطبعة الثامنـة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية فى عهدها .
انصاف تاريخ الأمويين وابراز جهودهم السياسية والحضارية .

٣ ــ الجزء الثالث : (الطبعة الثامنـة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ، وبدور المسلمين خلاله فى خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ ــ الجزء الرابع : (الطبعة الثامنـة)

ــ الأندلس الاسلامية ، وانتقال الحضـارة الاسلامية الى اوربا عن طريقهـا .

ــ المغرب ــ الجزائر ــ تونس ــ ليبيـا (من مطلع الاسـلام حتى العهد الحاضر) .

ــ السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ ــ الجزء الخامس : (الطبعة الثامنة)

ــ مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .
(تدوين جديد لتاريخ مصر ــ دورها الحضارى ــ اهم آثارها) .

ــ الحروب الصليبية : دوافعها ــ ادوارها ــ نتائجها .

ــ الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشاتها حتى الآن .

٦ — **الجزء السادس :** (الطبعة الخامسة)

الاســلام والدول الاســلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلهـــا الاســلام حتى الآن :

— دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :

مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .

— الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى :

غانة — مالى — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجيـــرمى — واداى — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .

— الدول الاسلامية الحالية :

موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيــا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتى .

٧ — **الجزء السابع :** (الطبعة الرابعة)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

— دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :

المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عمان — دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت .

— العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ — **الجزء الثامن :** (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن :

ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا الأقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيليبين . .

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — **الجزء التاسع :** (الطبعة الثالثة)

ثورة يوليو من يوم الى يوم : عصر محمـــد نجيب — عصر جمـــال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ — **الجزء العاشر :**

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر انور السادات .

(ترجمت اكثر أجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة الحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجـزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الاسـلام لهداية البشرية فى شـئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصـاد ، وفى مجـال الحيـاة الاجتماعية والتربوية والعسـكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية ،

واجزاؤها هى :

١١ — الجزء الأول : المناهج الاسلامية (الطبعة الخامسة)

اصولها الصحيحة — انحرافاتها — وجوب تصحيحها .

١٢ — الجزء الثانى : الفكر الاسلامى : منابعه وآثاره
مآثر المسلمين فى مجال الدراسات العلمية والفلسفية
(الطبعة السابعة)

١٣ — الجزء الثالث : السـياسة (الطبعة السابعة)
فى الفـكر الاسـلامى
مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة .

١٤ — الجزء الرابع : الاقتصـاد (الطبعة السابعة)
فى الفـكر الاسـلامى

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ — الاسلام والمسلمون فى مواجهة المشكلة الاقتصادية .
٢ — مبادئ الاسلام الاقتصادية .
٣ — الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .
٤ — من تاريخ الاقتصاد فى الاسلام (بيت المال : موارده ومصارفه ...) .
٥ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور واثر الفكر الاسلامى فيها .

١٥ — الجزء الخامس : التربية الاسلامية (الطبعة الثامنة)

نظمها — تاريخها — فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ومناهج التعليم وأمكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والاجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ..

١٦ — الجزء السادس : المجتمع الاسلامى (الطبعة السابعة)

أسس تكوينه .. أسباب ضعفه .. وسائل نهضته

ابتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة — تخطيط جديد — أداء جديد .

١٧ — الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الخامسة)

فى الفكر الاسلامى

— فى نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...

— وفى نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء ...

١٨ — الجزء الثامن : تاريخ التشريع الاسلامى (الطبعة الرابعة)

وتاريخ النظم القضائية فى الاسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع

ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

العلاقات الدولية

١٩ — الجزء التاسع : فى الفكر الاسلامى (الطبعة الخامسة)

دراسات علمية توضح النهج الاسلامى فى تنظيم العلاقات بين الدول الاسلامية والدول غير الاسلامية فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والعسكرية .

٢٠ — الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الرابعة)

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الاسلامية

كتب للمؤلف

ثالثا : مقــــارنة الأديــــان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الأديان ، تعتمــد على ادق المراجــع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

٢١ — الجزء الأول : اليهــودية : (الطبعة التاسعة)

— دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهــود فى التاريخ من عهــد ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى اسرائيل، عقيدة بنى إسرائيل، يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

— مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .

— اليهود فى الظلام : الماسونية ، والروتارى ، الاغتيال ، التجسس ، البابية والبهائية .

— من صور التشريع فى اليهودية .

٢٢ — الجزء الثانى : المسيحية : (الطبعة التاسعة)

— المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

— بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

— شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ، خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها ونقدهـا .

٢٣ — الجزء الثالث : الاســلام : (الطبعة التاسعة)

— الله فى التفكير الاسلامى ، النبوة فى التفكير الاسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المرأة فى الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منه ، السياسة والاقتصــاد فى الاســلام . آراء المفكرين الغربيين فى الاسلام ورسول الاسلام .

٢٤ — الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة التاسعة)

« الهندوسية — الجينية — البوذية »

— تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الأديان فى الهند .

— دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا ، مهابهارتا ، يوجاواسستها ، كيتــا .

— اهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجــود .

— تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب المؤلف

رابعا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات اجنبية

٢٥ — كيف تكتب بحثا أو رسالة
دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه
(الطبعة الثامنة عشرة — مع ثلاثة ملاحق مهمة)

٢٦ — الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام ، واستمرارها حتى الآن
عرض للهجمات الصليبية الغربية عسكرية وفكرية على العالم الاسلامى عبر العصور .

كتابان باللغة الانجليزية هما :

مكتبة النهضة المصرية

٣٧ — ISLAM : Belief - Legislation - Morals
٢٨ — History of Muslim Education

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

Pustaka National (Singapore)

٢٩ — Negara dan Pemerintahan Dalam Islam
٣٠ — Masjarakat Islam
٣١ — Hukum Islam
٣٢ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam I
٣٣ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam II
٣٤ — Sedjarah dan Kebudajaan Islam III
٣٥ — Perbandingan Agama (Jahudi)
٣٦ — Perbandingan Agama (Masihi)
٣٧ — Perbandingan Agama (Islam)
٣٨ — Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbeser di India : Hindu-Jaina-Buddha)
٣٩ — Sadjarah Pendidikan Islam
٤٠ — Politik dam Ekonomi Dalan Islam
٤١ — Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam
٤٢ — Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi
٤٣ — Perang Salib
٤٤ — Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah
٤٥ — Pengajian Al Quraan
٤٦ — Sedjarah Kehakiman Dalam Islam

كتب المؤلف

خامسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب
وقواعد اللغة العربية

— برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
— اول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
— دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
— تضم هذه السلسلة الكتابين التاليين :

٤٧ — **تعليم اللغة العربية لغير العرب :** (الطبعة الرابعة)
يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامى والعربى اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت فى أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمرينات مفيدة .

٤٨ — **قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها :** (الطبعة الرابعة)
عرض لجميع أبواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعـــاد طبعها

٤٩ — فى قصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٥٠ — مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

٥١ — الحكومة والدولة فى الاسلام :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .

٥٢ — الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى .

٥٣ — النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامى فيها .
وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

٥٤ — الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الاسلامى :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٩ من هذه القائمة .

كتب المؤلف

سادسا : المكتبة الاسلامية لكل الاعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ، ومن التاريخ ، والحضارة ، وقصص القرآن .... للأولاد والشباب والسيدات والرجال ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءا)

الطبعة الثانية مع زيادات واسعة وتحسينات شاملة

ج ١ محمد قبل البعثة

ج ٢ من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام فى مكة)

ج ٣ الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات .

ج ٤ الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها

ج ٥ الرسول الداعية ومربى الدعاة

ج ٦ (أ) الرسول فى بيته : زوجات الرسول — اسباب تعدد الزوجات

ج ٧ (ب) الرسول فى بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجها — الحجاب — أولاد الرسول — أحفاده — خدمه

ج ٨ الرسول بين اصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم — الرسول يربى المجتمع الاسلامى .

ج ٩ الرسول يربى القضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام

ج ١٠ الرسول والشباب — الرسول والعمل

ج ١١ توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول — الرسول والمنافقون

ج ١٢ الرسول والنصارى — الرسول واليهود

ج ١٣ الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — أهم أحداث غزوة بدر

ج ١٤ غزوة احد والهزيمة التى اخافت المنتصر — غزوة الأحزاب وكلمة عن سلمان الفارسى

ج ١٥ صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم .

ج ١٦ فتح مكة — غزوة حنين والطائف — غزوة تبوك — الفترة الأخيرة فى حياة الرسول

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ أجزاء)

ج ١٧ (١) ابو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التى واجهها
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع فى عهده — عمر بانى الدولة الاسلامية
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته واخلاقه والفتنة فى عهده
ج ٢٠ (٤) على بن ابى طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التى واجههـــا
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام
ج ٢٢ (٧) سعد بن ابى وقاص (٨) ابو عبيدة بن الجراح
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ اجزاء)

ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحى — نزول القرآن وتدوينه — اسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم التطريب فى ادائه والتكسب به .

ج ٢٥ خصائص القرآن والاصول التى جاء بها لخير الناس فى الدنيا والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات الرسل والمقارنة بينها .

ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغى للقرآن — وجوه الاعجاز فى القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار فى القرآن : اسراره واعجازه .

ج ٣٤ و ٣٥ **الأخلاق الاسلامية من القرآن الكريم**
جمع الآيات القرآنية عن الأخلاق ، وتصنيفها ، وشرحها شرحا ميسرا .
(الترقيم مؤقت ، وفى الطبعة الثانية ان شاء الله سيأخذان رقم ٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

ج ٢٧ دراسات عن القصص فى القرآن —قصة اصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصـــة الرجلين والجنتين — قصـــة ذى القرنين ويأجوج ومأجـــوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة اصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزير — قصة ايوب عليه السلام
ج ٣١ قصة قارون — قصة اصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الاموية : تاريخ يحتاج الى انصاف :

(٥ اجزاء)

ج ٣٦ تاريخ الدولة الأموية : الانحراف فى تدوينه ومحاولة انصافه
معاوية الخليفة الأموى الأول : عام الجماعة — الدهاء —
الاصلاحات الداخلية — التوسع .

ج ٣٧ عبد الملك بن مروان :
احد فقهاء المدينة الاربعة .
البطولة — السياسة — الاصلاحات الداخلية — التوسع

ج ٣٨ نموذجان فريدان متعاصران :
الوليد بن عبد الملك . عمر بن عبد العزيز .

ج ٣٩ التوسع العظيم فى العهد الأموى واهم ميادينه .

ج ٤٠ الشيعة ومدعو التشيع . قصة استشهاد الامام الحسين .

المجموعة السادسة : صراع وشهداء وانتصارات (٦ اجزاء) كالآتى :

ج ٤١ جزء عن « من شهداء الاسلام » : حمزة بن عبد المطلب —
جعفر بن ابى طالب — عمار بن ياسر — عمر المختار
ومحاكمته .

ج ٤٢ و
٤٣ و ٤٤ ثلاثة اجزاء فى مجلد واحد عن :
الهجمات الصليبية : على العالم الاسلامى من مطلع الاسلام
حتى الآن .

ج ٤٥و٤٦ جزءان فى مجلد واحد عن :
شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .
انتصارات المسلمين فى شهور رمضان على : قريش —
الروم — الفرس — القوط — الصليبيين — المغول —
الصهاينة .

المجموعة السابعة : الاسلام والمراة (٦ اجزاء) :

ج ٤٧ المراة فى الحضارات غير الاسلامية — ماذا قدم الاسلام للمراة

ج ٤٨ نماذج من السيدات المسلمات (من بيت النبوة) :
السيدة زينب بنت الامام على — السيدة سكينة بنت الامام
الحسين .

ج ٤٩ نماذج من السيدات المسلمات (فى قصور الخلفاء والملوك)
ام سلمة — الخيزران — زبيدة — شجرة الدر .

ج ٥٠ نماذج من السيدات (فى مجالات الآداب والعلوم والفنون)
السيدة نفيسة — رابعة العدوية — الخنساء — ولادة —
زينب طبيبة بنى رد — عليه بنت المهدى — دنانير .

ج ٥١ زيجات شهيرة فى التاريخ : زبيدة — بوران — قطر الندى .

ج ٥٢ الميراث فى الاسلام : دراسة شاملة .

كتب للمؤلف

سابعا — التفسير الميسَّر للقرآن الكريم

الدكتور أحمد شلبى يسعده أن يعلن انه بدأ فى كتابة تفسير ميسَّر للقرآن الكريم ، تفسير يهدف الى أن يفهم القارىء كلام الله وهو يقرؤه .

وسيظهر الجزء الأول منه حالا إن شاء الله ، وادعُ الله معى أيها القارىء أن يوفقنى لهذا العمل الجليل الذى أقوم به أملا فى الثواب من الله ، واستجابة للكثيرين الذين استمعوا لما أذيعه من تفاسير فى « تقدمة التلاوة » بالاذاعة المصرية أو لما أقدّمه من تفاسير بالتليفزيون ، أو عن طريق الاذاعة البريطانية ، وطلبوا منى هذا النوع متسلسلا من جانب ، ومكتوبا من جانب آخر .

وأنا أستجيب لذلك ، فهو شرف لا يعدله شرف ، وأسألك اللهم أن تساعدنى لأقوم بهذا العمل ، وان تنفع به كاتبه وقارئه ، انك سميع الدعاء .

محتويات الكتاب

الاسلام والعلاقات الدولية

الموضـــوع | الصفحة

من تاريخ السفارات فى الاسلام :

الكتب والرســائل :

نماذج من الكتب والرسائل :

المعـــاهدات :

نماذج من المعاهدات فى الاسلام :

* * *

الموضـــــوع | الصفحة

العلاقات الدولية فى مجال الاقتصاد

* * *

العلاقات الدولية فى المجال الاجتماعى

* * *

الموضـــوع الصفحة

العلاقات الدولية فى المجال الثقافى

* * *

العلاقات الدولية فى المجال العسكرى

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع الصفحة

الثبـات والفـرار :

مشـكلات ما بعد المعركة :

* * *

* * *

الإسلام والعلاقات الدولية

كلمة عن المصــادر والمراجع :

موضوع « الإسلام والعلاقات الدولية » موضوع رائع ، يصوّر العلاقات التى ابتكرها الفكر الإسلامى لتسود بين المجتمع الإسلامى من جهة والمجتمعات غير الإسلامية من جهة أخرى ، أو بين الدولة الإسلامية والدول غير الإسلامية ، وكان هذا الموضوع بالنسبة لى امتدادا للصورة التى سجلتها فى كتاباتى عن السيرة النبوية العطرة ، تلك الصورة التى تصف معاملة الرسول لغير المسلمين .

وشغلت بهذا الموضوع ذهنياً ، ورتبت له خطة ليشمل العلاقات التى نسميها الآن « دبلوماسية » أى السفارات والرسائل والمعاهدات ، وليشمل كذلك العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية ، ثم ما ابتكره الإسلام لتخفيف ويلات الحرب إن قامت الحرب .

وبعد أن أعددتُ الخطة بدأت أبحث عن المصادر والمراجع ، ولكننى لم أجد أبداً ما يشفى الغلة ، ولم أجد فى الدراسات الحديثة أى مرجع عن هذا الموضوع ، ولهذا زاد إصرارى على أن أكتبه خدمةً لدينى ووطنى ، فكم أخذنا جاها ومالا عن طريق الدين والوطن ، وما أسعدنا أن نقدم شيئا للاعتراف بالجميل .

على أن هذا التعبير « العلاقات الدولية فى الإســـلام » لفتتْ انظارَ بعض الباحثين ، فوضعوه عنوانا لبحوثهم ، ولكن هذه البحوث لم تحطْ بالموضوع كما تخيلته ، فقد اتجهتْ هذه البحوث التى كتبها بعض الأعلام إلى شرح العلاقات العسكرية ، وهذا الجانب من العلاقات اهتمت به كتب الفقه ، فلم يخلُ كتاب منها من باب عن الجهاد ، وفى بعض البحوث عن هذا الموضـــوع تكلم الباحث الفاضـــل عن الأخلاق الإسلامية كالفضيلة والتسامح والعدالة ، ثم اتجه للعلاقات العسكرية ،

وقد تعمدت ألا أذكر هنا أسماء هؤلاء المؤلفين إجلالا لقدرهم حتى لا يظن أحد أننى أقف منهم موقف الناقد لأعمالهم .

وهناك بحوث أخرى كتبها بعض الباحثين الجدد ، وكان أقصى ما عملوه أن اقتبسوا من الأعلام الذين أشرنا إليهم ، أو اقتبسوا من كتابى الذى أخرجته من عشرين عاما عن « الجهاد والنظم العسكرية فى الفكر الإسلامى » وأضافوا بعض اقتباسات وإضافات بسيطة .

وكانت النتيجة أن الدراسات الحديثة لم تقدم لى عونا يذكر ، ومن أجل هذا كان لابد أن أرجع إلى المصادر الرئيسية ، وأن أتخذ الصبر وسيلة لى لأقرأ وأجمع الأفكار من هنا وهناك ، وكان عون الله معى ، فجمعت قدرا من الاقتباسات يرسم صورة واضحة لهذا الموضوع من كل أطرافه .

والآن أقدم هذا الموضوع هدية متواضعة لكل مسلم وكل باحث ، متطلعا إلى الثواب من الله الذى أعان وأعان منذ كان الموضوع فكرة وأملا ، حتى صار حقيقة واقعة .

مقدمـــة :

من مفاخر الإسلام أنه قدّم للمجتمع البشرى أسس حياة تكفل السلامة لهذا المجتمع ، ومن الواضح أنه من الثابت فى علم الله سبحانه وتعالى أن البشر لن يجتمعوا على الإسلام ، بل منهم من سيستجيب لداعى الله ، ومنهم من لن يستجيب ، والقرآن الكريم يعبّر عن ذلك أدقّ تعبير فى قوله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولايزالون مختلفين إلا من رحم ربك » [1] ويقول المفسرون فى شرح هاتين الآيتين : إن الله سبحانه وتعالى يبين لرسوله الكريم أنه لو شاء لجمع الناس على دين واحد ، وجعلهم مطيعين بطبيعتهم كالملائكة ، ولكنه سبحانه لم يشأ ذلك ، بل أبان لهم الخير والشر وتركهم يختارون ، ومن هنا جاء اختلافهم حتى فى أصـــول العقائد التى كان ينبغى ألا يكون حولها خلاف كالإيمان بوحدانية الله ، ولكنّ هناك جماعة رحمهم الله لســلامة الفطرة عندهم ، فآمنوا بالله ورسله وكتبه ...

وكان من رحمة الله بالبشرية أنه جعل الإسلام (وهو خاتم الأديان) يشمل الوسائل التى تكفل حسن العلاقة بين الأمم بعضها والبعض ، وان اختلفت تلك الأمم فى العقائد والاتجاهات ، فقدّم النظم للتعاون فى مجال السياسة ، والاقتصاد ، والحياة الاجتماعية ، والثقافية ، بل قدّم النظم للتخفيف من ويلات الحرب إن قامت الحرب بين جماعة وأخرى ، وكان ما قدّمه الإسلام فى هذا المضمار أول تعليمات من نوعها تعرفهـا البشرية .

ما هى تفاصيل هذه التعليمات التى كان الهدف منها تيسير الحيــاة لجماعة البشر وان اختلفت أديانهم ومعتقداتهم ؟

---

(١) سورة هود : ١٨ — ١٩ .

ذلك ما سنتحدث عنه بالتفصيل ، بعد أن نورد دراسة ترينا صورة الحياة قبل الإسلام ، حتى نستطيع أن ندرك مدى المنحة العظيمة التى قدمها الإسلام للمجتمع البشرى .

العلاقات الدولية قبل الإسلام

لو نظرنا الى دول العالم قبل الإسلام ، أو الى دول العالم بعد ظهور الإسلام وقبل أن يصلها هذا الدين أو قبل أن تشيع تعليماته وتصبح تيارا حضاريا عاما ، ماذا نرى ؟

الإجابة فى كلمات موجزة : صراع ودماء ودمار ، يتبعها نهب وسلب وتسلط ، مما جعل كثيرا من الدول تعمل على أن تقفل عليها حدودها ، ولا تسمح لقدم أجنبى أن تدب فيها .

وهذا الكلام الموجز يحتاج الى شىء من التفصيل لبيان طبيعة العلاقات بين الدول والجماعات قبل انتشار تعليمات الإسلام :

الحيـاة القبليـة :

كانت الحيـاة القبلية منتشرة فى الجزيرة العربية وفى كثير من البقاع الأخرى ، والحياة القبلية هنا وهناك متشابهة ، فالوحدة فى هذه البقاع هى القبيلة ، وهى وحدة يربط بينها الدم والعصبية ، ويعتبر من أفراد القبيلة هؤلاء الضعاف أو العبيد الذين يلجئون للقبيلة ويعيشون فى جوارها وحمايتها ، ولو لم تكن بينهم وبين القبيلة صلة دم .

وكانت القبيلة تخضع لدستور صارم نظمته التقاليد والعرف ، وخلاصة هذا الدستور أن يدس الفرد برابطته القبلية ، ويلتزم بتأييد مصالحها والعمل لها بكل ما يملك من قوة [1] .

---

(١) الميدانى : مجمع الأمثال جـ ١ ص ١٧ .

فالقبيلة بذلك هى عالـم كل فرد من أفرادها ، وجميع أفراد القبيلة متضامنون فيما يرتكبه أحدهم تضامنا حازما ، ومع تضامن أفراد القبيلة ، تعتبر القبائل الأخرى فى عداء مع هـذه القبيلة بسبب أو بدون سبب ، فالحذر والروح العدوانية كانا دستور الحياة بين القبائل •

حروب قبلية لأتفه الأسباب :

ويقدم التاريخ العربى صورا مزعجة عن الصراعات بين القبائل العربية بعضها والبعض الآخر ، ومن الحروب الشهيرة فى « أيام العرب » حرب « البسوس » وحرب « داحس والغبراء » وكانت أسبابها تافهة ونتائجها مريرة جدا ، فحرب البسوس كانت بين بكر وتغلب ، وقد استمرت أربعين سنة ، وهاجها مقتل كليب بن ربيعة من تغلب ، وسببها أن كليبا رمى بالنبل ناقة البسوس بنت منقذ التميمية ، والبسوس خالة جساس بن مرة من بكر فاستجارت البسوس بجساس فقتل جساس كليباً ، وكان كليب زوجا لجليلة أخت جساس ، وقامت الحرب التى دمرت الجميع حتى قال المهلهل أخو كليب : قد فنى الحيان ، وثكلت الأمهات ، ويتم الأولاد ، دموع لا ترقأ ، وأجساد لا تدفن •

أما داحس والغبراء ففرسان ، وداحس ملك لقيس بن زهير العبسى ، والغبراء ملك لحمل بن بدر من ذبيان ، وكان هناك سباق بين الفرسين ، وكان السبق لداحس ولكن رجلا من ذبيان لطمه فشغله وأضاع عليه السبق ، وبدأ الصراع الذى طال وامتد ، وأهلك العديد من النـاس والحيوان والمتـاع (١) •

وماذا عن حضر الجزيرة العربية ؟

واذا كانت هذه هى الحياة بين القبائل وبخاصة فى الجزيرة العربيـة فماذا نقول عن دائر الجزيرة العربية الذى اتسم بالاتجاه الحضارى ؟

---

(١) اقرأ أيام العرب والأدب العربى وتاريخه للاستاذ محمد هاشـم عطية ص ٤٨ وما بعدها .

ان الاتجاه الحضارى فى اليمن مثلا ضمن له استقرارا داخليا ولكنــه جعــل اليمن فريسة للاستعمار من الخــارج ، الاستعمار الحبشى ثم الفارسى ، والاستعمار — كفاك الله — شر وبيل على الإنسان وعلى الديار والأوطان ، وتحت وطأة الاستعمار عاش اليمن سنوات مريرة حتى أنقذه الإســلام من هذا العدوان .

والذى يقال عن اليمن فى جنوب الجزيرة يقال عن الحيرة فى الشمال الشرقى ، وعن الغساسنة فى الشمال الغربى ، فقد زحف نفوذ الفرس للحيرة ونفوذ الروم للغساسنة .

وماذا من أوربا ؟

واذا تركنا الجزيرة العربية وذهبنا الى أوربا ماذا نرى ؟

يواجهنا يوليوس قيصر الذى استطاع أن يقتحم فرنســا وجنوب انجلترا وبلاد الراين وجمع عددا هائلا من الأسرى ثم باعهم فى ســوق الرقيــق .

ثم يواجهنا الإقطــاع فى أوربا فى العصر الوســيط ، فمــاذا عن الإقطــاع ؟

الإقطــاع :

والاقطاع هو شكل التنظيم الاجتماعى الذى كان ســائدا فى أوربا الغربية عقب انحلال امبراطورية شارلمان (٨١٤) حفيد شارل مارتله ، وعقب انهيار الأنظمة الرومانية فى القرنين التاسع والعاشر الميلاديين ، ويتسم النظام الاقطاعى بتقسيم المجتمعات الى طبقات اجتماعية ، تقوم كل منها بذاتها ، ومن صفات الاقطاع الحروب التى لا تنقطع بين اقطاع وآخر ، ويذكر المؤرخون أن النظام الاقطاعى الذى كان سائدا فى أوربا قبيل قيام الحروب الصليبية كان من أهم أسباب هذه الحروب ، إذ أن الحروب التى كانت شبه مستمرة بين أفراد الاقطــاع أنتجت فئــة من

الأبطال والشجعان الذين احترفوا الحروب حتى أصبحت ضروب الشجاعة هواية لهم ، وقد دفعهم ذلك الى الرغبة فى اشعال نار الحروب فى أرض جديدة حتى يظهروا قوتهم ويصبحوا أبطالا عالميين [1] .

الفرس والروم وغيرهم :

وكانت الدول الكبرى فى العالم فى صراع مستمر ، تتبادل الانتصار والهزائم كما حدث بين الفرس والروم .

المغـــول :

وانفجر بركان المغول على العالم منذ وقت طويل وكان بركانا يحب الدم والدمار ، يعادى الشرق والغرب .

روسـيا :

روسيا دفعت حدودها للوراء فى مختلف الاتجاهات بسبب ضعف جيرانها فابتلعتهم قواتها العاتية ، وبهذا ضمت أجزاء من بولندا والسويد وتركيا وفارس وغيرها ، كما ضمت بخارى وسمرقند ...

ومن أجل هذا السعار الدولى قفلت الصين أبوابها فى وجه التدخل الأجنبى ، وكانت اليابان حتى عام ١٨٥٣ من البلاد المقفلة فى وجــوه الأجانب .

والهند حصنتها الطبيعة جبالا وبحارا جعلتها تسمى البلاد المقفــلة ولكنها لم تنج من العدوان من جهة الشمال ذلك العدوان الذى شنه الفرس والإفريق .

وكانت البحار تحت سـلطة القراصنة الذين كانوا يستولون على السلع والسفن والبحارة .

(١) انظر الجـزء الخامس من موســوعة التاريخ الاســلامى للمؤلف ص ٧١٩ (الطبعة السابعة) .

الاستعمار الأوربى :

وفى العصر الحديث انطلقت أوربا لتستعمر العالم ، وامتد الاستعمار من أمريكا الى إندونيسيا ، وشمل فيما شمل العالم الاسلامى كله ، والاستعمار لعنة على الجنس البشرى ، انه لا يعرف القيم والآداب ، والأخلاق ، وهو سرقة للمال ، واستعباد للانسان ، وإذلال للمغلوب ، وعندما حققت الولايات المتحدة استقلالها بعد نضال مرير انضمت الى القوى المستعمرة فاحتلت الفيلبين ، وجعلت من المال والعلم وسائل لاستعمار اقتصادى فاق فى قسوته ما عرفناه من استعمار الغرب .

وخلق الاستعمار الغربى اصطلاحات جديدة مثل ممتلكات التاج — مستعمرة تحت الحماية — تحت الوصاية — تحت النفوذ .

وبعد ، هذه لمحة سريعة عن قسوة العلاقات الدولية قبل الإسلام او قبل أن ينتشر الفكر الإسلامى ، وهى لمحة قصدنا بها تقديم نماذج وليس الإحاطة ، ولذلك لم نتكلم عن الهكسوس وزحفهم المدمر ولا عن الصليبيين الذين اندفعوا من الأطفال الى الملوك للهجوم على الاسلام والمسلمين ، ولا عن الصهاينة الذين تطيب لهم رؤية الدماء وتطاير الأشلاء ، والذين نقلوا ما نزل بهم من النازيين فأنزلوه بالفلسطينيين ، أو ضاعفوا ما أنزلوه بهم عندما سيطروا على المغلوبين .

وهكذا كان العالم ، لا تعرف فيه العلاقات الدولية التى تحمى الانسان من عدوان الانسان ، والتى تحاول أن تخلق من الدول المتعددة مجتمعا بشريا يسوده الوئام والسلام .

فماذا قدم الإسلام فى هذا المجال ؟

والى أى حد انتقل الفكر الإسلامى ليصبح فكراً عالميا أخذ يسود بخطا وئيدة فى جنبات الكون ؟

ذلك ما سنتحدث عنه فيما يلى :

هل كانت العلاقة بين المسلمين وغيرهم علاقة سيف ؟

فى طريقنا للحديث عن العلاقات الدولية بين المسلمين وغير المسلمين نذكر أنه من الواضح للباحث المنصف فى التاريخ الإسلامى أن الإسلام بدأ دعوة سلمية ، وهتف فى الناس جميعا أن يدخلوا فى السلم ، ولكن أعداء الإسلام بدءوا عداءهم للإسلام مبكرين ، وأنزلوا بالمسلمين صنوف العذاب ، وكان المسلمون إذا تخلصوا من عدو بطريق أو بآخر ظهر لهم عدو جديد ، حتى اضطروا أن يخوضوا سلسلة من المعارك ، تكاد تكون متصلة ، فقريش فى مكة أسرفت فى العدوان ، فترك المسلمون الوطن والأموال وهاجروا إلى المدينة ، ولكن قريشا لاحقتهم فى غزوة بدر وأحد ، وسرعان ما ظهر عدو جديد هو اليهود ، وقد شغل بهم المسلمون عدة سنوات ، ثم تحالفت الأحزاب ضد المسلمين ، ولما هزمهم الله ظهرت هوازن وثقيف فى غزوة حنين والطائف ، ثم تدخلت القوى العظمى الفارسية والرومانية لضرب المسلمين .

ويمكن التأكيد أن المسلمين كانوا يكرهون الحروب ويخوضونها للضرورات القصوى ، ولذلك عبر القرآن عن حالتهم أدق تعبير فى قوله تعالى « كُتِبَ عليكم القتال وهو كره لكم » [1] .

وفى وسط عواصف الحروب كان المسلمون دائما مستعدين للسلام ، وكانوا يمدون أيديهم للتعاون ، هكذا فعلوا مع اليهود عقب الهجرة ، ومع قريش فى الحديبية ، ومع هوازن وثقيف عقب انتصار المسلمين فى غزوة حنين والطائف .

وعلى هذا فالادعاء أن علاقات المسلمين قامت على السيف ادعاء لا يقوم على أساس من الحق أو التاريخ ، وعلى العكس يحتم الإسلام أن يتجه المسلمون للسلام ، وألا يلجئوا للحرب إلا إذا اعتدى عليهم قال تعالى :

---

(١) البقرة ٢١٦ .

— وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين (١) .

وقال : وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله (٢) .

الأخلاق الإسلامية تراعى بين الأفراد وبين الجماعات :

وقد عنى الإسلام عناية كبيرة بتشجيع صفات الحب والرحمة والوفاء بالعهود والعدالة ... بين الأفراد ، وقد جاء فى ذلك حشد هائل من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول ، ولكن الذى نريد إثباته هنا هو أن الإسلام يلتزم أن تقوم هذه الصفات ليس فقط بين الفرد والفرد بل أيضا بين الجماعة والجماعة وبين الدولة والدولة ، فالصفات التى فرضها الإسلام تنظم علاقة الآحاد ، وتنظم أيضا علاقات الجماعات والدول ، فالإسلام يعنى بالوحدة الإنسانية ويهتم بكل بنى الانسان ، وتقرر آية سورة الحجرات ان الناس يعودون إلى أصل واحد ، وأن تشعبهم إلى فرق وقبائل قصد به خلق جو للتعارف والمودة ، ولم يكن للفرقة والخلاف ، وذلك ما يفهمه المفسرون من قوله تعالى : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » (٣) وعلى هذا النمط سار الرسول والسلف الصالح .

ومن أجل ميل الإسلام للسلام من جانب ، وحثه على التعاون والحب مع الأمم الأخرى من جانب آخر لجأ المسلمون فى حالات كثيرة للمفاوضات والمعاهدات مع الأعداء كما سنرى .

---

(١) سورة البقرة ١٩٠ .

(٢) سورة الانفال ٦١ .

(٣) سورة الحجرات ١٣ .

الإسلام دعوة حضارية :

والإسلام ليس فقط دعوة دينية ولكنه أيضا دعوة حضارية ، ومن هنا فقد قدم للبشرية جمعاء أشعة من النور فى مجالات مختلفة ، لتكون أساسا للتعاون وقاعدة للخير وإن اختلف الدين ، وتشمل هذه الأسس جوانب الحياة المتعددة من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ، ولم يقف تنظيم الإسلام للعلاقات الدولية عند السلام ، بل امتدت التشريعات الإسلامية لتنظيم العلاقات عند الحرب للتخفيف من ويلات هذه الحروب ، وسنتدارس فيما يلى ما قدمه الفكر الإسلامى من توجيهات فى الجوانب المختلفة للعلاقات الدولية •

العلاقات الدولية
فى مجال السياسة

فى مطلع حديثنا عن الجانب السياسى فى العلاقات الدولية ينبغى أن نذكر أن المسلمين كانوا يلجأون للدبلوماسية كلما أمكن ذلك لتسوية مشكلاتهم مع الأعداء كما سنرى ، وقد سجلت المواقف المتعددة فى هذا النطاق صوراً مشرقة ، وإن كنا نعتقد أن الطبيعة السرية للعلاقات الدبلوماسية أخفت بعض المواقف والارتباطات ، على أن ما سجله التاريخ من صور البعوث والمعاهدات يؤكد أن الدبلوماسية الحديثة لها جذور قديمة .

وتؤكد الدراسات التاريخية أن النظرة الإسلامية للدول متساوية ، سواء كانت الدولة صغيرة أو كبيرة ، وعندما بعث الرسول صلوات الله عليه كتبه التى ينشئ فيها يدعو الرؤساء للإسلام اهتم بالدول الكبيرة والصغيرة جميعا ، فكما أرسل الى كسرى فارس وقيصر الروم أرسل كذلك إلى رؤساء القبائل وملك البحرين وملوك عمان ... وهذا يختلف عن عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة فى العصر الحديث حيث لا يُسْمَح إلا للدول المستقلة بأن تكون أعضاء بها ، ولا يُسْمَح بمخاطبة رؤساء الدول غير المستقلة إلا عن طريق الدول الكبرى التى لها سلطان عليها .

هدف العلاقات السياسية الإسلامية ووسيلتها :

والعلاقات السياسية التى ابتكرها الفكر الإسلامى كانت ترمى إلى تحسين العلاقة بين دولة وأخرى أو بين مجموعة ومجموعة أخرى ، كما كانت ترمى إلى الدعوة لفكر جديد يكون خيرا وبركة للجميع ، وكانت الوسيلة لذلك اجمالا السفارات والبعوث التى تحمل دعوة الخير وحسن العلاقة ، وهى كذلك الكتب والمعاهدات التى ترمى لتحقيق نفس الغرض ، وسنتحدث عن كل منها فيما يلى :

السفارات والبعوث

سفير ورسول :

استعمل العرب كلمة سفير ورسول بمعنى واحد أى الذى يحمل رسالة تفاهم إلى قوم آخرين ، وتذكر المصادر أن عمر بن الخطاب كان سفير قومه اذا نازّعت الأمور بينهم وبين الآخرين [١] .

أما كلمة رسول فقد استعملت أيضا منذ العهد المبكر ، ويذكر النووى [٢] عند حديثه عن حملة كتب الرسول إلى الملوك والرؤساء أن حاطب بن بلتعة كان رسول النبى عليه السلام إلى المقوقس ، وكان دحية ابن خليفة الكلبى رسوله إلى قيصر ، وعبد الله بن حذافة السهمى رسوله إلى كسرى ... ، وفى عهد المماليك كانت كلمة سفير شائعة الاستعمال لمن يقوم بهذه المهمة ، ويذكر الجبرتى [٣] ان الشيخ عمر الطحلاوى المالكى (١٧٦٧ م) كان رسول الأمراء المماليك إلى الأستانة كوسيط بينهم وبين الخلافة العثمانية ، وقد استقبل هناك أحسن استقبال ونجحت سفارته .

شروط السفراء :

وقد كان الاهتمام بالغا فى اختيار السفير أو الرسول ، فكان المسلمون يرون أن السفير يجب أن يتحلّى بأسمى الصفات العقلية والجسمانية والملامية ، فاشترطوا فيه الخبرة ، والذكاء والإخلاص العميق ، وسرعة البديهة . كما اشترطوا أن يكون وسيما لا تقتحمه العين ، ولا يزدريه الناظر ، ومن ناحية القدرة على الأداء كان ينبغى أن يكون السفير فصيحا بليغا جيد اللسان حسن البيان عارفا بلسان القوم الذين سيكون سفيرا لهم .

---

(١) النووى : تهذيب الأسماء القسم الاول جـ ٢ ص ٤ .
(٢) تهذيب الأسماء القسم الاول جـ ٢ ص ١٥٠ .
(٣) تاريخ الجبرتى جـ ١ ص ٢٨٨ .

ويضيف الفكر الإسلامى ضرورة روعة المظهر فالعامة ترمق الزى أكثر مما ترمق الكفاية والسداد ، ويلزم كذلك أن تزاح علته ، وأن تقضى حاجاته المادية حتى لا تشره نفسه إلى ما يبذل له ويدفع إليه (١) .

وقد تحدث القلقشندى حديثا طويلا عن شروط السفراء ، وفيما يلى اقتباسات من كلامه :

يذكر القلقشندى أنه يستدل على عقل المرسل برسوله وبكتابه ، ومن هنا فإن من الضرورى أن تتوجه عناية كبيرة لاختيار الرسل والسفراء ، وينبغى أن يكون السفير صحيح الفكرة والمزاج ، ذا بيان وعارضة ، وأن يكون بصيرا بمخارج الكلام ، مؤديا للألفاظ عن الملك بدقة ، صدوقا بريئا من الطمع .

وحتى يطمئن الملك إلى صلاح سفيره يقرر القلقشندى أن الملك لا يرسل للملوك سفيرا إلا بعد اختباره فى أمور مماثلة بداخل مملكته ، فإذا أدى الرسول سفارته بنجاح فى الداخل ، وتكرر ذلك منه كان من الممكن أن يوجهه فى سفارات للخارج .

ويقرر القلقشندى أن السفير ينبغى أن يكون دائما تحت المراقبة حتى لا تخول له نفسه الزلل أو الانحراف (٢) .

الوثائق التى يحملها السفير :

إن أوراق الاعتماد التى يقدمها السفراء اليوم لرؤساء الدول التى يرسلون إليها ، لها جذور تاريخية ، فقد كان السفراء فى صدر الإسلام يحملون ما يسمى « تذكرة » وكانت هذه التذكرة تكتب بخط جميل ، وتفيد أن حاملها (....) ينقل رسالة شفوية أو مكتوبة من ملكه إلى ملك

(١) انظر ابن الفراء : رسل الملوك ص ٣٥ .
(٢) صبح الأعشى جـ ١ ص ١١٦ .

البلاد التى أرسل إليها ، وكانت هذه التذكرة تكتب على ورق جميل مصقول من أجود أنواع الورق [١] .

أغراض السفارات :

كان من أغراض السفارات التفاوض لإنهاء حرب أو عقد صلح ، أو التفاوض لعقد حلف عسكرى ضد عدو مشترك ، أو رعاية المصالح المختلفة ومنها المصالح الاقتصادية وبخاصة تنشيط التجارة وتأمينها . ويذكر ابن شداد أن من أغراض السفارات التى اهتم بها صلاح الدين الأيوبى أن يستطيع كشف الأخبار بتواتر الرسل [٢] .

استقبال السفراء وأمكنة إقامتهم :

وضع المسلمون نظاما دقيقا لاستقبال السفراء ، وقد تحدث القلقشندى عن ذلك بإفاضة ، وخلاصة ما ذكره أنه كانت هناك قواعد تراعى فى هذا المجال ، وكانت هذه القواعد ترمى إلى إبراز معالم العظمة والقوة فى العالم الإسلامى وإرهاب أعداء الإسلام والتأثير فيهم ، وكان هناك جماعة تخصصوا فى استقبال السفراء ، وإسكانهم حسب أقدارهم وأقدار مرسليهم ، فمنهم من كان ينزل فى جناح خاص بقصر السلطان ، ومنهم من كان ينزل فى دور الضيافة ، وتعد خطة للسفير ليلتقى بولى الأمر ، وفى الموعد المحدد ينظم موكب فخم ، ويسعى السفير إلى السلطان الذى يجلس فى إيوانه ، وذلك عندما أصبح لسلاطين المسلمين قصور وإيوانات ، أما قبل ذلك فكانت البساطة هى طابع استقبال السفراء كما سنرى .

وغالبا لم تكن هناك سفارات دائمة ، وإنما كان السفير يحضر لمهمة من المهام التى ذكرناها آنفا ، ويعود لبلاده عقب تبليغها ، وبالتالى لم تكن هناك دور لكل سفارة كما هو موجود الآن فى دول العالم .

---

(١) صبح الأعشى ج ٢ ص ٤٧٦ .

(٢) ابن شداد ص ٢٢١ .

امتيازات السفراء والتزاماتهم :

من الامتيازات التى قدمها المسلمون السفراء عدم دفع الضرائب مما يحملون من أمتعة مادامت للاستعمال الشخصى أو هدايا يقدمونها للمسلمين ، ويسمح لهم بممارسة شعائرهم الدينية على الا يكون فى ذلك مساس بالعقائد الإسلامية أو تقليل من شأنها .

تأمين المبعوثين :

وحتى يستطيع المبعوث أن يحمل الرسالة ويقوم بدوره فى السفارة كان لابد من تأمينه ، وقد وصل المسلمون فى تأمين المبعوثين إلى مدى بعيد ، فيروى الشوكانى [1] ان مندوبين جاءا للرسول صلوات الله عليه يحملان رسالة مسيلمة التى يدعى فيها أنه رسول ، وقرأ الرسولان الرسالة على الرسول فسألهما الرسول : وماذا تقولان أنتما فى هذا الأمر ؟

فقالا : نقول كما قال مسيلمة .

فقال لهما الرسول : لولا أن الرسل لا تقتل لضربت أعناقكما .

ويروى كذلك ان الرسول كان لا يحبس عنده مندوبا من عند عدوه [2] .

وتنفيذا لهذا الاتجاه قرر الفقهاء أن السفراء لا يحتاجون لعقد أمان ، فوجود المبعوث فى هذه المكانة يضمن له السلامة دون حاجة الى عقد أمان بشأنه .

ماذا لو ارتكب المبعوث ما يستوجب العقاب ؟

ولكن ما الحكم إذا ارتكب المبعوث ما يستوجب العقاب ؟ .

يقول الفقهاء إن المبعوث إذا ارتكب ما يستوجب التعزير جاز العفو عنه لأن الحكم غير مقرر تحديداً ، فإذا ارتكب عقوبة لها حد قرآنى

(١) نيل الاوطار جـ ٨ ص ١٩ .
(٢) زاد المعاد جـ ٢ ص ١٠٦ .

فإن مذهب أبى حنيفة يجيز الترخص فى الحدود التى ليس للعباد فيها حق ، أو كان حق الله فيها غالبا .

أما القصاص وهو ما يرتبط بالعدوان على شخص فلم يترخص فيه أبو حنيفة ولا غيره ، ويتحمل المبعوث مسئوليته .

وإذا كان عدوان المبعوث على شىء مالى مملوك لشخص ، واقتضت قوانين العلاقات الدولية عدم مؤاخذة المبعوث ، فإن على الدولة الإسلامية أن تتحمل ذلك وأن تؤدى للمواطن تعويض ما فقده [(١)] .

وكان المبعوث كما ذكرنا آنفا يحمل خطابا من دولته إلى الدولة التى أُرسل إليها يحدِّد مكانته والمهامَّ التى أُسندت اليه ، وذلك الخطاب شديد الشَّبَه بما يُعْرَف الآن بأوراق الاعتماد التى يحملها السفراء فى العهد الحاضر .

وبناء على ذلك كان المبعوث يعتبر رمزاً لدولته ، وبالتالى كانت له كافة الحقوق التى لرئيس دولته [(٢)] .

وعلى هذا كان الاهتمام يتجه لاختيار السفراء بحيث يكونون أهلا لهذه المكانة التى وُضِعوا فيها .

قتل المبعوث معناه إعلان الحرب :

وإذا كان المبعوث له هذه المكانة ، ويستمتع بهذه الحقوق فان العدوان عليه يعتبر بمثابة إعلان حرب على دولته ، ولعل أول تصرف فى الإسلام فى هذا النطاق كان قتل مبعوث رسول الله « الحارث بن عمير الأزدى » الذى أرسله الرسول إلى الغساسنة ، وكان هؤلاء تحت سلطان الروم ، فقتلوا مبعوث الرسول بإيعاز من سلطان الروم ، وكان ذلك عدوانا يستحق

---

(١) الشيخ محمد ابو زهرة : العلاقات الدولية فى الاسلام ص ٧٢ — ٧٣ بتصرف .

(٢) دكتور ابراهيم العدوى : الامويون والبيزنطيون ص ٢٨٠ .

التأديب ، وبسببه حدثت غزوة مؤتة التي كان من أهم أهدافها معاقبة هؤلاء الذين اعتدوا على مبعوث الرسول .

وفي تاريخ مصر حادثة مماثلة فقد أرسل المغول إلى قطز سلطان مصر رسالة ، ولكنها لم تكن تحمل الأدب اللائق بالرسائل التي يحملها المبعوثون ، بل كان فيها تهديد ووعيد وأوامر بالتسليم والاستسلام [١] ، وكان من نتائج ذلك أن صدرت الأوامر من سلطان مصر بقتل الذين حملوا هذه الرسالة ، واستتبع ذلك قيام الحروب بين المغول ومصر ، وأشهر معارك هذه الحروب « عين جالوت » التي اندحر فيها جيش المغول وقتل قائده .

---

(١) اقرأ هذه الرسالة ونتائجها في الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الاسلامي للمؤلف ص ٢٤٧ وما بعدها من الطبعة السابعة .

من تاريخ السفارات فى الإسلام

حكيم بن حزام فى غزوة بدر :

من أقدم السفارات التى يعرفها الفكر الإسلامى تلكَ الجهود التى قام بها حكيم بن حزام ليمنع الحرب من أن تشتعل بين المسلمين وقريش فى لقاء بدر ، وقد أوشكت سفارته على النجاح لولا العنجهية التى دفعت عتبة بن ربيعة أن ندفع ومعه أخـوه وابنه يتحدَّى المسلمين بطلب المبارزة ، وقد انتهت المبارزة ، كما هو معروف بقتل هؤلاء الثلاثة ، ثم دارت المعركة ، وهكذا كان فشل سفارة حكيم بن حزام نتيجة لعنجهية عتبة وذويه .

سفراء الحديبية :

وفى لقاء الحديبية نشطت السفارات نشاطا عظيما ، وأتت بنتائج طيبة هذه المرَّة ، فعندما وصل المسلمون بتجمُّعهم الهائل الى الحديبية ، وأعلنوا أنهم قادمون لزيارة البيت العتيق ، وذلك حقٌ لكل النـــاس لا يُحْرَم منه أحد ، عندئذ أعلنت قريش انها تعتبر ذلك هجوما على مكة ، واقتحاما لديارهم ، وانها ستقاوم ذلك .

وقد أرسلت قريش بُدَيل بن ورقاء فى رجال من خزاعة ليتعرفوا القصد الحقيقى من زحف المسلمين ، وسرعان ما تبيَّن لهؤلاء أن المسلمين جاءوا معتمرين ولا يقصدون أى سوء ، فنقل بديل وأصحابه هذا الرأى لقريش ونصحوهم بأن يُخَلّوا بين المسلمين وبين العمرة ، ولكنَّ قريشا رفضت قبول هـــذا الرأى .

ثم أرسلت قريش حليفها الحلَيس بن علقمة ســـيد الأحابيش لنفس الغرض ، فلما رآه الرسول أطلق الهدى أمامه ، وكان ذلك خير جواب قنع به الحليس ، وعاد دون أن يقابل الرسول ليؤكد لقريش أن المسلمين ينوون العمرة لا سواها .

ولكن قريشا لم تأخذ أيضا برأى الحليس .

واختارت قريش فى هذه المحاولة الثالثة رجلا عُرِف بالحكمة وبعد الرأى وهو عروة بن مسعود الثقفى ولكنه عاد بنفس الرأى .

والتقط الرسول زمام المبادرة فأرسل خراش بن أميــة الخزاعى . ولكن قريشا همّت بقتله فاستطاع أن يفرّ منهم بمعونة الأحابيش ، ثم أرسل الرسول عثمان بن عفان ذمهّد الطريق وعمل على تطمين قريش . ولكن غيبته طالت ، وأشيع أن قريشا قتلته ، فأدرك المسلمون أنه لابد من القتال دفاعا عن مبدأ ســلامة المبعوثين وتمّت بيعة الرضوان التى أشارت لها سورة الفتح [1] ، ولكن عثمان سرعان ما عاد واتخذت المفاوضة طريقا لحل المشكلة ، ومثّل سهيل بن عمرو قريشا فى هذه المفاوضة التى انتهت بالنجاح [2] . وسنتحدث عن معاهدة الحديبية عند الحــديث عن المعــاهدات .

عدى بن حاتم الطائى مع الرسول بالمدينة :

ووفد على الرسول بالمدينة عدىّ بن حاتم الطائى ، وكان قد اعتنق المسيحية ، وقد جاء عدى للرسول يمثّل قومه ، فأحسن الرسول استقباله واحتفى به حفاوة بالغة ، ودعاه إلى بيته ، ودار بين الرســول وبينه الحــوار التالى :

الرسول : مرحبا بك يا عدى ، لقد كنت أترقب حضورك لى .

عــدى : وأنا كنت أعِدُّ نفسى من مدة لهذا اللقاء .

الرسول : يا عدى تعتنق النصرانية ولا تتبعها ؟

عــدى : كيف ذلك ؟

---

(١) سورة الفتح الآيــة ١٨ .

(٢) اقرأ عنها فى الجزء الأول من موســوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف ص ٤٩٧ وما بعدها .

الرسول : تسير فى قومك بالمرباع ، وليس هذا من المسيحية فى شىء .

عـــدى : هل أنت تعلم دينى أكثر منى ؟

الرسول : نعم ، فالقرآن الكريم فيـــه الكثير عن النصرانية الحقة ، وأما ما تتبعه فهو عادات عربية اختلطت بالدين [1] .

وانتهى هذا الحوار بأن أعلن عدى إســـلامه .

ووفد على الرسول كذلك وفد نصارى نجران ، فأحسن الرسول استقبالهم ، وفرش لهم عباءته وأجلسهم عليها [2] .

سفارة المقوقس لعمرو بن العـــاص :

ومن أهم السفارات التى دوّن التاريخ الإسلامى أخبارها سفارة المقوقس حاكم مصر الى عمرو بن العاص ، وكان عمرو ذكيا ، فاستبقى الوفدَ يومين ليتعرفوا بأنفسهم على أحوال المسلمين ... وعاد أفرادُ هذا الوفد إلى المقوقس يقدّمون وصفاً حبّب الإسلام للمصريين ، قالوا : رأينا قوما الموتُ أحبُّ إليهم من الحياة ، والتواضعُ أحب اليهم من الرفعة ...

وهـــذا دفع المقوقس لعقد صلح مـــع المسلمين دون أن يرجع الى أمبراطور الروم الذى كانت له السلطة على مصر [3] .

بين الوليد بن عبد الملك وامبراطور الروم :

كان الوليد بن عبد الملك قد حوّل إحدى كنائس دمشق إلى مسجد ، إذ أن السكان المحيطين بها قد دخلوا الاسلام ، ولم يَعُدْ هناك عددٌ ذو بال يستعملها ، وفى الوقت نفسه احتاج هؤلاء إلى مكان يعبدون الله

---

(1) انظر المكتبة الاسلامية لكل الأعمار جـ ١٢ ص ١٩ .

(2) انظر كتاب « الاسلام » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف ص ١٧٦ .

(3) اقرأ عن هذه السفارة فى الجزء الأول من موسوعة التاريخ عنـــد الحديث عن فتح مصر .

فيه ، فكان طبيعيا فى رأيه أن يحول هذه الكنيسة إلى مسجد ، وحينئذ أرسل له امبراطورُ الروم سفارة تحمل خطابا جاء فيه :

إنك هدمت الكنيسة التى رأى أبوك تركها ، فإن كان أبوكَ على حق فقد خالفتَ أباك وخالفتَ الحق ، وإن لم يكن أبوك كذلك فإنك تعترف أنه كان على باطل .

وردَّ عليه الوليد برسالةٍ توضِّح أن الأحكام قد تتغير بتغيُّر الظروف ثم إن الله سبحانه وتعالى قد يُلْهِم ابْناً بفكرة دون أن يُلْهم بها أباه ، وليس فى ذلك نقصٌ فى الأب ، وأورد له فى هذا المعنى قوله تعالى :

« وداود وسليمان إذ يحكمان فى الحرث إذ نفشت فيه غنم القوم ، وكنا لحكمهم شاهدين ، ففهَّمناها سليمان ، وكلاًّ آيتنا حكما وعلما » (١) .

سفارات فى العصر العباسى :

وفى العصر العباسى الأولَ قامت صداقات وتبودِلَتْ سفارات ورسائل وهدايا بين الخلفاء العباسيين وبين معاصريهم من ملوك الفرنجة ، بين المنصور و Pepin وبين المهدى و Charles Martel وبين الرشيد و Charlemagne وكثيرا ما تبادَلوا الهدايا والسفراء ، وكان من هدايا الخلفاء الى ملوك الفرنجة كثير من التحف الشرقية الرائعة ، وفيل ، وساعة مائية دقّاقة حسبها الفرنجة آلة سحرية أول ما رأوها (٢) .

وكان الدافع على هذه العلاقة يرتبط بالسياسة الداخلية للجانبين ، ولا يرتبط بالسياسة الإسلامية العامة ، أو بالسياسة المسيحية العامة ، فقد كان خليفة بغداد يكيد بهذه الصداقة إلى أمير الأندلس المسلم ويهدده بإمبراطور الفرنجة ، كما كان إمبراطور الفرنجة يقوم بنفس الدور تجاه

---

(١) سورة الأنبياء الآية ٧٨ والقصة أوردها ابن عساكر فى الجزء الاول من التاريخ الكبير ص ٤١ وما بعدها .

(٢) انظر الجزء الثالث من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف ص ٢٥٥ .

إمبراطور الدولـــة البيزنطية المسيحى ، فهـو يهدده بالخليفة المســلم المجـاور له ٠

ومن السفارات التى اتجهت لإنهــاء الحرب ، أو فض نزاع بين الدولة الإسلامية والدول المجاورة ، ما حدث بين الخليفة المأمون وامبراطور الروم « ايتوفيل » فقــد أرسل هــذا الى المــأمون سفارة تحمل كتابا جاء فيـــه :

أكتب إليك داعيا إلى المســالمة ، راغبا فى فضيلة المهادنة لتضع عنا أوزار الحرب ، ويكون كل واحد منا ، مواليا للآخر ، مع اتصال المرافق والتبادل فى المتاجر ، وإطلاق الاسرى ، وأمن الطرق ٠

وقد رد عليه الخليفة المــأمون قائلا :

أكتب اليك مستجيبا لدعوة المسالمة ، راغبا فى فضيلة المهادنة ، لنضع عنا أوزار الحرب ، ولنفسح الطريق لاتصال المرافق وتنشيط التجارة [١] ٠

سفارات فى العهد الأيوبى :

نشطت السفارة فى العهد الأيوبى بين سلاطين مصر وملوك الفرنجة ، وقد كان الملك العادل سيف الدين شقيق السلطان صلاح الدين من أبرز مبعوثيه لملوك الفرنجة وبخاصة إلى ريتشارد قلب الأسد ، وذلك لعقد الصلح الذى عرف بصلح الرملة سنة ١١٩٧ م [٢] ٠

وفى عهد الملك الكامل وصل إلى مصر رسول ملك الفرنجية بهدية سنية وتحف غربية الى الملك ، وكان فيها عدة خيـــول منها فرس الملك بمركب مرصع بالجوهر فأحسن الملك الكامل استقباله وأكرمه ، واهتم بتجهيز

---

(١) الدكتور ابراهيم العدوى : السـفارات الاســلامية الى أوربا فى العصور الوسطى ص ١٤ و ١٨ ٠

(٢) اقرأ عن هذه السفارة فى الجــزء الخامس من موسوعة التاريخ للمؤلف ص ٧٦٢ ٠

هدية فاخرة الى ملك الفرنجة ، وسيّر الكامل هذه الهدية بصحبة سفيره جمال الدين بن منقذ الشيرازى [١] .

سفارات داخلية بين الدول الإسلامية :

وتتحدث المصادر التاريخية عن سفارات كانت تتم أحيانا بين دولتين مسلمتين لتوثيق عرى الود والإخاء بينهما ، والمصادر التى تحدثت عن الدول الإسلامية جنوب صحراء افريقية تطنب فى ذكر السفارات التى كان يبعث بها ملوك مالى إلى سلاطين العالم الإسلامى ، ومن بين هذه السفارات تلك التى بعث بها السلطان منسا موسى سنة ٧٣٦ هـ إلى السلطان على بن عثمان المرينى ، وكانت السفارة تحمل الهدايا والطرف إلى زعيم بنى مرين ، بمناسبة انتصاره فى بعض المعارك التى كان مشغولا بها [٢] ، وقد أحسن السلطان على بن عثمان استقبال هذه السفارة ، وأعد من جانبه مجموعة من الهدايا القيمة وبعث بها مع وفد من كبار رجال دولته وقد رافق هذا الوفد سفارة منسا موسى فى طريق عودتها إلى بلاد السودان .

وعن أحداث هاتين السفارتين يقول ابن خلدون : وكان بين السلطان منسا موسى وبين ملك المغرب لعهده من بنى مرين مواصلة ومهاداة ، سفرت بينهما فيها الأعلام من رجال الدولتين ، واستجاد صاحب المغرب من متاع وطنه وتحف ممالكه مما يتحدث عنه الناس ، وبعث بذلك مع على بن غانم وأعيان من رجال دولته [٣] .

ويذكر العمرى [٤] أنه كان من أهداف هذه السفارات التعرف على الأحوال بالبلاد التى ترسل لها السفارة ، وفى ذلك يقول : وكان من عادة

---

(١) المقريزى : السلوك : القسم الأول ص ٢٢١ — ٢٢٣ .
(٢) السلاوى : الاستقصا لأخبار المغرب الاقصى جـ ٣ ص ١٥١ .
(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٤١٦ — ٤١٧ .
(٤) مسالك الابصار جـ ٢ ص ٥٠٠ — ٥٠١ .

ملك السودان (مالى = التكرور) أنه اذا عاد اليه أحد ممن بعث به أن يسأله عن كل ما رأى وسمع من بدء الرحلة حتى العودة •

وكانت هناك سفارات وهدايا من هذا النوع بين سلاطين المماليك بمصر والدولة العثمانية وبخاصة عندما استطاع العثمانيون فتح القسطنطينية •

وهكذا وضع الرسول صلوات الله عليه مبادىء العلاقات الدولية فى السياسة ، وسار المسلمون على هذا النمط عبر التاريخ ، فقدموا للبشرية هذا النوع من العلاقات بعد أن لم يكن له وجود ذو بال فى المجتمع البشرى •

سفير خائن :

وقد ذكرنا من قبل أن من الضرورى أن يستوثق الملوك من إخلاص سفرائهم ، فيحافظ هؤلاء السفراء على أسرار الدولة ولو أدى ذلك إلى التضحية بأرواحهم ، فإنه إذا خان السفير وقعت الكارثة ، ويقص التاريخ أن أبا مسلم الخراسانى كان يقيم فى خراسان سيدا مطاعا ، وكان الخليفة أبو جعفر المنصور حاقدا عليه ، لكنه لم يكن يستطيع مواجهته بالحقد وهو (أبو مسلم) فى عرينه بخراسان ، وكان لأبى مسلم سفير دائم بالأنبار عاصمة العباسيين آنذاك هو أبو الجهم بن عطية ، والمفروض أن هذا السفير عين لأبى مسلم ولسان له فى عاصمة الخليفة ، ولكن السفير خان الأمانة ، واستجاب لأبى جعفر المنصور ليقوم بمؤامرة دبرت لاستقدام أبى مسلم بحيلة أو بأخرى من خراسان إلى الأنبار ونجحت الحيلة ، وكان أبو الجهم بن عطية وسيلة لخداع أبى مسلم والتغرير به ليحضر من العرين إلى أرض لا حول له فيها ولا قوة [1] • وعندما حضر أبو مسلم إلى الأنبار كان الفتك به يسيرا ، فسقط البطل نتيجة خيانة سفيره •

---

(١) اقرأ القصة وتسلسل الخيانة بالجزء الثالث من موسوعة التاريخ للمؤلف ص ٩٥ — ١١١ •

الكتب والرسائل

كان المسلمون يلجئون للسفراء — كما رأينا من قبل — إذا كانت هناك مفاوضات ومباحثات ليقوم السفير باسم المسلمين بهذه المفاوضات ، وليكشف اتجاها يكون قد خفى على الجانب الآخر كما حدث بالنسبة لسفيرى الرسول فى الحديبية •

ولكن إذا كان الأمر المطلوب ليس موضع نقاش ومحاورة ، فإن الكتب والرسائل تكون أدق وأجدى ، لأنها تحمل بدقة المعنى الذى يريده الرئيس •

وسنتحدث فيما يلى عن بعض نقاط مهمة تتصل بالرسائل :

لغة الرسائل :

كان المسلمون يستعملون اللغة العربية فى رسائلهم للعرب ولغير العرب ، وكانت الرسائل من غير العرب تأتى بلغات مرسليها غالبا ، ونتيجة لذلك كان المترجمون هنا وهناك يقومون بدور كبير ، وكانت الدواوين الإسلامية حافلة بمن يعرفون اللغات اللازمة ، وكان يشترط فى هؤلاء المترجمين الدقة الكاملة ، والإخلاص العميق ، حتى تكون الترجمة تعبيراً دقيقاً للرسائل غير العربية ، وعندما تصل رسالة غير عربية يقوم المترجم المسئول بترجمتها فى ورقة خاصة ترفق بالرسالة الواردة •

وتذكر المصادر العربية أنه منذ مطلع الإسلام حث الرسول صلوات الله عليه على تعلم اللغات الأجنبية ، وينسب له قوله : مَنْ تعلم لغة قوم أمن مكرهم • وفى كتبه عليه السلام التى أرسلها للملوك والرؤساء —

والتى سنتكلم عنها بعد قليل — حرص على أن يكون حاملوها ممن يعرفون لغة المرسل إليهم [١] .

ألقاب المرسل إليهم :

ومن الأشياء التى حرص عليها المسلمون فى رسائلهم لغير المسلمين ، استعمال الألقاب التى يُلَقَّب بها المرسل إليهم ، ويقول القلقشندى إنه كان لدى الدواوين الإسلامية سجلاّت بألقاب رؤساء الدول الأجنبية وعظمائها ، ويحذِّر القلقشندى من نتائج عدم الالتزام بهذه الألقاب لأن عدم الالتزام بها يُحْدث صَدْعاً فى العلاقات [٢] .

وكانت هناك ألقاب للملوك الكفر ، وألقاب للملوك المسلمين وعظمائهم [٣] .

صفـات الكاتب :

ويتحدث القلقشندى عن الكتّاب الذين يكتبون عن الملوك ، ويقرِّر أن هذا الكاتب يجب أن يكون على دين الملك ومذهبه ، وكذلك أن يكون من علو الهمة ، وقوة العزم ، وشرف النفس ، بالمحل الأعلى ، والمكان الأرفع ، فإنه يكتب عن مَلِكه ، وكلُّ كاتب يجرُّه طبعه وجبلّته إلى ما هو عليه من الصفات . فكلما كان الكاتب أقوى جانبا وأشـدَّ عزما ، كان على التفخيم والتعظيم والتهويل والترغيب والترهيب أقدر [٣] .

دقة التعبير وجـودة الورق ...

وسنتحدث بعد قليل عن « كتابة المعاهدة » حيث نُبرز ضرورة الدقة فيما يُكتب ، وضرورة الاهتمام بنوع الورق والحبر والخط ... فهذا شىء لازم فى الرسائل وفى المعاهدات على السواء .

---

(١) ابو عبيد : الاموال ، وعبد الحى الكتانى : التراتيب الادارية حـ ١ ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٢) صبح الأعشى حـ ١ ص ١٣٤ .

(٣) انظر صبح الأعشى حـ ٦ ص ٩٥ و ١٠٦ .

وسنورد فيما يلى بعض نماذج من الكتب والرسائل :

كتب الرسول للملوك والرؤساء :

من أهم نماذج العلاقات الدولية التى برزت فى التاريخ الإسلامى ، تلك الكتب والرسائل التى بعث بها الرسول صلوات الله عليه إلى الملوك والأباطرة حول الجزيرة العربية ، أو إلى رؤساء العشائر والإمارات بالجزيرة العربية ، يدعوهم فيها أن يدخلوا هم وأتباعهم وشعوبهم دين الله ، ويبين لهم مبادىء هذا الدين وقواعده ، وتذكر المصادر العربية نصوص كتب الرسول الى المنذر بن ساوى ملك البحرين ، وإلى ملكى عمان ، ولحاكم اليمن ، وإلى النجاشى ، وكسرى ملك الفرس ، وقيصر إمبراطور الروم ، وإلى المقوقس حاكم مصر ، وإلى ملك الغساسنة ، وغيرهم ، وقد صيغت هذه الرسائل صياغة كلها حكمة ودقة ، فالرسول فيها يدعو ولا يهدد ، ثم هو لا يقلل من مكانة الملوك والرؤساء ، بل يكتب لهم بألقابهم ، ويعترف بمكانتهم ، ويقرر أن سلطانهم فى ظل الاسلام باق لهم ، وهو بذلك يؤكد أنه ليس طالب ملك ، ثم يذكر كذلك أن هناك زكاة فى أموال الأغنياء ولكنه يؤكد أن الزكاة لا تحل لمحمد ولا لآل محمد ، وإنما تؤخذ من أغنياء المسلمين وترد على فقرائهم ، وهو بذلك يؤكد أنه ليس طالب مال .

والرسول يخاطب كل ملك حسب ظروفه ، فإن كان من أهل الكتاب أشار إلى ما بين الأديان السماوية من روابط ، وإن كان من غيرهم أشار إلى التزام البشرية بالعودة إلى الله وترك عبادة ما سواه (٢) .

وكان من عبقرية الرسول أنه أحسن اختيار مبعوثيه ، فكان كل منهم يعرف لغة البلاد التى أرسل اليها ، كما كانوا معروفين بالرشد

---

(١) صبح الأعشى حـ ١ ص ١٢١ .

(٢) اقرأ نصوص هذه الرسائل فى كتاب الأموال لابى عبيد ، وفى صبح الأعشى حـ ٦ ص ٣٧٧ وما بعدها ، وفى المكتبة الاسلامية لكل الأعمار للمؤلف حـ ١ ص ٢٤ وما بعدها .

و... وقد نجح أكثر هؤلاء المبشرين فى شرح الفكر التى تدعو لهـا ... الرسائل .

بين صلاح الدين وريتشارد :

و... الرسائل المهمة التى حفظها لنا التاريخ ، تلك الرسائل التى ... صلاح الدين الأيوبى وريتشارد قلب الأسد ملك بريطانيا ، ... ابن شداد [1] ونقتبس منه أهم ما جاء بها :

كتب ريتشارد إلى صلاح الدين يقول :

إن المسلمين والفرنج قد هلكوا ، وخربت ديارهم ، وتلفت الأموال ... وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ، والقدس متعبدنا ما ننزل عنه ، والصليب خشبة عندكم لا مقدار له ، وهو عندنا عظيم ، فيمن به السلطان علينا ، ونستريح من هذا العناء .

فأجابه صلاح الدين قائلا :

القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم ، إنه مسرى ... ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ، والبلاد لنـا ، ... واستيلاؤكم عليها كان طارئ لضعف المسلمين آنذاك ، وأما الصليب فهلاكه ... عظيمة ، فلا يجوز أن نفرط فيه إلا لمصلحة أوفى منه .

من الظاهر بيبرس إلى بوهيمند :

ومن الرسائل المهمة رسالة الظاهر بيبرس الى أمـير انطاكية . وقد كانت أنطاكية أقوى إمارات الصليبيين بالشام فى مطلع عهد الظاهر بيبرس ، ولكن بيبرس استطاع أن يدكها ويستولى عليها ، وقد حدث ذلك فى غيبة أميرها بوهيمند الذى كان آنذاك فى إمارة طرابلس ، فأراد

---

[1] سيرة صلاح الدين ص ١٦٤ .

الظاهر أن يدمر نفسيته حتى لا يفكر فى استرداد أمارته فكتب له رسالة طويلة جـاء فيهـا :

« نزلنا انطاكية فى مستهل رمضان ، وخرج عساكرك للمبارزة فكسروا ، وتناصروا فما نصروا ، وفتحناها بالسيف رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والدفاع عنها .

« فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهاية فيها تصول ، وأموالك وهى توزن بالقنطار ، وجواريك وكل أربع منهن تبعن بدينـار ، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قـد كسرت ، وقبور البطارقة قد بعثرت ... لتيقنت أن قوة الله أعادت انطاكية إلى أهلها إلى الأبد ، وتركتك بدون عون أو مدد .

ولو رأيت قصورك وأحوالها قد حالت ، وكنائسك وقد زالت ، لكانت نفسك تذهب من حسرتك ، ولحاولت أن تطفىء النيران بماء عبرتك .

ولتعلم أننا أنزلنا أصحابك من الصياصى ، وفرقناهم فى الدانى والقاصى ، وقد وهبك الله السلامة لأنك لم تكن لك بأنطاكية آنذاك اقامة ، ولو كنت فيها لكنت الآن إما قتيلا أو أسيرا ، وإما جريحا أو كسيرا [1] » .

المعاهدات

أشار القرآن الكريم فى كثير من آياته إلى ضرورة الوفاء بالعهود ، وأثنى على من يلتزم بما نصت العهود عليه ، وهاجم من نكث الوعد وخرق العهد ، قال تعالى :

— وأوفوا بعهـد الله إذا عاهدتم ، ولا تنقضـوا الأيمـان بعد توكيدهـا [2] .

---

(١) ملحق السلوك للمقريزى حـ ١ ص ٩٦٦ وما بعدها .

(٢) سورة النحل : ٩١ .

— وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا [١] .

— .. والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون .. [٢] .

— الذين عاهدتم منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة [٣] .

— أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم [٤] .

وهذه الآيات الكريمة واضحة الدلالة على جواز المعاهدات وعلى ضرورة الوفاء بها ، وهى فى الوقت نفسه تحذر المسلمين من غير المسلمين الذين دأبوا على نقض المعاهدات ، أو على الأقل اندفع فريق منهم لرفضها .

وبناء على هذه التوجيهات السماوية لجأ المسلمون للمعاهدات حقنا للدماء ، ومحاولةً للوصول إلى الأهداف بدون صراع ، ومنذ مطلع الإسلام كان هناك كُتَّابُ الوحى ، وفى نفس الوقت كان هناك كُتَّابٌ للمعاهدات ولرسائل الرسول ، وبانتشار الإسلام واتساع الحركة بين المسلمين وغير المسلمين وُجِدَ ديوان الإنشاء والرسائل الذى كان يتولى تسجيل هذه المعاهدات ، وكان الرسول نفسه وخلفاءُ المسلمين من بعده يشرفون إشرافاً مباشرا على هذا الديوان ، ويشتركون فى إعداد المعاهدات ، يساعدهم جماعة فى مستوى رفيع من الكفاءة والثقافة والدراية ، وقد أفاضت الدراسات القديمة والحديثة فى بيان الصفات الشخصية والعلوم المتعددة التى كان على هؤلاء الكتاب أن يلِمُّوا بها [٥] ، وسنذكر فيما يلى بعض قضايا عن المعاهدات :

---

(١) الاسراء : ٣٤ .

(٢) المؤمنون : ٨ .

(٣) الأنفال : ٥٦ .

(٤) البقرة : ١٠٠ .

(٥) دكتور عمر كمال توفيق : الدبلوماسية الاسلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين ص ١٢٧ .

الحنكة والحكمة فى المفاوض :

وكانت المفاوضات التى تسبق المعاهدات شاقة للغاية ، فإنها تبدأ والهوة واسعة بين الطرفين ، ثم تحاول الجهود التقريب بين الاتجاهين بالتنازلات من هذا الجانب أو ذاك ، والمفاوضات تبرز بشكل واضح أو خفى صوراً من الترغيب والتهديد ، ولذلك يجب على من يقوم بالمفاوضة أن يتسم بالصبر والحنكة والحكمة ، ثم وجب عليه أن يستشير معاونيه ومشيريه ، والتاريخ يسجل لنا مفاوضات الحديبية التى سنشير لها فيما بعد ، وما كان فيها من عناء ، واستشارة الرسول لأصحابه . ورفض عمر بعض مواد المعاهدة المقترحة ... ولكن الرسول أبرمها لحكمة رآها ؛ وكان خيرا ما فعل ، واذا قفزنا الى البطل صلاح الدين الأيوبى نجد أنه لم يكن ينفرد باتخاذ القرارات خلال المفاوضات مع ريتشارد ، بل كثيرا ما كان يلجأ لخاصته ومشيريه يسأل رأيهم ويستشيرهم ، وقد كان هذا من الأسباب التى جعلت الغرب يتلقى من المسلمين درسا فى الشورى فلم يكن لهم فى الشورى دراية من قبل .

كتابة المعاهدة :

فاذا نجحت المفاوضة دونت نتائجها فى معاهدة ، ويكون التدوين واضحا غير محتمل لتفسيرات متعددة ، وقد اهتم المسلمون بكل ما يتصل بتدوين المعاهدات ، فذكروا أن من الضرورى استعمال الورق الفاخر المعروف بالورق البغدادى ، وأن يكون أبيض اللون ، كما اهتموا بالحديث عن نوع الحبر والأقلام التى تستعمل فى كتابة المعاهدات ، وامتد كلامهم للحديث عن نوع الخط ومقدار البعد بين السطور وشكل تدوين المعاهدة بوجه عام [١] .

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى حـ ٦ ص ١٩٠ — ١٩٦ .

توقيع المعاهدة :

وقد حدّد الفكر الإسلامى مَنْ له الحق فى توقيع المعاهدات ، وتحدث القلقشندى عن ذلك بوضوح فقال : والأصل فى المعاهدات أن تكون بين ملكين مسلم وكافر ، أو بين نائبيهما ، أو بين أحدهما ونائب الآخر ، على أن تكون النيابة موثّقة أى أن يكون للنائب الحق فى هذا التصرف ، ويتحتم توقيع الحاكم المسلم أو نائبه فى الأمور العامة التى تكون بين دولة ودولة ، ولكن اذا كان الأمر مرتبطا بشىء جزئى له صلة بالقُرَى والأطراف فقط فإن ولاة هذا الإقليم يجوز لهم التوقيع ، على ألا تُضيع هذه المعاهدة حقا من حقوق المسلمين (١) .

شروط المعاهدة :

وتكلم الفقهاء عن شروط المعاهدة التى يتقبلها الفكر الإسلامى ، فقالوا إنها لابد أن تكون فى صالح الإسلام والمسلمين ، كأن توقّعَ المعاهدة حقناً لدماء المسلمين ، أو ترغيبا فى دخول غير المسلمين دين الإسلام ، أو تحاشيا لأزمات اقتصادية أو اجتماعية لدى المسلمين .

ويشترط كذلك ألا يكون فى بنود المعاهدة ما يخالف الإسلام لقوله عليه السلام : المسلمون على شروطهم إلا شرطا أحلّ حراما أو حرّم حلالا . ومن الشروط المرفوضة أن يُتْرَك بأيدى أهل الحرب أسيرٌ مسلم أو مالُ مسلم ، أو أن يدفع المسلمون الجزية من غير حاجة ملحة لذلك (٢) .

ويضيف القلقشندى شروطا أخرى ينبغى أن يعمل ولىُّ الأمر المسلمُ على تحقيقها ، فمن ذلك أن يكون اوليه مواليا ولعدوه معاديا ، وأن يَشْتَرِط عليه أن يُفْرِج عمن فى حوزته ممن أحاطت به رقبة الأسر ،

---

(١) صبح الأعشى حـ ١٤ ص ٣ و ٧ .
(٢) صبح الأعشى حـ ١٤ ص ٧ — ٨ .

ومن ذلك أن يشترط أن يسلّم بعض الحصون والقلاع والسواحل مما وقع الاستيلاء عليه من المسلمين ، ثم عدم التعرض لتجار المسلمين بســوء ، وأنه اذا انقضى أمد الهدنة على أحد من الطائفتين وهو فى بلاد الآخرين أن يكون له الأمن حتى يلحق مأمنه [١] .

ومن الحالات الملحة أن عبد الملك بن مروان دفــع جزية لامبراطور بيزنطة أيام كانت البلاد تجتاحها الثورات فى مطلع عهده ، فلمـا تغلب عبد الملك على الثائرين عليه من شيعة وخوارج وعبد الله بن الزبير قطــع الجزية وحرر الاقتصاد كما حرر السياسة [٢] .

ويغلب أن تكون المعاهدة محددة المدة كمعاهدة الحديبية أو غــير محددة المدة كالمعاهدة التى وقعها الرسول فى مطلع عهده بالمدينة مع اليهود ومع العرب الذين كانوا لم يدخلوا الإسلام بعد ، وعندما تكون محــددة يمكن تجديدها اذا اقتضى الصالح العام ذلك .

نماذج من المعاهدات فى الإسلام

سجل التاريخ الإسلامى لنا مجموعة من المعاهدات التى كانت تابعة ، للفكر الإسلامى ، وفى مقدمتها معاهدتان أجراهما الرسول صلوات الله عليه ، وسنذكر فيما يلى بعض نماذج المعاهدات الإسلامية :

١ — معاهدة المدينة عقب الهجرة :

كان سكان المدينة بعد الهجرة ثلاث طوائف هم :

١ — المسلمون من المهاجرين والأنصار .

٢ — اليهود من بنى قينقاع وبنى النضير وبنى قريظة .

٣ — العرب الذين لم يكونوا قد دخلوا الاسلام بعد .

---

(١) صبح الاعشى حـ ١٤ ص ٩ — ١١ .

(٢) اقرأ المكتبة الاسلامية لكل الاعمار للمؤلف حـ ٣٧ .

وقد أراد الرسول أن يخلق جوا من التعاون والتسامح بين هـذه الطوائف وبخاصة مع اليهود الذين كانوا يمثلون عنصراً مهما فى المدينة • فتقرب لهم الرسول ووثق صلاته بهم ، وتحدث مع رؤسائهم ، وأثر عنه عطفه عليهم ••• وذلك هذا مهد لعقد معاهدة بين المسلمين وغير المسلمين لتصبح المدينة وحدة واحدة تدافع عن كيانها ، وتواجه أعداءها ، وتتعاون تعاونا كاملا فى داخلها ، وقد أورد ابن هشام نص هذه المعاهدة [1] ، قدم لها بقوله : وادع الرسول اليهود فى هذه المعاهدة ، وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم ، وخلاصة هذه المعاهدة هى :

١ ــ أن للجماعة شخصية دينية وسياسية ، ومن حق الجماعة أن تعاقب المفسد ، وأن تؤمن المطيع •

٢ ــ على سكان المدينة من مسلمين وغير مسلمين أن يتعاونوا ماديا وأدبيا وعسكريا ، وعليهم أن يردوا متساندين أى اعتـداء قد يوجه لمدينتهم •

٤ ــ الرسول هو الرئيس الأعلى لسكان المدينة ، وتعرض عليه القضايا الكبرى وصور الخلاف بين طائفة وأخرى ليفصل فيهـا •

وعلى الرغم من موقف المسلمين السمح فى هذه المعاهدة ، وعلى الرغم من حسن معاملة الرسول لليهود ، اتضح أن اليهود لم يكونوا مخلصين لهذه المعاهدة ، وأنهم قبلوها ريثما يدبرون أمرهم كما ظهر من انحراف تصرفاتهم بعدها •

---

(١) سيرة ابن هشام حـ ٢ ص ١٥٦ وما بعدها ، واقرأها كذلك فى الجزء الاول من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف ص ٢٧١ وما بعدها .

٢ — صلح الحديبية أو معاهدة الحديبية :

فى العام السادس للهجرة اتجه المسلمون نحو مكة يقصدون العمرة ، وليس لأحد أن يمنع أحداً من العمرة وزيارة الكعبة • وساق المسلمون الهَدْىَ دليلاً على أنهم معتمرون وليسوا محاربين ، ولبس المسلمون ملابس الإحرام دليلا على ذلك ، ولم يأخذوا من آلات الحرب إلا السيوف فى القُرُب لحراسة أنفسهم ، ودعا الرسول بعض العرب من غير المسلمين ليصحبوهم فى رحلة العمرة •

ولكن قريشا — على الرغم من ذلك — رأت أن اقتحام المسلمين لمكة ضربةٌ قاسية لهم ، وتأزمت الأمور ، وبدأت السفارة بين قريش والمسلمين كما وضحنا من قبل ، وَوَضَحَ للرسول أن أهمَّ نقطة تعنَى بهـا قريش هى عودة المسلمين هذا العام ، وأن تؤجَّل العمرةُ للعـام القادم ، فوافق الرسول على ذلك ، وتمَّ عقد معـاهدة تناولت كل العلاقات بين المسلمين وقريش ، وأهم شروط هذه المعاهدة كانت :

١ — ألا تتم عمرة هذا العام ، بل تؤجل للعام القادم ، وتخلى قريش مكة للمسلمين مدة ثلاثة أيام بلياليها فى العام القادم ، ويدخل المسلمون مكة بدون سلاح إلا السيوف فى القُرُب •

٢ — أن تكون هناك هُدْنة بين الطرفين مدتها عشر سنوات •

٣ — من أراد أن يدخل فى عهد المسلمين دخل فيه ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه •

٤ — يَرُدُّ المسلمون من يأتيهم من قريش مسلما بدون إذن وليه •

٥ — لا تَرُدُّ قريش من يعود لها من المسلمين [1] •

---

(١) اقرأ هذه المعاهدات والمناقشات حولها فى موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف حـ ١ ص ٤٩٦ وما بعدها .

٣ ــ العُهدة العمرية :

بعد أن انتصر المسلمون على الروم فى موقعة اجنادين ودمشق واليرموك انقسم جيش المسلمين قسمين اتجه قسم منه الى الشمال بقيادة أبى عبيدة بن الجراح ، فاستولى على حمص وحماة واللاذقية وحلب ••• واتجه القسم الآخر للجنوب بقيادة عمرو بن العاص فاستولى على عكا وحيفا ويافا ووصل الى بيت المقدس ، وقد دافع الروم عن بيت المقدس دفاعا عظيما ، ولكن جنود المسلمين صبروا ، ولعبت السياسة دورها ، فقد اتصل المسلمون بالمسيحيين فى بيت المقدس ، وكان المسيحيون يعانون المتاعب من حكم الروم ، كما كان المسلمون يعظمون بيت المقدس ولا يريدون مواصلة الضحايا من الجانبين ، وأحس « أرطبون » قائد الروم بهذه المناورات تدور حوله فهرب الى مصر ، وطلب المسيحيون ببيت المقدس الصلح على أن يحضر الخليفة بنفسه لتسلم المدينة ويتعهد لسكانها بالحرية الدينية وبرعاية مطالبهم الأخرى ، فكتب عمرو الى عُمَرَ بذلك فحضر عمر وكتب بنفسه « العهدة العمرية » وأهم نصوصها ما يلى :

ــ هذا ما أعطى عبدُ الله عمر أمير المؤمنين أهلَ إيلياء من الأمان ، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم ، سقيمها وبريئها ، وسائر ملتها ، أنه لا تُسْكَن كنائسهم ، ولا تُهْدَم ، ولا يُنتقَص منها ولا من خيرها ، ولا من صليبهم ، ولا من شىء من أموالهم ، ولا يُكْرَهون على دينهم ، ولا يضار أحدٌ منهم ، ولا يَسْكن بإيلياء معهم أحدٌ من اليهود [١] •

ــ على أهل إيلياء أن يُخرجوا منها الروم واللصوص ، ومن خرج منهم فانه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم •

---

(١) اقرا عن هذه المعاهدة فى كتاب الاسلام احد سلسلة مقارنة الاديان للمؤلف ص ١٧٧ ــ ١٧٨ •

— ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير الى الروم فله ذلك وهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغ مأمنه (١) .

وتعتبر « العهدة العمرية » معــاهدة من أهم المعاهدات فى التاريخ الإســلامى .

٤ — معاهدة الظاهر بيبرس مع ملكة بيروت الصليبية :

كان الظاهر بيبرس قد تمكن — كما سبق القول — من الاستيلاء على إمارة انطاكية أهم الإمارات الصليبية فى عهده ، وقد أحس أن سقوط هذه الإمارة استدعى تعاونا مع الصليبيين الذين كانوا لايزالون فى بلاد الشام ، لعل التعاون يحفظ عليهم وجودهم ، ومن أجل هذا اتجه الظاهر بيبرس الى التفريق بينهم فأجرى هذه المعاهدة مع ملكة بيروت .

ومن العجيب أن صاحبة بيروت هذه كانت تتلقب نفســها ملكة مع أن المملكة الوحيدة التى كانت للصليبيين بالشام هى مملكة بيت المقدس ، أما غيرها فكان يسمى إمارات ، وقد سقطت مملكة بيت المقدس فى أيدى المسلمين فى عهد صلاح الدين الأيوبى ، ولكن الفرنجة ظلوا — كما يقول الدكتور عمر كمال (٢) — يحتفظون بهذا اللقب ويتصارعون عليه باسم أية صلة كانت بين الإمارات المختلفة ومملكة بيت المقدس قبل سقوطها .

والملكة التى تمت المعاهدة معها هى ايزابيلا ابنة يوحنا الثانى ابلين ، وقد جاء فى هذه المعاهدة ما يلى :

استقرت الهدنة بين السلطان الملك الظاهر بيبرس وبين الملكة المصونة ايزابيلا ملكة بيروت وجميع جبالها وبلادها ، ومدة الهدنة عشر سنوات كاملة ...

---

(١) الطبرى حـ ٤ ص ١٥٩ — ١٦٠ .

(٢) الديبلوماسية الاســلامية والعــلاقات الســلمية مــع الصــليبيين ص ٢٥٤ .

وعلى الملكة ألا تمكّن أحدا من الفرنجة على اختلافهم من قصـد بلاد السلطان من جهة بيروت وبلادها ، وتدفع كل متطرق بسوء •

وبعد ، هذه دراسة عن العلاقات الدولية فى مجال السياسة ، تلك التى ابتكرها الإسلام وسار فى ضوئها المسلمون ، وننتقل بعـدها الى الحديث عن العلاقات الدولية فى مجال الاقتصاد •

العلاقات الدولية
فى مجال الاقتصاد

لم يقف الإسلام حائلا دون تعاون اقتصادى بين المسلمين وأتباع الديانات الأخرى ، وكل ما حرمه الإسلام فى مجال التجارة مع غير المسلمين أن هؤلاء التجار لا يجوز لهم أن يبيعوا للمسلمين السلع المحرمة عليهم كلحم الخنزير وكالخمر [١] .

وفى ظل ما أباحه الإسلام فى هذا المجال استمر جانب مهم من النشاط التجارى الذى كانت اليمن ومكة مركزاً له قبل الإسلام وشجع الرسول صلوات الله عليه ما استلزمه عهده من صور النشاط الاقتصادى مع غير المسلمين ، فقد أباح التعامل مع التجار من أهل الكتاب واقترض مرة من يهودى ، ومات عليه السلام ودرعه مرهونة عند يهودى فى طعام اشتراه لأهله .

عون إسلامى اقتصادى لقريش :

ومن العلاقات الاقتصادية الدولية التى قام بها الرسول فى المدينة ما روى أنه عليه السلام عرف أن قريشاً بمكة تعانى من ضائقة اقتصادية عقب صلح الحديبية ، فأرسل إلى أبى سفيان زعيم مكة خمسمائة دينار يسهم بها فى تخفيف هذه الضائقة .

وكان ثمامة بن أثال زعيم منطقة اليمامة الخصبة قد دخل الإسلام وجاء إلى مكة معتمراً ، وطاف بالبيت العتيق ، وأعرض عن الأصنام ، فأدركت قريش إسلامه وتهكمت به ، ورشقه المتسرعون بعبارات جارحة ، فأقسم ألا يبيع قومه لقريش ما كانوا قد تعودوا بيعه لهم من القمح ، وكان توقف بيع القمح لمكة معناه مجاعة قاسية ، فأرسل المكيون للرسول

---

(١) انظر كتاب الخراج لأبى يوسف ص ١٨٨ .

يطلبون منه أن يطلب من ثمامة أن يستأنف قومه بيع القمح لأهل مكة ، فاستجاب لهم الرسول ، ورغب إلى ثمامة أن يفعل ذلك ، ففعل .

وقد فعل الرسول ذلك مع أنه لم يكن قد نسى ما فعلته قريش معه ومع أهله وأتباعه حينما دفعتهم إلى الشعب ، ومنعت عنهم كل طعام ، وحرمت التعامل معهم ، ولكن الإسلام هو الإسلام والرحمة هى الرحمة .

مسلمون يعملون فى مزارع اليهود بالمدينة :

ومن التعامل الاقتصادى الذى كان نشطاً بين المسلمين وغير المسلمين أن عدداً من المسلمين عقب الهجرة عملوا فى مزارع اليهود ، كما أن المسلمين سمحوا لغير المسلمين أن يزرعوا أرض الخراج التى كانت مملوكة لشاهات فارس ، وسادة البلاد المفتوحة ، وصارت عقب الفتح ملكا للمسلمين .

العملات الأجنبية فى العالم الإسلامى :

وكان الدرهم الفارسى والدينار الرومى مستعملين فى العالم الإسلامى قبل الإسلام ، وعندما جاء الإسلام استمر ذلك ولم ير المسلمون بأساً من ذلك ، ثم ظهرت النقود الإسلامية على النمط البيزنطى ابتداء من عهد عمر بن الخطاب ، وكانت هذه النقود حتى عهد عبد الملك بن مروان تسير فى فلك النقود البيزنطية شكلا ووزناً ، ولم تكن هناك سوى اضافة إشارة إسلامية للدينار البيزنطى ، ثم جدت ظروف فى عهد عبد الملك بن مروان ألزمته بسك نقود إسلامية (١) .

تجارة خارجية :

إن التبادل التجارى بين المسلمين وغير المسلمين بدأ مبكراً ويحكى الإمام أبو يوسف قصة ذلك فيقول : إن أهل منبج وهم قوم من أهل الحرب وراء البحر كتبوا إلى عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقولون :

---

(١) انظر تفاصيل ذلك فى المكتبة الاسلامية لكل الاعمار ج ٣٧ .

دعنا ندخل أرضك تجاراً وتعشرنا ، فشاور عمر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك ، فأشاروا عليه به فكانوا أول من عشر من أهل الحرب [١] .

ويروى يحيى بن آدم أن أبا موسى الأشعرى كتب إلى عمر بن الخطاب يقول : إن تجار المسلمين إذا دخلوا دار الحرب أخذ منهم العشر . فكتب إليه عمر : خذ أنت من تجارهم كما يأخذون هم من تجار المسلمين [٢] .

وقد حدد الفكر الإسلامى السماح التى يدفع عنها العشر بأن تكون قيمتها تساوى مائتى درهم ، أو عشرين مثقالا على الأقل [٣] . أما إذا قلت عن ذلك فلا عشر فيها ، لأنها لا تحسب سلعاً تجارية بل هى للاستعمال الشخصى أقرب .

وفى مصر منذ عهد مبكر أعيد حفر خليج أمير المؤمنين الذى ربط النيل بالبحر الأحمر سنة ٢٣ هـ (٦٤٤ م) وسرعان ما أصبحت هذه القناة عاملا مهماً فى تنشيط التجارة بين القلزم (البحر الأحمر) والفسطاط على النيل ، فقد صار خليج أمير المؤمنين مسلكا للتجار ، فكانت السفن تسير فيه بين شواطىء مصر النيلية وبين الحجاز واليمن والهند وموانى البحر الأحمر ، وعن هذا الطريق توافرت بالسوق المصرية سلع الشرق الأقصى من الحرير والتوابل والفلفل والقرفة والزنجبيل وغيرها من سلع الهند وشرقى أفريقية [٤] .

وعندما ردم خليج أمير المؤمنين فى مطلع عهد العباسيين [٥] انتقل النشاط التجارى الإسلامى للبحر المتوسط ، فقد كان هناك تبادل تجارى

(١) الخراج لأبى يوسف ص ١٦١ — ١٦٢ .
(٢) الخراج ليحيى بن آدم ص ١٧٣ .
(٣) الخراج لأبى يوسف ص ١٥٩ .
(٤) المقريزى : الخطط جـ ٣ ص ٢٢٦ وما بعدها .
(٥) انظر عن ذلك الجزء الثالث من موسوعة التاريخ الاسلامى .

بين الاسكندرية والموانى المسيحية بأوربا ، فكانت الأخشاب تَرِدُ لمصر عن طريق البندقية ، وكانت بيزنطة تستورد ورق البردى من مصر ، وكانت الموانى الإسلامية فى سوريا ومصر والشمال الإفريقى على صلة بالموانى بجنوب إيطاليا وفرنسا ، وبخاصة جنوه والبندقية وبروفانس ، كما كانت هناك تجارة مع شمال أوربا وصلت إلى فنلندا والسويد والنرويج ، وقد عثر على نقود إسلامية يرجع تاريخها إلى العصر العباسى فى الدول المذكورة .

ومن الواضح أن تجارة المسلمين مع الدولة البيزنطية كانت أكثر نشاطاً من تجارة المسلمين مع غربى أوربا ، وقد استمر ذلك عدة قرون ، إذ كانت دول أوربا الغربية يغلب عليها الاقتصاد الزراعى ، ولكن بمرور الزمن لعبت جنوة وبروفانس دوراً كبيراً فى ربط العالم الإسلامى تجاريا بكل دول أوربا مما يوضحه ما أشرنا اليه آنفاً من العثور على نقود إسلامية فى دول شمالى أوربا الغربية كالسويد والنرويج ، وكان اهتمام الأوربيين شديداً بالتوابل الشرقية والبهار كالقرفة والقرنفل والزنجبيل ، وكذلك بالعطور والعقاقير والبخور أما العالم الإسلامى فقد كان يستورد الأخشاب والحديد والنحاس والرقيق الذى كان يجلبه التجار الأوربيون .

الإمارات الصليبية والتجارة :

وعندما أقام الصليبيون سلطانهم فى بعض نواحى الشام عقب نجاح الحملة الصليبية الأولى اتجه أمراؤهم لتكوين مراكز للثراء فى الشرق ، فتخلصوا من كثير من الجنود ، وغلب عليهم الحرص الاقتصادى ، ولكنهم أدركوا أنهم ليست لهم بحرية تحمى حدودهم الغربية المطلة على البحر المتوسط ، أو تربط بينهم وبين أوطانهم فى أوربا ، فعقدوا معاهدات مع المدن التجارية فى جنوب أوربا وبخاصة جنوة وبيزا والبندقية وبروفانس وتقضى هذه المعاهدات بأن يشترك للمدن التجارية أجزاء من المدن الساحلية بالشام يكون لها شبه استقلال سياسى واقتصادى وتجارى ، فأصبح لهذه الجاليات ما تحتاجه من كنائس

وأسواق ومخابز ومخازن .... بالاضافة إلى القضاء الخاص وعدم دفع مكوس وضرائب ، مما جعل الإمارات الصليبية لا سلطان لها على هذه التجمعات المرتبطة بالمدن التجارية .

وفى كثير من الأحوال عنيت هذه الجاليات بنشاطها الاقتصادى أكثر من عنايتها بالدفاع عن الإمارات الصليبية ، فكانت هذه الجاليات على صلة طيبة بالمسلمين ، وطالما عقدت مع المسلمين معاهدات تجارية ، ثم إن هذه الجاليات كثيرا ما تنافست بعضها مع بعض مما أثار حروبا بينها ، وكل هذا أضعف البنيان الصليبى ، وهيأ الانهيار للامارات الصليبية [1] .

على أن الدراسة السابقة توضح أن الجانب الاقتصادى غلب على الجانب الدينى عند المسيحيين الغربيين ، وكذلك عند الصليبيين إبان وجودهم فى الشام ، وزاد المسيحيون اهتماماً بالتجارة مع المسلمين عندما رأوا أن العائد المالى لهذه التجارة وفير ، ويذكر الدكتور عمر كمال أن المؤرخ الصليبى وليام الصورى الذى كان من كبار رجال الكنيسة سجل فى تاريخه أن من تهوّر « المكابرين » من الصليبيين اندفاعهم أن يقوموا بعدوان على مصر ، فإنهم بذلك يجهلون مصلحة الفرنجة التى كانت مرتبطة إلى حد كبير بالسلام والتجارة مع المسلمين [2] .

وهذا الاتجاه يقرره ابن جبير كذلك ، فيتحدث عن التجارة الدائمة بين دمشق وعكا مع أن الحرب مستمرة كذلك بين المنطقتين ، ويختم ابن جبير كلامه متعجباً من ازدواجية العلاقات بين السلم والحرب ، وبين المسلمين والصليبيين ، فيقول ابن جبير فى ختام كلامه عن هذا التبادل التجارى : وشأن هذه البلاد أعجب من أن يستوفى الحديث عنه [3] .

---

(١) دكتور عمر كمال : الدبلوماسية الاسلامية ص ٨٥ — ٨٦ بتصرف .

(٢) المرجع السابق ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٣) رحلة ابن جبير ص ٢٦١ .

تجارة مع الشرق الأقصى :

كان هناك أيضا نشاط تجارى بين العالم الإسلامى ودول الشرق الأقصى وكان هذا النشاط يتخذ طريق البر في شمالى سوريا والعراق وإيران إلى الهند والصين أو يتخذ طريق البحر بواسطة البحر الأحمر والخليج العربى إلى الهند والصين أيضا ، وكانت الأخشاب والفيلة والتوابل أهم ما يستورد ، كما كان النسيج والحبوب أهم ما يصدر لهذه البلاد .

وكانت هناك تجارة واسعة بين العالم الإسلامى وبين قلب افريقية ، وكان الذهب والأبنوس والعاج تستورد من هذه المناطق عن طريق زيلع وعدن فى مقابل النسيج والملابس ، وبعض الصناعات الدقيقة التى كانت تصدر لهذه المناطق ، وكان الأسطول الإسلامى هو الذى يقوم بحمل الصادرات ويعود حاملا المستوردات .

صادرات إسلامية أخرى للعالم :

وصلت بعض الصناعات فى العالم الإسلامى إلى درجة عظيمة من الرقى ، وكانت هذه تصدر لأوربا ، ومن شدة إعجاب الأوربيين بها أخذوا يقلدونها ، وبخاصة فيما يتعلق بالملابس والجلود وقد حفظت لنا اللغات هذا التصرف ، فإن الأوربيين عندما اقتبسوا هذه الصناعات اقتبسوا اسمها أيضا ، وفيما يلى نموذج من هذه الصناعات كما حفظتها اللغات الأوربية :

Cordovan : جلد ، وقد جاء فى Oxford Dictionary فى تفسير هذه الكلمة ما يلى : جلد منسوب إلى Cordova (قرطبة) لشهرتها فى صناعة الجلود فى العصور الوسطى .

Morocco : جلد لين سمى كذلك لصلة صناعته الأصلية بمراكش .

Damask : قماش مشجر اقتبست صناعته من دمشق .

---

(١) الفكر الاسلامى : منابعه وآثاره للمؤلف ص ١٦٨ .

Fustat : قماش ناعم اقتبست صناعته من الفسطاط [1] .

وكانت دمياط والاسكندرية والفيوم والبهنسة مشهورة بصناعة أرقى أنواع النسيج الذى يصدر للخارج ، وفى متحف برلين قطعة من النسيج المصرى باسم الخليفة المعتمد على الله مؤرخة ٢٧٨ هـ وقطعة أخرى باسم الخليفة المكتفى والأمير هارون بن خمارويه مؤرخة سنة ٢٩١ هـ [2] .

صناعة الورق وتصديره :

ومن أهم الصناعات التى أجادها العرب فى وقت مبكر صناعة الورق ، وقد أخذ العرب هذه الصناعة عن الصينيين وسرعان ما انتشرت مصانع الورق فى العالم الإسلامى ، فأنشىء مصنع للورق فى بغداد سنة ٧٩٤ م ثم فى مصر سنة ٨٠٠ م وانتقلت هذه الصناعة مع المسلمين إلى اسبانيا ، وصدر العالم الإسلامى الورق الى أوربا حتى انتشرت مصانعه بأوربا بعد ذلك [3] .

مصر والتجارة الخارجية :

استقلت مصر استقلالا تاما عن الخلافة العباسية ابتداء من عهد الفاطميين ، وبدأت صلات وثيقة بين مصر وأوربا ، وبخاصة أن مصر فى العهد الفاطمى امتد سلطانها فشمل الشمال الافريقى أى كانت لمصر كل شواطىء البحر المتوسط الجنوبية تقريبا ، وامتد سلطان الفاطميين الى الشام مما جعل أكثر شواطىء البحر المتوسط الشرقية تابعة لمصر أيضا ، ومن هنا فقد قامت حركات تجارية واسعة بين موانى مصر الفاطمية (دمياط ورشيد والاسكندرية) وبين الشواطىء الشمالية للبحر المتوسط ، فظهر نشاط واسع بين الموانى المصرية وبين جنوة والبندقية وبيزا وبروفانس ،

---

(١) امثلة كثيرة اوردها Prof. Sharif فى كتابه Muslim Thaught

(٢) دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الاسلامية ص ١٧٤ .

(٣) قصة الحضارة المجلد الرابع .

كما كانت مصر معبراً لأوربا لتصل بتجارتها الى آسيا ، وقد ظل ذلك حتى اكتشف طريق رأس الرجاء الصالح فى عهد المماليك .

ومما يذكر أن مصر والشام حلتا محل المراكز الصليبية التى كانت موجودة قبل سقوط الصليبيين ، ومما زاد من أهمية ذلك أن الطرق البرية بين أوربا وآسيا عبر الأناضول كانت قد دمرتها تحركات المغول ، مما استلزم أن تصبح التجارة بحرية بين أوربا وآسيا عبر مصر والشام ، وهكذا كانت سواحل مصر الشمالية أسواقا يَرِدُ لها الأوربيون من حين الى آخر ليبيعوا من حاصلاتهم وليبتاعوا من حاصلات مصر ، ومن حاصلات الهند والصين والهند الصينية واندونيسيا التى كانت ترد الى الموانى المصرية ، وقد ظل ذلك حتى اكتشف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح فى أواخر القرن الخامس عشر .

الأسواق :

كان للعرب قبل الإسلام معرفة بالأسواق ، فقد كان عندهم سوق مجنة وذى المجاز وغيرهما ، وعندما جاء الإسلام اتسعت الأسواق وزادت نظاما ودقة واتسعت للمسلمين وغيرهم ، وأصبحت مراكز مهمة من مراكز التبادل الاقتصادى ، ومما زاد فى أهميتها وجود بعض الخبراء الموظفين فيها لضبط التعامل بها ، فقد كان فيها موظف اسمه « الناقد » وكان عمله تمييز الدراهم والدنانير والتأكد من سلامتها ، كما كان هناك « المحتسب » وهو موظف شديد الخطورة وهو مسئول عن نظام الأسواق وترتيب طرقها ، ومسئول عن محاربة الغش فيما يعرض بالسوق من سلع ، ومسئول عن المكاييل والموازين ودقتها ، ومسئول عن سلامة الحيوانات التى تعرض بها للذبح [1] .

---

(١) ابن تيمية : الحسبة فى الاسلام ص ١٠٢ و ١٠٣ .

وظائف لغير المسلمين فى أرض الإسلام :

كان الرسول صلى الله عليه واضع هذا الدستور حينما جعل فدية بعض أسرى بدر أن يعلموا أطفال المسلمين القراءة والكتابة ، ويعتبر هذا التصرف قريبا من الوظيفة أو هو وظيفة ، فالفدية تكون مالا ، والتعليم مقابل للفدية فكأنه مال دفع للمسلمين ، أو كأن المسلمين دفعوا بعض المال لهؤلاء نظير تعليم أطفال المسلمين ، المهم أنه كان نوعا من التعامل والتبادل .

وقد امتد هذا فى عهد عمر بن الخطاب ، فيروى أنه استعمل أسارى قيسارية كتبة له ووظفهم فى الدولة .

واتخذ أبو موسى الأشعرى كاتبا نصرانيا ، وفى عهد الدولة الأموية توسع الخلفاء الأمويون فى هذا النطاق ، فاتخذ معاوية طبيبا نصرانيا ، وأصبح يوحنا الدمشقى مستشاراً لعبد الملك بن مروان .

ويقرر التاريخ أن المسلمين فتحوا باب الخدمة فى الدولة لكل السكان على اختلاف أديانهم ونحلهم ، فلما عربت الدواوين كان لزاما على هؤلاء أن يعرفوا اللغة العربية ، ليحتفظوا بوظائفهم [1] .

وهكذا كانت هناك مجالات كثيرة لنشاط اقتصادى عظيم بين المسلمين وغير المسلمين ، مما عاد بالرفاهية على الجميع فى ظل القيم الإسلامية .

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف جـ ٥ ص ٥٤ .

العلاقات الدولية

فى المجال الاجتماعى

عندما نتحدث عن العلاقات الدولية التى ابتكرها الاسلام فى المجال الاجتماعى يجب أن نبدأ بعرض الآيات القرآنية التى تتحدث عن العلاقات الاجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين ، وأول آية نوردها هى قوله تعالى « وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم » [1] وواضح أن هذه الآية تتحدث عن نقطتين ترتبطان بالعلاقات الاجتماعية بين المسلمين وأهل الكتاب ، وهاتان النقطتان هما :

١ — للمسلم أن يأكل من طعام الكتابى ، وللكتابى أن يأكل من طعام المسلم ، وتبادل الطعام والضيافة يؤكد البر وحسن المعاملة .

٢ — للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، والإسلام بذلك يقرر مبدأ لم يسبق اليه وهو أن الإيمان بالله يمكن أن يصبح دعامة تقام الأسرة عليها ، وهدف الاسلام من ذلك خلق لون من الترابط بين الذميين والمسلمين ، والعمل على أن تنتشر المحبة والألفة بين هؤلاء وأولئك ، وواضح أن الذمية فى ظل الاسلام ستباشر تعاليم دينها دون اعتراض من الزوج ، وستجد أن الزوج يحترم نبيها ويحترم الكتاب الصحيح المنزل عليه لأن الاسلام يحتم ذلك عليه [2] .

وقد يقال : لماذا لا يجوز للذمى أن يتزوج مسلمة ؟

والجواب أن غير المسلمين لا يعترفون بمحمد نبيا ، ولا يجلون القرآن الكريم ، ولا تشريعات الإسلام ، ولا شك أن زواجا كذلك لو تم لأحدث ضررا كبيرا للزوجة ، وسيجعلها تعانى من معاشرة زوج لا يحترم

---

(١) المائدة : الآية الخامسة .

(٢) انظر الحياة الاجتماعية فى الفكر الاسلامى للمؤلف ، الطبعة الخامسة ص ٤٤ لدراسة بعض التفاصيل المهمة .

عقيدتهـا ولا كتابها المقدس ، ولا التزاماتهـا الشرعية ، ممـا يجعل الحياة الزوجية مستحيلة الاستمرار • ومن أجل هـذا منعها الإسلام •

كَوْنٌ واحد ، له مدبِّرٌ واحد :

وبعد الحديث عن الآية القرآنية التى أباحت تبادل الطعام وأباحت أن يتزوج المسلم من أهـل الكتاب ، بعد هـذا نتجه الى نقطة أخرى تعتبر قمة النظم الاجتماعية ، تلك النقطة هى أن هـذا الكون لـه مَلِكٌ واحد ، هو خالقه ومدبِّره ، والأثر الذى يترتب على هـذه العقيدة هو أن العالَم كله تابعٌ لمركز واحد ، وبالتالى فإن بين أجزائه الكثيرة ترابطا قوياً يجذبه لهـذا المركز الواحـد ، وأية محاولة لخلق هُوّة اجتماعية بين سكان هـذا الكون ليست إلا تمردا على حقيقة واضحة •

الوحدة الإنسانية :

والعالَم فى واقعه مقسَّم الى شعوب وقبائل ، وكان الوضع قبل الإسلام يتَّجه الى اعتبار هـذا التقسيم دليل فرقة ، وبالتالى سبب صراع وتنافر ، فلما جاء الإسلام أعلن القرآن الكريم أن هـذا التقسيم يجب أن يَدْفع الناس للتعارف والود ، وليس للخلاف والقطيعة ، قال تعالى « يا أيهـا الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا » (١) •

وأيَّد الرسول صلوات الله عليه هذا الاتجاه فقالَ فى حجة الوداع : أيهـا الناس إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم وآدم من تراب ، لا فضـل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى • فالرسول فى هـذا الحديث يؤكد الوحدة الإنسانية أولا ثم — ثانيا — يدعو الناس للتواضع عندما يذكِّرهم بأن أباهم من تراب ، وثالثـا يسوِّى بينهم ويوضِّح أن السبيل للتفوّق هو العمل الصالح ، وهذا الاتجاه من أهم الأسس لتوثيق العلاقات الاجتماعية وربط النـاس بعضهم ببعض •

---

(١) الحجرات : ١٣ .

والإسلام بهــذا الاتجاه يضع حداً للنظم الطبقية التى كانت شائعة فى المجتمعات ، والتى كانت تقطع الصلات الاجتماعية بين البشر ، سواء كانوا فى دولــة واحدة كالهنــد التى كانت مركزاً لتفاوت طبقى خطير ، أو كانت فى دول متعددة كالقوى الكبرى التى كانت تسيطر على القــوى الصغرى وتعتبرها من الأتباع الذين تنحدر درجتهم عن درجات الغزاة .

الحرية أسـمى المنح الاجتماعية :

وكانت العبودية شائعــة فى كثير من الجماعات البشرية ، والطبقات فى الهندوسية مثلا نصّت على أن « الملك إله فى صورة إنســان فوق الأرض وإن كان طفلا رضيعا » وألزَمت طبقات الشعب أن تقدّم لــه أعمق الإجلال ، ولم تسمح بنقده أو التعليق على تصرفاته ، وقد جاء فى شرائع « منو » مــا يلى : ويأمر الملك بصبٍّ زيت حار فى فم الشودرا (أدنى طبقــات المجتمع الهنــدى) ، وفى أذنيــه إذا مــا بلغ مـن الوقاحة ما يُبْدِى به رأيا للبراهمة فى أمور وظائفهم [1] .

وأعلنت اليهودية أن اليهود شعب مختار ، وأنهم طبقة خاصــة بين شعوب الأرض ، وأعطتهم الحرية دون سواهم .

واستغلّت الكنيسةُ المسيحية الشعب المسيحى أســوأ استغلال وحرّمت عليه قراءة آلاف الكتب . . .

وجاء الإسلام فمنح البشرية حريةَ الفكر والبحث وحريةَ التدين ، والحرية السياسية ، وصرخ عمر بن الخطاب صرخته الشهيرة مستنكرا أية محاولة للضغط والقهر قــال : كيف استبعدتم النــاس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا .

وفى ظل الحرية تعامل المسلمون مع غير المسلمين فى هدى النــور الذى قدّمه الإسلام للمجتمع البشرى .

---

(١) انظر اديان الهند الكبرى للمؤلف ص ٥٩ .

حقوق المرأة :

كانت المرأة فى العالم كله مهضومة الحقوق ، والمرأة نصف المجتمع تقريبا ، فقدم الإسلام لها حقوقها كاملة ، ولعبت المرأة دورا كبيرا فى تنظيم العلاقات بين المسلمين وغير المسلمين ، فالمرأة المسلمة بعد أن انطلقت من عقالها أصبح لها رأى فى تصريف الأمور ، والمرأة بطبيعتها فيها صفاء وسماحة فأضفت طبيعتها على العلاقات يُسْرا وخيرا ، ومثل ذلك ما فعلته المرأة فى كثير من الأحوال فى المجتمعات غير الإسلامية عندما تسربت أفكار الإسلام لغير المسلمين .

ثم إن حقوق المرأة وحريتها انعكست على أولادها وعن طريق الأولاد عندما صار الزمام فى أيديهم اتسع نطاق العلاقات الدولية ، وحل الوئام محل الخصام ، ولا شك أن الهوان والذلة والاهمال وغيرها من الصفات التى كانت نصيب المرأة قبل الإسلام قد انعكست على هذه المجتمعات نارا ولهيبا ، لأن حنان المرأة كان قد غاب وأفل عن المجتمعات ، وانطلقت القسوة والشراهة والدم بدل هذا الحنان الذى يتفجر من ينابيع الجنس اللطيف .

والمرأة عندما تكون لها حريتها وحقوقها يكون لها صوت فى مجتمع الأسرة وفى العلاقات الأسرية والدولية ، وهو صوت أَمْيَلُ للبر ، ولكن عندما كان هذا الصوت معدوماً فَقَدَت العلاقات وسيلةً مهمة من وسائل الارتباط والتعاون .

أما مدى التعاسة التى كانت تعيشها المرأة قبل الإسلام ، ومدى ما قدمه الإسلام لها فقد دوناه فى مكان آخر من بحوثنا وكتبنا [1] .

---

(١) انظر كتاب الاسلام وكتاب الحياة الاجتماعية فى الفكر الاسلامى والمكتبة الاسلامية لكل الاعمار — للمؤلف .

الحسبة على الأخلاق والاتجاهات :

وهناك نقطة مهمة يثيرها الأستاذ أبو الحسن الندوى [١] فيذكر أن القرآن الكريم ألزم المسلمين برعاية سلوك الأفراد والأمم ، وقرر أن المسلمين يحاسبون إذا قصروا فى هذا الواجب الذى أعلنته الآية الكريمة « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى » [٢] .

وبناء على هذا التوجيه تلتزم الأمة الإسلامية بواجب اجتماعى خطير هو رعاية الالتزام بالسلوك الحميد للفرد والجماعة ، ونصر المظلوم ومنع الظالم من الظلم ، وذلك قمة العلاقات الدولية السليمة .

الأخلاق الإسلامية تتبع مع الجميع :

وننتقل الى آيات الأخلاق وهى كثيرة جدا فى القرآن الكريم ، والمسلم ملتزم باتباعها مع المسلم ومع غير المسلم ، فالصدق والوفاء بالوعد ، والصبر والحلم ، والعدل ، والدعوة الى الخير ، وحق الجار ، ثم محاربة الرشوة ، والكبر ، والغرور ، والحسد ، كلها وغيرها صفات ألزم الإسلام كل مسلم أن يتمسك بها فى جميع تعامله مع المسلم ومع غير المسلم [٣] وقد أشرنا لذلك من قبل .

الزكاة لكل الفقراء مسلمين وغير مسلمين :

ولننتقل الى الآية الكريمة التى تحدد مستحقى الصدقات ، وهى قوله تعالى « إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل [٤] وعندما

(١) الاسلام : اثره على الحضارة وفضله على الانسانية ص ١٠٣ .
(٢) المائدة : ٨ .
(٣) اقرأ الآيات الكريمة عن هذه الموضوعات وشرحها فى المكتبة الاسلامية للمؤلف حـ ٣٤ و ٣٥ .
(٤) التوبة : ٦٠ .

رأى عمر بن الخطاب شيخا يهوديا يسأل الناس ، سأله عمر : ما الذى حملك على السؤال ؟ فأجاب : الحاجة والسن . فأخذ عمر بيده وذهب به الى منزله حيث أعطاه عطاء سخيا ، ثم أرسله الى خازن بيت المـال مع رسالة قال فيهـا : انظر هذا وضرباءه ، فوالله مـا أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم خذلناه عند الهرم . إنمـا الصدقات للفقراء والمساكين وهذا من مساكين أهل الكتاب .

التخمة والجوع بين الغرب والشرق :

ونتوقف قليلا لنعلق على هـذا الموقف الرائع فإن الإسلام لا يقبل ان يبيت إنسان شبعان وجاره جائع وهو يعلم ، فما بالك أن توجد تخمة وترف فى جانب ، وجوع وفاقة فى جانب آخر ، وقد شاهد جيلنا مجاعات قاتلة انتشرت بإفريقية نتيجة الاستعمار والجفـاف ، ولكن الغرب الذى أعمـاه الغنى أعرض عن هؤلاء المساكين وتركهم يبحثون عن الفتـات فى القمامة ، أو تركهم يموتون جوعا .

كم اخذ الغرب من المواد الخام التى تزخر بهـا ارض افريقية ؟ ولكن الغرب لم يهيىء لإفريقية وسائل للحيـاة الكريمة قبل أن يتركهـا ، فلمـا أرغم الغرب على ترك افريقية تركهـا للمجاعات والحرمان ، وقنع بان ينشر على العالم صور الجياع والمحرومين كأنهـا صور يتلهى بهـا السادة فى الغرب ، أرض الترف والرخاء .

ولم يكتف الغرب بهـذا بل راح يطالب دول إفريقية بتسديد الديون وفوائدها ، ويهدد بأن أى تقصـير فى ذلك سيستلزم مزيداً من التضييق والتعذيب ، ونؤكد أنه لو انتشر الفكر الإسلامى بين جماعات المثقفين لمـا وجدنا هـذا المظهر على الكرة الأرضية ، فلم تعد الكرة الأرضية مترامية الأطراف كما كان يُعْتَقَد من قبل ، بل تضـاءلت هذه الدنيا أمـام المخترعات الحـديثة التى قربت بين المسـافات ، وينبغى أن تقرب بين الأفكار .

لقد قدم عمر بن الخطاب منـذ أربعة عشر قرنا الى هـذا الشيخ ما يكفيه من زكاة مال المسلمين ، وقرر عمـر أن هـذا الشيخ وأمثاله

يستحقون نصيبا من هذه الزكاة ، وفسّر عمر كلمتى « الفقراء والمساكين » الواردتين فى الآية التى تذكر مستحقى الزكاة بالشمول الذى يضم فقراء المسلمين وفقراء أهل الكتاب على السواء .

ما رأى المفكرين فى هذا الموقف ؟

وماذا يقول تقدمهم العلمى بعد أربعة عشر قرنا ؟

وماذا نرى لو وضعنا عمر فى كفة ووضعنا زعامات اليوم فى كفة أخرى ؟

أغلب الظن أن من يقرأ هذا الكلام من الغربيين سيحس بخجل ، وسيدرك أن التقدم العلمى الهائل الذى يشهده جيلنا لم يصاحبه تقدم روحى ، بل خلق جوا أقرب للبلادة والجمود .

حرمة الربا مع كل الناس :

وإذا جئنا الى آيات الربا وجدنا الإسلام يحرم الربا على كل الناس مهما اختلفت ديارهم وأديانهم ، وليس الإسلام كاليهودية التى تحرم الربا بين اليهودى واليهودى ولا تحرمه بين اليهودى وغير اليهودى وقد جاء فى التلمود : غير مصرح لليهودى أن يقرض الأجنبى إلا بالربا ولأخيك اليهودى لا تقرض بربا [١] .

المساواة بين البشر جميعا :

ذكرنا آنفا أن الإسلام يقرر المساواة بين البشر ، وأن التفاضل بينهم يكون بالعمل الصالح وفى ذلك يقول تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » [٢] .

وهذا الاتجاه فى الإسلام يخالف اتجاه اليهود الذين يرون أنهم الشعب المختار وأنهم أفضل البشر معتمدين على بعض الخرافات أو الفهم المنحرف لبعض النصوص ، ومن النصوص التى انحرفوا فى

---

(١) الكنز المرصود ص ٥٦ و ٦٥ والتلمود شريعة اسرائيل ص ٢٢ .
(٢) الحجرات : ١٣ .

فهمها قوله تعالى « وفضلناهم على العالمين » فقد التقطوا هـذه الجملة دون أن يربطوها بمـا قبلها ومـا بعدها من كلمات الله ، ولو وضعنا أمامنا الآيات كاملة لا تضح تحريفهم لمـا أراده الله سبحانه وتعالى ، يقول تعالى « ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ، وزرقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين ، وآتيناهم بينات من الأمر ، فمـا اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم [١] » والمعنى أن الله منحهم مـا لم يمنحه غيرهم من مجموع التوراة والحكم (السـلطة) والنبوات الكثيرة ، وهو بذلك أعطاهم مـا لم يعط سواهم ، ومع هـذا ضلوا ، وتقرر الآيات شيئا عجيبا هو أن ضلالهم ظهر بعد أن جاءهم العلم والنور ، فبدل أن ينتفعوا بالعلم ضلوا بـه ، فكان ذلك بغيـا وطغيـانا [٢] .

وحتى المسيحيين أنكروا ادعاء اليهود ففى أهرام الجمعة ١٣ فبراير ١٩٨٧ يقول البابا شنودة : أنه لا يمكن أن يخص الله سبحانه وتعـالى بضعة ملايين من خلقه بمكانة خاصة دون سائر البشر ، فالخلق عند الخالق سواء يتفاضلون بالعمل الصالح .

تلك هى بعض توجيهات القرآن فى المجال الاجتماعى ، فلنتجـه للرسول صلوات الله عليـه لنرى تصرفاته الواقعية فى هذا المجال :

الهدايا بين المسلمين وغير المسلمين :

لعل من أبرز الهدايا التى جاءت للرسول من دولة أجنبية تلك الهدية التى أرسلها إليه المقوقس حاكم مصر ، وكانت تشـمل مارية المصرية واختها سيرين وأشياء أخرى ، وقد قبل الرسول هـذه الهدية وأعتق مارية وتزوجها ، كمـا قدم سيرين هدية منه لحسان بن ثابت .

وممـا يرتبط بالهدايا أيضا قوله تعالى « لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا اليهم أن الله يحب المقسطين » ويقول المفسرون إن هذه الآية نزلت فى أسماء بنت

---

(١) سورة الجاثية : ١٥ — ١٦ .

(٢) انظر كتاب الاسلام للمؤلف ص ٣٩ .

أبى بكر الصديق من زوجته التى طلقها قبل الإسلام واسمها « قتيلة » فقد جاءت هذه الأم لزيارة ابنتها أسماء ومعها بعض الهدايا التى تشمل قرطا ذهبيا وأشياء أخرى ، وكانت قتيلة لم تدخل الإسلام ، فترددت أسماء فى قبول هدية أمها وذهبت للرسول تستشيره فنزلت هذه الآية ، وبها قبلت أسماء هدية أمها التى جاءت من أرض الكفار .

وواضح فى الآية أيضا أنها توصى المسلمين بأن يكونوا بررة وعدولا مع غير المسلمين ما دام هؤلاء لم يعتدوا على المسلمين .

تكريم جنازة يهودى :

ويروى أن الرسول رأى جنازة فوقف إجلالا للموت وهيبة له ، فقيل له : إنها جنازة يهودى . فقال : أليست نفسا ؟

تسامح الرسول مع من اعتدوا عليه :

وتعرض الرسول لألوان من العدوان من قريش ومن غيرهم من سكان الجزيرة العربية والروم والفرس ، ولكن لم يعرف عنه قط ميل للانتقام ، بل كان تسامحه واسعا ، ويقول عنه واشنجتون ارفنج : إن من أبرز صفات محمد التى حققت فوز الإسلام تسامحه مع خصومه ، ولسنا نعرف فى التاريخ رجلا كمحمد فى هذا المضمار ، لقد تسامح فى أوقات كان الزعماء فى أمثالها ينكلون بمن كانوا معارضين لهم تنكيلا بشعا ، ولكن تسامح محمد مع خصومه ومع معارضيه حقق له سيادة وتفوقا على كل الزعماء والقادة عبر القرون .

الاستدانة منهم وحسن معاملتهم :

من الواضح أن اليهود فى الجزيرة العربية كانوا يكونون تجمعات أخرى غير تجمعات المسلمين ، سواء كانوا فى المدينة المنورة أو خارجها ، ومع هذا فقد كان الرسول يحسن معاملتهم ، ويتودد اليهم ، ومما يروى أنه كان يحضر ولائمهم ويعود مرضاهم ويشيع جنازاتهم ، وكان يقترض منهم حتى انه توفى ودرعه مرهونة عند يهودى نظير طعام أخذه منه .

وعندما حضر له نصارى نجران أحسن استقبالهم وفرش لهم

عباءته ، وعندما زاره عدى بن حاتم الطائى وكان الرسول يجلس آنذاك بالمسجد أحسن الرسول استقباله ، ودعاه الى منزله ، وأعطاه الحشية الوحيدة الموجودة عنده ليجلس عليها •

قبول طعام زينب بنت الحارث اليهودية :

وفى غزوة خيبر سنة ٧هـ حدث حادث خطير ، فبعد الانتهاء من الاتفاق مع يهود خيبر الذين كانوا فى الشمال من الجزيرة العربية ، دعت امرأة يهودية اسمها زينب بنت الحارث الرسول الى طعام عندها ، واستجاب الرسول ، ولكن المرأة كانت خائنة فدست السم فى لحم الشاة التى أعدتها للطعام ، ووضعت الشاة أمام الرسول ، وأخذ قطعة من لحمها وسرعان ما لفظها وقال : ان هذا اللحم ينبئنى أن الشاة مسمومة • وكان يأكل معه بشر بن البراء ، ولكنه تعجل وابتلع قطعة من اللحم فمات مسموما واعترفت المرأة بهذا الاثم الكبير •

وهكذا نرى الرسول منفذا لتوجيهات الإسلام بل مضيفاً إليها من سماحته وبره ، لخلق روابط اجتماعية بين المسلمين وغير المسلمين •

عمر يحذو حذو الرسول :

واتسع العالم الإسلامى ابتداء من عهد عمر اتساعا كبيرا وشمل أجزاء من الأرض غير الاسلامية ، وبالتالى اتسع نطاق التعاون فى مجال العلاقات الدولية الاجتماعية •

وأول ما نذكره ما يرويه مجاهد ، قال : كنت عند عبد الله بن عمر وغلام له يسلخ شاة ، فقال له عبد الله : يا غلام ، إذا ذهبت توزع بعض لحوم الشاة فابدأ بجارنا اليهودى •

وكان تصرف عبد الله امتدادا لتصرفات أبيه وتصرفات الرسول الكريم •

وعلى هذا النطاق استمر التعاون فى المجالات الاجتماعية بين المسلمين وبين الدول غير الإسلامية والأفراد غير المسلمين ، وكان ذلك من هبات الإسلام للبشرية •

العلاقات الدولية
فى المجـــال الثقـــافى

وضـــع القرآن الكريم وأحاديث الرسول أساســا قوياً للعلاقات الدولية فى مجال الثقافة ، وهذا المعنى هو ما قرره Deutsch فى قوله : بدافع القرآن رفع المسلمون لواء الحكمة ، وخدموا العلم والمعرفة ، وأحيوا علوم السابقين ، وعلموا الفلسفة والطب والفلك ، وفن البناء فى أسمى صورة بالغرب والشرق على السواء ، مما أتاح لنـــا أن نصل الى النهضة العلمية الحديثة ، ولهذا يجدر بنـــا ألا نكف عن البكاء كلما تذكرنا اليوم الذى سقطت فيه غرناطة » [1] .

أمـــا الآيات القرآنيـــة التى كانت الدافع لهـــذا النشـــاط فنثبت منها ما يلى :

— وقل رب زدنى علما [2] .

— هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون [3] .

— ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس ، لهم قلوب لا يفقهون بهـــا ، ولهم أعين لا يبصرون بهـــا ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون [4] .

— يؤتى الحكمة من يشـــاء ومن يؤت الحكمـــة فقد أوتى خيرا كثيرا ، وما يذكر إلا أولو الألباب [5] .

والآيتان الأوليان تحدثتـــا باطلاق عن العلم ، ولم تخصصا العـــلوم

---

(١) نقلا عن الفكر الاسلامى : متابعة وآثاره الذى ترجمه المؤلف عن الانجليزية ص ٣٢ .

(٢) طه : ١١٤ .

(٣) الزمر : ٩ .

(٤) الأعراف ١٧٩ .

(٥) البقرة : ٢٦٩ .

الدينية ، وفهم من ذلك تفضيل العلم النافع للبشرية أيا كان اتجاهه ، ويؤيده هذا ما ورد فى الآيتين الأخيرتين اللتين مدحتا العقل السليم وهاجمت العقول التى لا تفقه ولا تعى .

ومشت أحاديث الرسول فى هذا النطاق ، ولعل أول ما نذكره هنا أن الرسول — كما ذكرنا آنفا — طلب من عارفى القراءة والكتابة من أسرى بدر أن يعلم كل منهم عشرة صبيان من صبيان المسلمين القراءة والكتابة ، فذلك يعادل الفدية التى كان عليهم أن يدفعوها حتى يطلق المسلمون سراحهم .

والرسول صلوات الله عليه هو القائل : الحكمة ضالة المؤمن حيث وجدها ، فهو أحق بها ، وهو القائل : من غادر أهله فى طلب العلم فهو سائر فى سبيل الله . وينسب له أيضا قوله اطلبوا العلم ولو فى الصين ، ولم يكن فى الصين علوم اسلامية مما يدل على أن العلوم التى دعا لها الإسلام أوسع نطاقا من العلوم الإسلامية ، وفى ذلك يقول Prof. Sharif [1] إن الآيات والأحاديث خلقت أول ينبوع من ينابيع الفكر الإسلامى وقد سار هذا الينبوع قويا متدفقا ، فتحدث المسلمون وهم يعرضون الآيات والأحاديث عن رأى الاسلام فى السياسة ، ورأى الإسلام فى الاقتصاد وفى التربية وغير ذلك مما يسمى الحضارة الاسلامية الأصيلة ، وسارت بجانب ذلك ثقافات الأمم السابقة التى حث الاسلام على رعايتها ، والتى وضعت جذور ما أسميناه الحضارة الإسلامية التجريبية .

وفى ضوء ذلك حصل تبادل ثقافى هائل اقتبس المسلمون عن طريقه بعض ما كان للسابقين من معارف ، ثم هضموها وشرحوها وألفوا فى نطاقها ، ودفعوا هذه المعارف الى الأمم الأخرى ، فالعلم عند المسلمين لم يكن له وطن ولا صاحب ، وهو لا يعرف الحدود ولا يسيطر على المعارف إنسان .

(1) Muslim Thought, its Origin and Achievements p. 34.

وقد كان القرآن والحديث مصدرَىْ الحضارة الإسلامية الأصيلة أى التى قدمها القرآن والحديث للمجتمع البشرى ، وكانت هذه المصادرُ هى المصادرَ الوحيدة التى علمت البشرية الشورى والعدالة الاجتماعية والأخلاق الاسلامية وانطلاقة التعليم ... أما الحضارة التجريبية كالطب والرياضة والفلك ... فقد اقتبسها المسلمون وطوروها ودفعوها لغير المسلمين على ما ذكرنا آنفا .

وعلى هذا فقد انفسح المجال لعرض تبادل الثقافات بين المسلمين وغير المسلمين .

تأثير العقيدة الإسلامية على عقائد غير المسلمين :

الذى يدرس العقائد المختلفة فى علم مقارنة الأديان يدرك التأثير الواسع الذى أحدثه الإسلام فى عقائد الجماعات التى اتصل بها ، ونثبت فيما يلى بعض صورٍ من هذا التأثير .

تأثير الإسلام فى المسيحية :

كان تأثير الإسلام على عقيدة المسيحيين واسعا ، فمنذ عهد بولس اتجه المسيحيون الى القول بالتثليث ، فلما جاء الإسلام وقال بالوحدانية المطلقة ودلل على هذه الوحدانية بأدلة حاسمة عقلية ونقلية [١] لجأ المسيحيون الى تحوير عقيدتهم بما يقرب من الإسلام ، فقالوا بوحدة فى تثليث أو تثليث فى وحدة ، أى أن الله واحد له ثلاثة جوانب أو أقانيم ، وكان هذا تأثيرا كبيرا للإسلام فى العقيدة المسيحية .

ووُجِدَتْ من بين النصارى طائفةٌ أنكرت ألوهية المسيح عليه السلام [٢] . وفى مصر طائفة كبيرة من المسيحيين المثقفين تستنكر ألوهية المسيح وترفض القول بالتثليث .

وفى القرنين الثانى والثالث الهجريين ظهرت فى جنوب فرنسا

---

(١) انظر هذه الأدلة فى كتاب « الاسلام » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف .

(٢) Haine's Christianity and Islam in Spain p. 116.

حركة تدعو الى إنكار الاعتراف أمام القسس ، وأن يتجه المسيحى الى الله وحده يرجو منه غفران ذنوبه ، ويرى الأستاذ أحمد أمين أن ذلك كان تأثرا بالإسلام ، إذ ليس فى الإسلام قسيسون ورهبان ، ثم إن جنوب فرنسا كان على صلة بالإسلام الذى امتد من أسبانيا الى جنوب فرنسا فى فترة من الفترات [1] .

وفى نفس الوقت تقريباً ظهر مذهب نصرانى يرفض تقديس الصور والتماثيل ، فقد أصدر الامبراطور الرومانى « ليو الثالث » أمراً سنة ٧٢٦ م يحرّم فيه تقديس الصور والتماثيل ، وأمرا آخر سنة ٧٣٠م يعُدُّ ذلك وثنية [2] ، ووصل هذا الأمر غايته على يد كلوديوس (Claudius) أسقف تورين سنة ٨٢٨م ، فقد أحرق الصور والصلبان ونهى عن عبادتها فى أسقفيته ويربط بعض الباحثين ذلك بنشأة كلوديوس ، إذ كان قد وُلد وتربى فى الأندلس الإسلامية [3] . وتأثر باتجاه بعض علماء المسلمين الذين لا يبيحون الرسم والتصوير والنحت .

وقد حملت البروتستانتية بعض آثار الإسلام ، فالأفكار التحررية التى تبيح للمسيحى أن يفكر ويفهم الكتاب المقدس بنفسه ، وتعده مسئولا أمام الله وليس أمام الكنيسة ... كل ذلك كان تأثرا بالاسلام من قريب أو بعيد [4] .

تأثير الإسلام فى الديانة الهندوكية :

فى الهندوكية آلهة لا يحصى عددها ، وعندما اختلط الهنود بالمسلمين ، ظهر تأثير الإسلام فى الهندوكية ، فبدأ الهنود يتكلمون عن

---

(١) ضحى الاسلام ج ١ ص ٣٦٤ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) ابو الحسن الندوى : الاسلام : اثره فى الحضارة وفضله على الانسانية ص ٢٥ .

(٤) المرجع السابق ص ٢٧ بتصرف .

رب الأرباب وإله الآلهة ، وفى هذا التعبير إهمـــال للكثرة وارتباط بالإله الواحد الأحد [١] .

ويقول الباحث الهندى Panikkar : إن تأثير الإسلام فى الديانة الهندوكية كان عميقا ، وإن قادة الفكر من الهنود الذين ظهروا فى العصر الاسلامى قد صرحوا بأن الإله واحد ، ودعوا لعبادته دون سواه [٢] .

الفكر الإسلامى بارز فى ديانة السيخ :

أما منشىء ديانة السيخ (بابا نانك) فقد تربى بين المسلمين وتتلمذ على كثيرين من العلماء المسلمين ، فلمـــا أنشأ ديانته ظهرت بهـــا تعاليم الاسلام كالتوحيد والمســـاواة بين البشرية ، واجتناب عبادة الأصـــنام ومحاربة الوثنيـــة [٣] .

تأثير المسيحية على بعض المسلمين :

وللأسف تسربت لبعض المسلمين بعض المعتقدات المسيحية ، ويشير السيد محمد رشيد رضا الى ذلك ، فيذكر أن بعض المسلمين يقولون برفع عيسى عليه السلام جسما وروحا عقب نجاته من الصلب ، وكلماته هى : ليس فى القرآن نص صريح على أن عيسى رفع بروحه وجسمه الى السماء ، وليس فيه نص صريح بأنه سينزل من السماء ، وإنما هى عقيدة أكـثر النصـــارى ، وقد حاولوا فى كل زمان منـــذ ظهور الإسلام بثهـــا فى المســـلمين [٤] .

وهكذا نجد علاقات ثقافية ، وتبادل أفكـــار ثقافية فى أخطـــر الأمـــور .

---

(١) محمد عبد السلام الرامبورى : فلسفة الهند القديمة (مجلة ثقافة الهند : مارس ١٩٥٣) .

(٢) A Survey of Indian History p. 132.

(٣) ابو الحسن الندوى : المرجع السابق ص ٢٤ — ٢٥ .

(٤) انظر كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف ص ٦٥ — ٦٦ الطبعة الثامنة .

العلم للجميع :

من ميزات الاسلام أنه جعل العلم عاماً بعد أن كان خاصاً بالكهنة ، وأن الآيات الأولى من القرآن الكريم هتفت بالقراءة والفكر ، ففتحت الباب للعلم ثم للتأليف والتعليم ، فانتقل العلم من فرد الى فرد ، ومن أمة الى أمة ، ومن عصر الى عصر ، وهكذا بواسطة الاسلام لم يعد للعلم موطن محدد ، ولا مالك خاص ، بل أصبح العلم للجميع وفى خدمة الجنس البشرى كله •

التقاء العلم بالدين :

كانت اليونان مركز العلوم والفلسفة والرياضة عدة قرون ، وكان علماؤها أقرب للإلحاد ، إذ كان العلم فى جانب والدين فى جانب آخر ، بل كانت هناك حرب وخصومة بين العلماء ورجال الدين ، وكانت كل طائفة من هاتين الطائفتين تعد الطائفة الأخرى خطرا عليها ، وطالما حكمت الكنيسة على أحد العلماء بالإعدام لأنه قال قولا يعارض ما عليه الكنيسة ، ومن أخف الأضرار التى ألحقتها الكنيسة بالعلماء والكتاب أنها كانت تصدر قرارات بتحريم قراءة كتبهم •••

وقد ظل هذا الوضع أو ما يقرب منه حتى الآن فى بعض البلاد غير الإسلامية ، ولم يتم نوع من المصالحة بين الدين والعلم بانجلترا إلا حديثا وقد نشرت صحيفة OBSERVER البريطانية فى مايو ١٩٨٧ أن بعض القسس وبعض العلماء قادوا معركة ناجحة لاتحاد العلم والدين والقضاء على الخصومة القديمة فى تاريخ الكنيسة ، وأقيمت بالكنيسة الانجليزية جمعية للتوفيق بين العلم والدين ، وأصبح بعض العلماء أعضاء فى الكنيسة ، ويقول الدكتور Canoon Irich قس ليفربول والذى كان يعمل خبيراً بهيئة الطاقة النووية البريطانية إنهم فى ليفربول يديرون سلسلة من الحلقات الدراسية للبحث فى المسائل العلمية التى كانت تعد من قبل من « المنوعات » فى الكنيسة مثل العلوم والآداب والقضاء والقدر •

أما فى الإسلام فالتقاء العلم بالدين تم من أول يوم ، وقد رفع الإسلام شأن العلماء وجعلهم أقدر الناس على معرفة الله والخضوع له

قال تعالى : « إنما يخشى اللهَ من عباده العلماءُ »[١] ، وحثَّ القرآنُ الناسَ على طلب العلم كما ذكرنا من قبل ، وعدَّ من أهمل ذلك مخطئا قال تعالى : « وكأين من آية يمرون عليها وهم عنها معرضون » [٢] وفي هذا المعنى يقول أيضا « وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير [٣] » ويقول موضحا مسئولية الإنسان تجاه حواسه وعقله « ولا تَقْفُ ما ليس لك به علم ، إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا [٤] » ويقول دافعا الإنسان ليستعمل عقله « فاعتبروا يا أولى الأبصار [٥] » .

وفى هذا الجو نما العلم ، ونمت المعرفة ، وتكاملت العقول ، وارتبط العالم ، فاذا وصل إنسان فى بلد الى فكرة علمية سليمة استغلها آخر وأضاف اليها ، وكان ذلك من دواعى تطور المعارف ، وقد وضع الإسلام أساس ذلك .

نشاط ثقافى أجنبى فى العالم الإسلامى :

كانت الاسكندرية منذ نشأتها تمثل مركزا فكريا عظيما ، وكان موقعها بين الشرق والغرب يمنحها مكانةً تجذب لها علوم مصر والعراق والشام واليونان ، وقامت بها مدرسة الاسكندرية التى يقول عنها Guge تقابل الشرق والغرب فى شوارع الاسكندرية وفى قاعات الدرس بها ، وفى معابدها [٦] ، وعلى طراز الاسكندرية وكامتداد لها قامت مدرسة أخرى فى « قيسارية » و « انطاكية » و « نصيبين » ثم قامت مدارس أخرى فى بلاد فارس أهمها مدرسة جند يشابور .

وعندما جاء الإسلام سمح لهذه الأنشطة بالبقاء ، وكانت مدرسة الإسكندرية تباشر دراساتٍ فى الطب والكيمياء بالإضافة الى دراساتها فى اللاهوت .

---

(١) سورة فاطر : ٢٨ . (٢) سورة يوسف : ١٠٥ .
(٣) سورة الملك : ١٠ . (٤) الاسراء : ٣٦ .
(٥) الحشر : ٢ . (٦) قصة الفلسفة اليونانية ص ٢٣٨ .

وفى عهد الدولة الأموية كان هناك نشاط لهـذه الثقافات بالعـالم الاسلامى ، فقد سمح الأمويون لهـذه المدارس بالاستمرار فى نشاطها الثقافى ، وبدأت ترجمات بعض الكتب للغة العربية من عهد مبكر وكان ذلك تلبية لرغبة خالد بن يزيد بن معاوية الذى كان شديد العنـاية بالعلوم والكيمياء ، والذى طلب ترجمة بعض الكتب من اليونانية والقبطية الى العربية فى الصنْعة وتحويل المعادن ، وكان لخالد هـذا أسـتاذ يونانى يدرس له الكيمياء [١] .

وجاءت الخـلافة العباسية ففتحت مزيداً من الأبواب للثقـافة الخارجية لتنمو وتترعرع فى العـالم الاسلامى ، فالخليفة المنصـور عقب تأسيس بغداد جمع صفوة من العلماء فى مختلف نواحى الفكر ، وشجّعهم على ترجمة كتب العلوم والآداب من اللغات المختلفة للغـة العربية ، فاستجاب كثير من العلماء لهـذه الرغبة ، ودفعهم التشـجيع الأدبى والمادى للإجادة والإكثار ، وكان أغلب هؤلاء من أتباع الديانات الأخرى أو من حديثى العهد بالاسلام ، ومن أبرز هؤلاء عبد الله بن المقفع الذى ترجم كليلة ودمنة من الفهلوية للعربية ، وقد فقد أصله ، وترجم فيما بعد من اللغة العربية الى اللغات العالمية .

ومن الكتب التى ترجمت للعربيـة فى هـذا العهد كتاب فى علم الفلك اسمه « سند هانتا » وقد قام بترجمته عالم هندى ، وكذلك فعل هـذا الرجل بالنسبة لكتاب آخر فى الرياضيات .

ومن مشاهير المترجمين فى عهد المنصور الطبيب النسطورى جورجيس ابن بختيشوع ، وكان المنصور قد استدعاه من جند يشابور ليكون طبيبه الخـاص ثم اشـتغل بالترجمـة ، ومن المترجمين كذلك بختيشوع بن جبريل تلميذ بختشوع .

بيت الحكمة :

ثم أنشىء أعظم معهـد فى الإسلام قام بدور كبير فى الترجمـة للغة العربية وهو بيت الحكمة ، وقد كتبنا عنـه كثيرا ، والى هـذا

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٣٣٨ .

المعهد جلبت أعداد ضخمة من الكتب التى كتبت بلغات متعددة وجلب العلماء لترجمتها ، وكانت موضوعات هذه الكتب متعددة وكان مؤلفوها عمالقة العصور الماضية » واشتغل بالترجمة نخبة من المفكرين أكثرهم من غير المسلمين مثل يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحاق ، وحبيش ابن اخت حنين وثابت به قرة [١] .

وكان الخلفاء المسلمون يحرصون على استدعاء مشاهير العلماء والمفكرين من الخارج للانتفاع بعلمهم فى العالم الإسلامى ، ويروى أن الخليفة المأمون سمع عن أستاذ بيزنطى برع فى الرياضيات اسمه « ليو » فكتب الخليفة الى الامبراطور البيزنطى ثيوفيل يطلب منه السماح لهذا العالم بالحضور الى بغداد ، وذكر الخليفة أن ذلك يعتبر عملا وديا ، وأنه يرغب فى توقيع صلح دائم مع بيزنطة لهذا الغرض ، ويعرض مكافأة للدولة أو للعالم قدرها ألفا قطعة ذهبية .

ولكن سادة بيزنطة لم يكن عندهم روح الخلفاء المسلمين فى قضية الثقافة ، فرفض الامبراطور عرض الخليفة مخافة أن يكون نقل الفكر عن طريق هذا العالم مما يرجح كفة المسلمين فى الصراعات الفكرية والعسكرية التى كانت دائرة بين الجماعتين [٢] .

الاقتباسات تتطور :

اقتبس المسلمون كما ذكرنا آنفا جوانب من الفكر الأجنبى فى العلوم التجريبية ، ولكن المسلمين لم يقنعوا بما اقتبسوه بل أعملوا فيه فكرهم ومواهبهم ، فنقلوه من طور الى طور ، وقد أثبتنا فى مكان آخر مراحل هذا التطور [٣] . فقد استكمل المسلمون تلك الكتب التى استوردوها ، إذ كانت قد فقدت عددا من صفحاتها وسطورها ، ثم ترجموا هذه الكتب للغة العربية ، وعلقوا على هذه الترجمات ، ثم راحوا يدرسون

---

(١) اقرا عن بيت الحكمة كتاب « الفكر الاسلامى : منابعه وآثاره » وكتاب « التربية الاسلامية » للدكتور احمد شلبى .

(٢) د . ابراهيم العدوى : السفارات الاسلامية الى اوربا ص ١٧ .

(٣) كتاب المناهج الاسلامية للمؤلف .

هذه المواد فى المعاهد الإسلامية ، وأخيرا استطاع المسلمون أن يؤلّفوا فى هذه المواد كتبا كانت أعمق وأوسع مما اقتبسوه فى نطاق هذا الفكر التجريبى الذى شمل الطب والرياضة والموسيقى والكيمياء وأمثالها .

وفى ذلك يقول Welfred Cantwell : كان انتصار المسلمين فى المعارك الحربية التى خاضوها انتصارا لفكرهم أيضا ، فهم لم يحققوا النصر فى ميدان القتال وحده ، ولم يؤثّروا على جوانب مختلفة فى الحياة فحسب ، بل انهم حققوا النصر فى توجيه الحياة بصورة عامة توجيها جديدا ، وطبعها بطابع خاص ، وهو ما يعرف بالحضارة ، وقد ساهمت فى تكوين هذه الحضارة الإسلامية عوامل متعددة وثقافات مختلفة ، ولكن تجلت عبقرية المسلمين فى تنسيق هذه العوامل وصهرها فى بوتقة جديدة بدون أن تفقد هذه العوامل خصائصها الذاتية ، بل على العكس تطورت بهم تطورا مطردا [1] .

المعارف الإسلامية الأصيلة :

وبالإضافة الى تطوير العلوم التجريبية المقتبسة ، دوّن المسلمون الفكر الإسلامى الأصيل الذى أشرنا اليه آنفا ، وكان القرآن والحديث مصدره ، فلم تمض مدة حتى كان لدى المسلمين ذخيرة من المعارف فى نطاق الشورى والعدالة الاجتماعية والنظم التشريعية فى مختلف الموضوعات ، وكان عندهم منهج فى نطاق حقوق المرأة والقضاء على الرق وغيرها .

وعندما استكمل المسلمون مكانتهم فى نطاق العلوم التجريبية والعلوم الأصيلة أصبحوا سادة الدنيا فى العلوم والمعارف ، وجاء دورهم للعطاء ، فقدموا بسخاء للمجتمع البشرى صورا واسعة فى هذا النطاق ، نسجل فيما يلى بعضها :

---

(1) Islam and Modern History p. 36 - 37.

ملوك غربيون درسوا فى المعاهد الإسلامية :

يذكر التاريخ أن بعض الذين تولوا الملك فى أوربا كانوا فى شبابهم طلابا فى المعاهد الإسلامية ، ومن هؤلاء : الملك ألفونس السادس الذى كان قد التحق بمعاهد المسلمين بالأندلس وارتوى من معينها ، وعشق ثقافتهـــا .

ومنهم كذلك فريدريك الثانى الذى أصبح امبراطورا لروما سنة ١٢١٥ م ، وقد سبق أن التحق هذا الامبراطور بجامعة بالرمو بصقلية ، وتلقى علومه على يد المعلمين العرب .

وفود ملكية للالتحاق بالمعاهد الإسلامية :

وتطلع ملوك أوربا الى معاهد العـــلم بالأندلس وحرصوا على أن ينالوا منها لذويهم قسطا من الفكر والمعرفة ، وقـــد توافد على هـــذه المعاهد أعداد كبيرة ، بعضهم اتجه لهـــا بدافع ذاتى ايزوّد نفســـه بالحكمة والمعرفة ، وبعضهم أرسل من قِبَل الملوك والرؤساء ليغترفوا من هذه المعاهد العلمية ، ومعنا نموذج واضح أرسله ملك انجلترا جورج الثانى إلى الخليفة هشام الثالث يستأذنه فى قبول مجموعة مختـــارة من الطلاب الأنجليز ليلتحقوا بالمعـــاهد الاسلامية بقرطبة ، وكان هـــذا الوفد تحت اشراف أميرة من أميرات البيت المالك هى ابنة شقيقة الملك . والخطاب واضح الدلالة على ما كان لدى المسلمين من علو شأن وعلى رغبة الغربيين فى الاغتراف من هذا المعين ونص الخطاب هو [1] :

من جورج الثانى ملك انجلترا والسويد والنرويج الى الخليفة ملك المسلمين فى مملكة الأندلس صاحب العظمة هشام الثالث الجليل المقام .

بعد التعظيم والتوقير فقد سمعنا عن الرقى العظيم الذى تتمتع بفيضه الصافى معاهد العلم والصناعات فى بلادكم العامرة ، فأردنا لأبنائنا اقتباس هذه الفضائل لتكون بداية حسنة فى اقتفاء أثركم لنشر أنوار العلم فى بلادنا .

---

(١) المستشار عبد الحليم الجندى : المنهج الاسلامى ص ١١٢ .

وقد وضعنا ابنة شقيقتنا (دوبانت) على رأس بعثة من بنات أشراف الانجليز لتتشرف بلثم أهداب العرش والتماس العطف لتكون مع زميلاتها ، موضع عناية عظمتكم وحماية الحاشية الكريمة ، وحدب من لدن معلماتهن ، وقد بعثت مع الأميرة بهدية متواضعة لمقامكم الجليل ، أرجو التكرم بقبولها مع التعظيم والحب الخالص •

امضاء

المطيــع جورج

وفى هذا الخطاب ايضاح لحالة المسلمين العالمية والجهل الظــاهر فى بلاد أوربا ، وللحرص كذلك على تلقى العلم حتى بالنسبة لبنــات الأشراف ، مع ما فى ذلك من مشقة بالنسبة اليهن ، ومن أجل هذا وضعهن الملك تحت رعاية الخليفة نفسه •

وردّ الخليفة هشام الثالث على خطاب الملك بخطاب يقولُ فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله رب العالمين والصلاة والســلام على نبيه سيد المرسلين • وبعــد •••

الى ملك انجلترا جورج الثانى ، لقد اطلعت على التماسكم فوافقت بعد استشارة من يعنيهم الأمر على طلبكم ، وعلى هذا فإننا نُعْلمكم بأنه سينفق على هذه البعثة من مال المسلمين دلالة على مودتنا ورغبتنا فى نشر العلم ، أما هديتكم فقد تلقيتها بسرور زائد وأبعث اليكم ببعض الطنافس الأندلسية ، وهى من صنع أبنائنا أبعث بها هدية اليكم ، وهى تحمل المغزى الواضح للتدليل على محبتنا • والســلام •

خليفة رسول الله على ديار الأندلس

هشــام

مبعوثون غربيون يستقرُّون فى بلاد الإسلام :

وقد فتحت هذه البعثة الباب لكثيرين وكثيرات من بلاد الغــرب المختلفة ، فوفدوا على معاهد غرناطة وإشبيلية لينهــلوا من الحضــارة الإسلامية • والعجيب أن كثيرين من المبعوثين والمبعوثات لم يعودوا الى

بلادهم ، بل طاب لهم العيش فى البـلاد الإسلامية ، وبعض المبعوثات ارتبطن بزيجات مع بعض المسلمين ، ومن هؤلاء الأميرة مارى وهى بلجيكية الأصل ، وقد تزوجت من الأمير حسن بن المهدى ، بل ان راهبة انجليزية كانت مرافقة لإحدى البعثات أعلنت اسلامها وتزوجت أحد المسلمين بالأندلس .

الأخلاق الإسلامية واحترام المرأة هبة الشرق للغرب :

ومن الأشياء التى اندفعت للغرب من الشرق الإسلامى ما يوضحه غوستاف لوبون بقوله : أخذ الغرب عن المسلمين أخلاق الفروسية واحترام المرأة ، وإذاً فليست المسيحية كما يظن بعض الناس من الغرب هى التى أنصفت المرأة بل الإسلام [1] .

مسلمون يعلّمون فى معاهد الغرب :

ولم يقنع الغربيون بالوفود يرسلونها الى المعاهد الإسلامية ، بل حاولوا أن يفتحوا المدارس والمعاهد وأن يجلبوا لهـا مدرسين من بلاد الإسلام ليكون نشر العلم على نطاق أوسع ، ومن الذين فعلوا ذلك الملك ألفونس العاشر الذى فتح مدرسة للترجمة فى طليطلة جعل فيها علماء المسلمين ينقلون الى الأسبانية واللاتينية كتب المسلمين .

وفعل مثل ذلك رئيس الأساقفة فى شمال أسبانيا الذى استدعى العلماء المهرة فى اللغات لترجمة التراث العربى ، ليكون فى متناول طلاب العلم الأوربيين ، واستمرت حركة الترجمة من اللغة العربية الى اللغة اللاتينية عدة قرون ابتداء من القرن الثانى عشر .

وفى صقلية حدث مثل ذلك النشاط فى ترجمة كتب المسلمين للغة اللاتينية ، فقد عين النورمان عقب استيلائهم على صقلية بعض علماء المسلمين ليقوموا بهـذه الترجمة ، كما رحب النورمان بالعالم المسلم الكبير الشريف الادريسى ليواصل جهوده فى بلادهم فى علم الجغرافيا .

---

(١) حضارة العرب : ص ٣٢٨ .

وهكذا يتضح أن المسلمين غرسوا حب الفكر والعلم فى نفوس الأوربيين ، فلما أحس الغربيون بمتعة العلم وأقبلوا على رعايته وتحصيله عاونهم المسلمون فى ذلك أجل معاونة •

ومن المفاخر التى تنسب للمسلمين أنهم استمروا فى خدمة العلم بعد الهزيمة والتراجع فى أسبانيا وصقلية بنفس النشاط الذى كانوا يبدونه فى أوقات انتصارهم ، فالضعف السياسى لم ينل من حماستهم للعلوم والفنـــون •

من الفكر الإسلامى للفكر الغربى :

ويمكن أن نشير اشارة سريعة الى الفيض الواســع الذى قدمـــه المسلمون للغرب ، وهذا الفيض قد ورد مفصلا الى حد ما فى كتــاب Muslim Thought, its Origin and a Chievements • الـــذى ترجمته من اللغة الانجليزية الى العربية بعنوان « الفكر الإسلامى منابعه وآثاره » هو يشمل جوانب متعددة من مختلف الثقافات ، كالجغرافيا والفلك وعلوم الرياضـــة والموسيقى ، الكيمياء ، العلوم الطبيعية (الصوت والضوء) والطب ، والصيدلة ، وبخاصـــة الطريقة التجريبية التى هى بلا شك من صنع المسلمين ، فليرجع الى هذا الكتاب من يشاء •

القانون الإســلامى :

من جوانب التفوق العظيم فى الفكر الاسلامى ذلك الجانب المرتبط بالقانون والفقه الإسلامى ، ومن الواضح أنه كما يقول Edmund Burke يمتاز بأنه يُطبق على جميع المسلمين لا فرق بين الملك المتوج والخادم الفقير ، وقد حيك القانون الإسلامى أبرع حياكة وأحكمها ، حتى أصبح بحق أعمق وأسطع قانون عرفته البشرية •

ومن المعروف أن مذهب الإمام مالك انتشر فى الشمال الافريقى وفى الأندلس وتسرب الى المناطق الجنوبية من فرنســا التى امتد لها حـــكم المسلمين فترة ما أو التى تأثرت بالوجود الاسلامى بالأندلس •

وكان الأوربيون فى العصور الوسطى يتحاكمون الى قوانين مصدرها العرف ، وكانت متغيرة حسب هوى سادة الإقطاع ، ولهذا عندما أرادت بعض الدول الأوربية وضع قانون عام اقتبست كثيرا من مذهب مالك الذى كان موجوداً فى أسبانيا الاسلامية ، وظل الاقتباس حتى العصر الحديث ، ويلاحظ الدكتور سيد عبد الله حسن [1] أن القانون الذى وضعه نابليون قد تأثر تأثرا واضحا بالتشريع الإسلامى ، بل وُجِدَ فيه تشابه كبير بالقانون الإسلامى ، ويذكر لذلك أمثلة نظام العقود والملكية وعقد الايجار .

وهناك عدد كبير من المفكرين الغربيين يعترفون فى صراحة ووضوح بفضل الإسلام على أوربا والعالَم ، ويذكرون فيض الفكر الاسلامى الذى غمر العالم بوجه عام وغمر أوربا بوجه خاص ، ومن هؤلاء Hearnshow و Gosiph Calmith و Kirk و Emerton و Richard Coke و Gourge Sarton وغيرهم كثيرون [2] .

فى المجال الثقافى كان المسلمون أكثر عطاء :

تحدثنا من قبل عن العلاقات الدولية التى ابتكرها الإســـلام فى مجال السياسة والاقتصاد والحياة الاجتماعية والثقافية ، وقد أعطى المسلمون وأخذوا ، ولكن الذى يُجمع عليه الباحثون أن عطاء المسلمين فى المجـــال الثقافى كان أوسع وأعمق ، ونقتبس فيما يلى بعض اعترافات الغربيين فى هـــذا المجـــال :

يقول Gasiph Calmith : فى اللقاءات بين المسلمين والأوربيين قدَّم المسلمون عنصر التأثير والانتاج ، وتلقّى العالَم المسيحى الأثر والفكر .

ويقول العالم الفرنسى فوريل : إن الاجماع يعزو الى العرب كلّ ما كان يبدو خليقا بالإعجاب فى الفنون والعلوم .

وكثيرون من الباحثين الغربيين اعترفوا بذلك .

---

(١) المقارنات التشريعية فى عدة امكنة .

(٢) اقرأ كلمات هؤلاء فى كتاب « المناهج الاسلامية » للمؤلف .

نومة المسلمين طالت فمتى يفيقون ؟ :

ونختم هذه الدراسة بلمحة رائعة لشاعر الإسلام محمد اقبال ، يعلق فيها على الفكر الإسلامى الأصيل الذى يلقى على الأمة الاسلامية — باعتبارها خير أمة أخرجت للناس — مسئولية توجيه العالم ، والحسبة على الأخلاق ، وعلى سلوك الأمم ، وأنها مسئولة عن مدى قيامها بهذا الواجب ، وهذا المعنى مقتبس من قول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسـط شهداء لله » [1] .

وقد التقط الشاعر العظيم هذا المعنى ووضعه فى قصيدة عنوانها « برلمـان إبليس » ويتصور الشاعر وجود برلمـان من الأبالسة ويراسه إبليس الكبير الذى يوصى أتباعه ببذل الجهد حتى يبقى المسلمون فى غفوتهم وسُباتهم ، لأنهم لو تيقظوا وقاموا بدورهم فى رقابة العالم وتوجيهه للخير ، لخسر الأبالسة كثيرا ، وفيما يلى ترجمة لهذا الجزء من القصيدة الرائعة ، وهو الجزء الذى يحوى خطاب إبليس الكبير لأعوانه :

اضربوا على آذان المسلم ، فإنه وحده الذى يستطيع أن يكسر الطلاسم ويبطل قوتنا لو تيقظت فيه معانى الأذان للصلاة والتكبير لله ، اجتهدوا أن يطول ليله ، ويبطىء سَحَرُه ، اشغلوه عن الجدّ والعمل ، فمن الخير لنا أن يبقى المسلم عبداً لغيره ، ويهجرَ العالَم ويعتزله ، ويتنازل عنه للآخرين زهدا فيه واستخفافا لخطره . أوقعوا الخلافات بين المسلمين ، وصوّروا لكل طائفة منهم أنها وحدها التى تمشى على الصراط المستقيم ، ومن عداها يعتبرون من الملحدين . يا ويلتنا يا اخوانى ويا شقوتنا لو انتبهت هـذه الأمـة لحالها ، وأدت دورها الذى يحتمه عليها دينها فى رقابة العـالم وتوجيهه [2] .

ليت المسلمين ينتبهون لهذه المعانى ويخيّبون أمل إبليس فيهم .

---

(١) سورة المـائدة : ٨ .

(٢) الترجمة بتصرف من كتاب الاسلام واثره فى الحضارة للأسـتاذ ابو الحسن الندوى .

العلاقات الدولية
فى المجـال العسكرى

إذا كانت دراستنا عن العلاقات الدولية فى المجـال السياسى والأقتصـادى والاجتماعى والثقافى جديدة ، فإن دراساتنا عن العلاقات الدولية فى المجال العسكرى ليست جديدة ، إنها ترجع الى الوراء عشرين سنة عندما عُقِدت ندوة علمية فى جامعة أم درمان الإسلامية بالسودان فى المدة من ٢٤ فبراير الى أول مارس سنة ١٩٦٨ بمناسبة مرور أربعة عشر قرنا على بدء نزول القرآن الكريم ، ولذلك كان العنوان العام للندوة هو :

« القرآن الكريم »

وقد اشتركتُ فى هذه الندوة ، وكان الموضوع الذى خُصِّص لى فيها هو « القرآن والجهاد » وقد وجد الموضوع آنذاك كثيرا من الاهتمام ، وبخاصة أنه جاء بعد الهزيمة القاسية التى بُلينا بها ضمن هزائم عهد عبد الناصر .

ومنـذ ذلك التاريخ البعيد وأنا أفكر وأعمل لأبرز العلاقات الدولية فى جميع مجالاتها ، حتى لا يبقى الجانب العسكرى وحيدا ، لأنه وحده لا يملأ الفراغ الذى قدَّمه الاسلام لجوانب العلاقات الدولية .

ويسرنى الآن أن أضم هـذا الجانب الى أخواته الجوانب الأخرى وذلك عندى يشبه تلاحم أسرة كان بعض أفرادها مجهولين ، فالتَأَمت وبدأت مسيرة حياتها وهى متكاملة رشيدة ، والله أدعو أن ينفع المؤلف والقـارىء بهذا الكتاب الذى استغرق إعداده هذا الوقت الطويل .

* * *

وفيما رواه أنس أن الرسول صلى الله عليـه وسلم قال : « جاهدوا المشركين بأموالكم وأيديكم وألسنتكم » [1] وإذا لم يكن فى المـال سعة

(1) اخرجه النسـائى .

يستمد بهما في العون ، وإذا قصرت الأيدي عن حمل السلاح ، فإني أطلق لساني وقلمي أجاهد بهما لخدمة قضية هذا الجيل والأجيال التي تليه ، فاللهم اقبل جهادي بهما ، وباركه ، واجعل له أحسن النتائج .

مصر بين الهزيمة والنصر :

وإذا كانت مصر قد عانت الهزائم سنة ١٩٥٦ وفي اليمن بين سنتي ١٩٦٢ و ١٩٦٧ وفي سنة ١٩٦٧ فذلك لأن العهد كان عهد هزائم ، ولأن ولي الأمر الزائف اتجه بجبروته للشعب الأعزل وأذله ، فانتقم الله للشعب من ولي الأمر ، وأرسل له قوة تجرفه وتذله ، وصدق الله العظيم الذي يقول « وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون » [1] .

والمهم أن هذه الفترة الكالحة قد ولت الى غير رجعة بفضل الله ، وعادت مصر تصل حاضرها بماضيها ، فاستعادت النصر الذي حققته في العصور القديمة على يد أحمس وتحتمس ، وفي العصور الوسيطة ضد المغول والصليبيين ، وفي العصور الحديثة بالأناضول وإفريقية واليونان ، واسترد المصريون كرامتهم ، وخطوا نحو النصر خطوة كبيرة نرجو أن تتلوها خطوات وخطوات .

وليس من الضروري أن نسأل : لماذا انتصرنا في حرب العاشر من رمضان (أكتوبر ١٩٧٣) ؟ ليس من الضروري أن نسأل هذا السؤال لأنه شيء طبيعي أن ننتصر ، ولكن من الضروري أن نسأل لماذا انهزمنا في الفترة الكالحة السابقة ، وإذا كنا لم نعرف الجواب الحقيقي بعد ، أو إذا كنا لا نستطيع أن نقول ما نعرف أو كل ما نعرف ، فإن الأيام ستكشف ما لا يزال حتى الآن مكتوما .

---

(١) سورة الأنعام ١٢٩ .

فاللهم أسألك أن تنجز قولك الحق « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ، ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى » [1] فليكن للمسىء نتيجة إساءته ونتيجة الدماء التى قدمها بحماقة للسفك ، والكرامة التى أراقها ، وليكن الخير كل الخير لمن أحسن التدبير ، وأعد العدة وثأر لنا من أعداء الله وأعداء الإنسانية .

والآن نسير خطواتنا فى الحديث عن العلاقات الدولية فى المجال العسكرى :

---

(١) سورة النجم الآية ٣١ .

دراسات تمهيدية

ما الجهاد فى التفكير الإسلامى ؟

الجهاد فى التفكير الإسلامى هو بذل الجهد فى مدافعة الشر واستجلاب الخير ، وعندما يطلق الجهاد يتجه الى الجهاد فى المعركة بالنفس أو المال ، وسنقدم دراسة تفصيلية لهذا النوع ، ولكن قبل الأخذ فى ذلك ينبغى أن نذكر نوعين من الجهاد هما ضد النفس والجهاد بالكلمة :

فالجهاد ضد النفس هو مصارعة الإنسان نفسه إذا مالت الى السوء والشر ، والإنسان يحاول بهذا الجهاد أن ينتصر على وسوسة الشيطان ونزعات الباطل ، وقد سمى الرسول صلى الله عليه وسلم هذا النوع من الجهاد « الجهاد الأكبر » إذ قال لأصحابه وقد عادوا مظفرين من إحدى الغزوات : عدتم من الجهاد الأصغر الى الجهاد الأكبر . قالوا : وما الجهاد الأكبر يا رسول الله ؟ . قال : جهاد النفس [1] :

وقد عُدّ هذا الجهاد جهادا أكبر لأن النفس التى نجاهدها كثيراً ما يختفى بها الشيطان ، وهو عدو كثير الخداع ، طويل الوسوسة ، لا يعلن عداوته ، بل إنه يتظاهر بمظهر الصديق الذى يحاول أن يجلب للإنسان اللذة والنعيم . وهو فى الحقيقة يجلب له الوبال ويجرّه الى سوء المآل .

وقد سمى هذا الجهاد « جهاداً أكبر » لأنه تهذيب للنفس ، وتوجيه لها تجاه الخير ، حتى تستعد لجهاد العدو فى المعركة ، أما النفوس التى انحرفت وغلبتها الرذيلة وسارت مع الهوى فإنها لا تستطيع أن تواجه العدو ولا أن تصارع المعتدين .

---

(١) يرى بعض المفكرين أن هذا ليس حديثا عن سيدنا رسول الله . بل هو قول ينسب لبعض العلماء ، واذا صح ذلك فان هذا القول جدير بالتقدير كفكرة ؛ ويكون شرحنا له على هذا الأساس .

أمـا الجهاد بالكلمة فيشمل كلمة حق يقولهـا الانسان أمام سلطان لا يحب أن يسمع كلمات الحق ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليـه وسلم « أفضل الجهاد كلمـة حق عند سلطان جائر » ويعتبر ذلك أفضل الجهاد لأن هذه الكلمة قد تجر على قائلها قليلا أو كثيراً من المتاعب وقد يرعوى بسببها السلطان الجائر ، ويشمل هذا النوع من الجهـاد كذلك حث الناس على الجهاد وتعليمهم وسائله وأفضاله بالكلمة المقولة أو الكلمة المكتوبة ، وفى ذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : جاهدوا المشركين بايديكم وأموالكم وألسنتكم •

والهدف الأسمى من الجهاد هو إقامة مجتمع خيِّر ، يسوده القانون والنظـام •

تلك مقدمة سريعة عن ألوان الجهاد نعود بعدها للجهاد المسلح الذى خصصنا له هـذا البحث :

الدعوة للإسلام قبل الإذن بالقتال

جاء الإسلام والدعوة للخير هدفه ووسيلته ، إنه يسعى لخير الناس وإسعادهم فى معاشهم ومآلهم ، وهو كذلك يتخذ الرحمة والفكر السليم واليسر وسائله لتحقيق هذه الدعوة ، والقرآن الكريم يصور لنا هذا الهدف وتلك الوسيلة أدق تصوير .

قال تعالى فى تصوير هدف الدين :

— وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين (١) .

— يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً (٢) .

— ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون (٣) .

وقال فى تصويروسائل الوصول لهذا الهدف :

— ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة (٤) .

— يا أيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ، وثيابك فطهر ، والرجز فاهجر ، ولا تمنن تستكثر ، ولربك فاصبر (٥) .

— ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون (٦) :

---

(١) سورة الأنبياء الآية ١٠٧ .
(٢) سورة النساء الآية ١٧٤ .
(٣) سورة الأعراف الآية ٥٢ .
(٤) سورة النحل الآية ١٢٥ .
(٥) سورة المدثر الآية ١ — ٧ .
(٦) سورة آل عمران الآية ١٠٤ .

ـ ولو كنت فظاً غليظ القلب لا نفضوا من حولك ، فاعف عنهم ، واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر [١] .

ـ لقد جاءكم رسول من أنفسكم ، عزيز عليه ما عنتم ، حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم [٢] .

وفى ضوء هذه التعليمات سار محمد صلى الله عليه وسلم يدعو الناس الى الاسلام متخذاً آداب الاسلام وتعليمات القرآن وسيلة له الى قلوب الناس ، وقد بدأت دعوته فى مكة بطبيعة الحال ، فاستجاب له من استجاب ، وأعرض عنه من أعرض ، ولكنه سار حثيث الخطا ، فتبعه مجموعة من عظماء الرجال ، من أمثال أبى بكر ، وعلى بن أبى طالب ، وعثمان ، وسعد بن أبى وقاص ، وطلحة ، والزبير ، وعبد الرحمن ابن عوف ، وأبى عبيدة بن الجراح ، والأرقم بن أبى الأرقم الذى اتخذت داره لتكون مقراً للدعوة للدين الجديد ، ثم عمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب ، ودخل مع هؤلاء مجموعة من الضعفاء منهم ياسر وابنه عمار وزوجته سمية ، وبلال ، وخباب بن الأرت [٣] .

عقبات فى طريق الدعوة :

وعندما تقدمت دعوة الإسلام فى مكة فى طريقها السلمى الهادىء قابلها كبار قريش بالعدوان والقسوة البالغة ، التى شملت السب والضرب والتدبير للقتل ، بل القتل فعلا لبعض أتباع الإسلام وقد صور القرآن الكريم بعض هذا العدوان بقوله :

ـ تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى ناراً ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد [٤] .

---

(١) سورة آل عمران الآية ١٥٩ . (٢) سورة البقرة الآية ١٢٨ .
(٣) ابن هشام جـ ١ ص ١٦٥ . (٤) سورة المسد .

— وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا : لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم ، لا نبتغى الجاهلين [١] .

— وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك [٢]

واتجهت قوى الشر بمكة الى تعذيب المسلمين حتى اضطر كثير منهم الى ترك ديارهم وثرواتهم والهجرة الى الحبشة فرارا بدينهم من الظلم والعدوان ، وتجمعت هذه القوى ضد بنى هاشم ، من أسلم منهم ومن لم يسلم ، لأن بنى هاشم دافعوا عن محمد وعملوا على حمايته ، وراح الرسول يدعو الى الإسلام خارج مكة ، واتخذ وجهته الأولى نحو الطائف فدعا فريقا من أشرافها الى وحدانية الله ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، ولم يردوه رداً كريماً ، بل أغروا به أحداثهم وسفهاءهم يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة [٣] .

واتجه الرسول بدعوته نحو يثرب وساعدته عوامل متعددة [٤] على نجاح الدعوة بهذه المدينة العظيمة ، ففتح الله صدور أهلها لهذا الدين ، وعاماً بعد عام ، ولقاء بعد لقاء انتشر دين الله فى يثرب بين الأوس والخزرج ، وبدأ المسلمون يهاجرون الى يثرب ، وتوقعت قريش أن يلحق محمد بأصحابه وأتباعه فى هذه المدينة ، فقررت القضاء عليه ، ولكن هجرته تمت على كل حال .

ولم تشمل الهجرة كل المؤمنين ، بل إن قريشا منعت كثيرين من المسلمين من الهجرة وحبستهم بمكة ، وأنزلت بهم صوراً من الايذاء والتعذيب ، وكان من هؤلاء عبد الله بن العباس وأمه وأخوه الفضل .

---

(١) سورة القصص الآية ٥٥ . (٢) سورة الانفال الآية ٣٠ .

(٣) ابن هشام جـ ١ ص ٢٦٠ .

(٤) انظر هذه العوامل فى « موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف جـ ١ ص ٢٥٠ وما بعدها من الطبعة الثانية عشرة .

ثلاثة عشر عاماً مرت على المسلمين بمكة قبل الهجرة ، ذاقوا فيها ألواناً من الاضطهاد والتعذيب ، لا لشيء إلا أنهم أسلموا ، وكانوا كلما همّت نفوسهم برد الظلم أو تطلعت الى إيقـاف العدوان والى القصاص من من المعتدين ردهم رسول الله عن ذلك ودعاهم الى الصبر وهتف بهـم فى حزم : لم أومر بقتال . لم أومر بقتال . والتزم المسلمون بالسياسة التى اتبعها محمد لنفسه ، فإنه طالمـا أوذى وبخاصة من أبى جهل ، ولكنـه لم يرده قط على مكروه أبى جهل ، وهكذا نجد أن النـاس لم يخضعوا للسيف ليدخلوا الإسلام ، ولكنهم تعرضوا للسيف لأنهـم أسلموا واحتملوا السيف فى سبيل الله [١] .

اليهود خطر آخر ضد الإسلام :

وعندما انتقل الإسلام الى المدينة واجه عدواً جديداً ذلك هو اليهود ، وقد كان هؤلاء يعارضون كل حركة دينية لا تنبع من مجتمعهم ، ولهذا كانوا يتابعون بحنق دعوة الإسلام منذ مطلعها ، وكانوا يظنون أن قريشاً ستقضى على هذه الدعوة فى مهدها ، ولكن الدعوة اقتحمت عليهم مدينتهم فواجهوها بالعدوان من أول يوم ، على الرغم من معاهدة التعـاون التى عقدها الرسول معهم ، ضامنة الحرية الدينية للجميع ، والتعاون لخير المجتمع الجديد [٢] .ويصور القرآن الكريم عدوانهم بمجموعة كبيرة من الآيات نورد منهـا :

— ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لمـا معهم ، وكانوا من قبلُ يستفتحون على الذين كفروا ، فلمـا جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين ، بئسما اشـتروا به أنفسهم أن يكفروا بمـا أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشـاء من عباده ، فباءوا بغضب

---

(١) انظر عبقرية محمد للأستاذ عباس العقاد ص ٤٨ .

(٢) انظر هذه الوثيقة فى كتاب الأموال لابى عبيد ص ٢٠٢ — ٢٠٥ وانظر الوان غدرهم وعدوانهم بالجـزء الأول من « موسوعة التاريخ الاسـلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف .

على غضب ، وللكافرين عذاب مهين ، وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله ، قالوا نؤمن بما أنزل علينا ، ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مصدقاً لما معهم ، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين [١] .

— ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسكم من بعد ما تبين لهم الحق [٢] .

— الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهودهم فى كل مرة وهم لا يتقون [٣] .

— يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم ، إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم [٤] .

وبالإضافة الى اليهود أدركت قريش أن يثرب — وقد أصبحت مركزاً جديداً للمسلمين — ستهدد تجارتهم الصاعدة الى الشام والهابطة لليمن ، وفى ذلك قضاء على اقتصادهم ، بالإضافة إلى ما يحققه من القضاء على وثنيتهم وأديانهم ، فقررت قريش أن تهاجم ذلك المعقل الجديد وتقضى عليه .

وهكذا عند مطلع الهجرة نجد أمامنا صوراً تلاحقت : عدوان من قريش على المسلمين الذين تخلفوا بمكة ، وتحفز تقوم به قريش ويتهيأ له اليهود على المسلمين بالمدينة ، وظهر بوضوح أن حرية التدين اتجاه لا تعرفه وثنية قريش ، ولا تقبله طوائف اليهود ، وكان لابد من سياسة جديدة يتبعها الإسلام غير سياسة المسالمة الطويلة التى كانت دستور الحياة بمكة ، وقوام هذه السياسة الجديدة الدفاع عن النفس ضد أى عدوان ، والدفاع عن المظلومين والمغلوبين على أمرهم بمكة ، والدفاع عن حرية الأديان ، وجاءت بهذا الدستور الجديد سور القرآن الكريم التى نزلت بالمدينة بعد أن خلت السور المكية من أى إذن بالقتال .

---

(١) سورة البقرة الآيات ٨٩ — ٩١ .　(٢) سورة البقرة الآية ١٠٩ .
(٣) سورة الأنفال الآية ٥٦ .　(٤) سورة المائدة الآية ١١ .

السور المدنية والإذن بالجهاد

رسمت السورُ المدنيةُ صورةَ المجتمع الإسلامى الذى بدأ يتكوَّن فى المدينة ، فحفلت بالتشريعات فى مختلف الشئون ، وكان الجهاد أحد الأمور التى عُنيت بها هذه السور حتى يعيش المجتمع فى أمن ، وحتى يؤدى رسالته على مر التاريخ فى حرية وانطلاق ، ولنتجه الى هذه السور المدنية لنرى خطة الجهاد التى رسمتها • والسورُ المدنية هى كما يلى بترتيب نزولها [1] •

١ — البقرة	٢ — الأنفال
٣ — آل عمران	٤ — الأحزاب
٥ — الممتحنة	٦ — النساء
٧ — الزلزلة	٨ — الحديد
٩ — القتال (محمد)	١٠— الرعد
١١— الرحمن	١٢— الإنسان
١٣— الطلاق	١٤— البينة
١٥— الحشر	١٦— النور
١٧— الحج	١٨— المنافقون
١٩— المجادلة	٢٠— الحجرات
٢١— التحريم	٢٢— التغابن
٢٣— الصف	٢٤— الجمعة
٢٥ — الفتح	٢٦— المائدة
٢٧— التوبة	٢٨— النصر

(١) هذا الترتيب تبعا للروايات التى نرى رجحانها ، وفى رواية الماوردى والنيسابورى التى اعتمد عليها الفيروز ابادى اختلاف طفيف ، انظر « بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز » ج ١ ص ٨٩ .

ونظرة عامة فى هذه السور ترينا أنها حفلت بالحديث عن الجهاد ، وحثت على الاستعداد له ، وبينت أسبابه ومقاصده وآدابه ، وأهابت بالصلابة والتضحية ، ونفرت من الفرار ، وأفاضت فى بيان جزاء المجاهدين والشهداء ، وذكرت أحكام الأسرى والغنائم ، وقد وضعت سورة البقرة وهى أولى السور المدنية أسس الجهاد ونظمه ، فقد وردت بها مجموعة من الآيات ألمت بالمسائل الكبرى المتصلة بالجهاد :

ففيها حديث عن السلم وأنه هو الأمل الذى ينبغى أن تنعم به البشرية إذا خلت الدنيا من أسباب الفتن والمكاره ، يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة » [1] .

وفيها بيان لقسوة القتال وصعوبته ، ولكنه مع ذلك يصبح ضروريا أحيانا ، ويجلب فى ركابه الحرية والخير ، أما السلم الذى تحبه النفس فربما جلب الخزى والعار والخسران ، قال تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم ، وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم » [2] .

سورة البقرة ومعنى « التهلكة » :

ويتصل بهذا المعنى آية أخرى وردت بنفس السورة تحذر من أن يلقى المسلمون بأنفسهم فى التهلكة ، وذلك بحرصهم على سلامة النفس فلا يشتركون فى الجهاد ، وحرصهم على سلامة المال فلا يقدمونه لشراء السلاح وعون الجند ، وستكون نتيجة هذا الحرص الهلاك وفقدان الأنفس والأموال جميعا على يد العدو . وإن فقدت بعض الأموال

---

(١) سورة البقرة الآية ٢٠٨

(٢) سورة البقرة الآية ٢١٦

وبعض الأنفس فى ساحة الشرف لضمنت السلامة لباقى الأموال والأنفس ، قال تعالى « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم ، واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين ، وأنفقوا فى سبيل الله ، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » (١)

وقد رُوِىَ تفسير هذه الآية عن الصحابى أبى أيوب الأنصارى رضى الله عنه ، ففى سنن أبى داود عن أسلم قال :

غزونا من المدينة نريد القسطنطينية ، وعلى الجماعة عبد الرحمن بن خالد والروم ملصقو ظهورهم بحائط المدينة ، فحمل رجل على العدو ، فقال الناس مه مه (أى كفف اكفف) ثم قالوا متعجبين منه : لا إله إلا الله ، يلقى بيديه فى التهلكة !!

فقال أبو أيوب الانصارى رضى الله عنه :

إنما نزلت فينا معشر الأنصار ، لما نصر الله نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأظهر الاسلام قلنا : هلمّ نقيم فى أموالنا نصلحها ، وندع الجهاد ، فأنزل الله تعالى : « وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة » فالإلقاء بالأيدى إلى التهلكة أن نقيم فى أموالنا ونصلحها وندع الجهاد .

وفى سورة محمد آية تقرر بوضوح أن من لم يستجب لدعوة الإنفاق فى سبيل الله فإن ضرر ذلك سيعود عليه ، قال تعالى « ها أنتم هؤلاء تُدْعَوْن لتنفقوا فى سبيل الله ، فمنكم من يبخل ، ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه » (٢) ومن أجل هـذا ذكر البخارى أن التهلكة هى ترك النفقة فى سبيل الله .

وممن تأدب بهذا الأدب السامى صلاح الدين الأيوبى الذى قيل له :

---

(١) سورة البقرة الآيتان ١٩٤ — ١٩٥ وانظر تفسير الآيتين فى القرطبى والفخر الرازى .

(٢) سورة محمد الآية ٣٨ .

لماذا لا تدخر بعض المال لأولادك وذويك ؟ فأجاب : إن بقيت الديار لنا ، فلنا كل ما فيها ، وإن ضاعت منا ضاع ما يملكه كل فرد واستولى عليه العدو [١] ومات هذا السلطان العملاق ولم يخلف إلا سبعة وأربعين درهما وقطعة واحدة من الذهب [٢] ولكنه بهذه السياسة وهذا الإيثار حفظ البلاد من أعدائها ، وأنزل بهم أكبر الهزائم ، واسترد منهم أكثر ما كانوا قد سلبوه من أرض الإسلام ، ثم سجل لنفسه ذكراً خالداً دونه كل مال وكل ثراء [٣] .

خطة الهجوم الدفاعي :

وفى سورة البقرة كذلك وضع خطة الجهاد فى الإسلام ، بأن يكون دفاعا ورداً العدوان ، وبيان بأن ما تسببه الفتن من تدمير أقسى مما تسببه الحروب من جراح ، قال تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين ، واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فإن قاتلوكم فاقتلوكم ، كذلك جزاء الكافرين ، فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم » [٤] .

وقد ظل المسلمون يتبعون سياسة الدفاع المحض حتى جاءت غزوة الأحزاب ، ولم يخرج المسلمون فيها لملاقاة العدو . واكتفوا بالوقوف موقف المدافع من داخل المدينة ، ولكن المسلمين عانوا فى هـذه الغزوة ألواناً من العناء والجوع من أثر الحصار الطويل ، ولذلك نجد المسلمين يغيرون من خططهم الحربية ، فلا يكتفون بالدفاع المحض . لأن الاكتفاء به أوشك أن يقضى على المسلمين ، ولكنهم فى الوقت نفسه لم يستطيعوا أن يلجئوا لسياسة الهجوم والعدوان فتلك سياسة لم يؤذن بها ، ولذلك

(١) شاهنشاه بن ايوب : ذيل النوادر ص ٣١٠ .

(٢) ابو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ ٨ ص ٩ .

(٣) انظر سيرته فى الجزء الخامس من « موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية » للمؤلف .

(٤) سورة البقرة الآيات ١٩٠ — ١٩٢ .

اتخذوا سبيلا وسطاً هو ما يسميه العسكريون « الهجوم الدفاعى » أى أن يهجموا — مدافعين — على تكتلات الأعـداء التى تستعد للزحف على المسلمين ، وكانت هذه هى خطة المسلمين بعد ذلك فيما قاموا به من حروب (١) .

الحرب الإسلامية تكون لإعلاء كلمة الله :

وفى سورة البقرة تكرار لجملة كبيرة الأهمية وهى « فى سبيل الله » وقد ارتبطت هذه الجملة بالقتال « وقاتلوا فى سبيل الله » (٢) وارتبطت بالانفاق على المعركة « وأنفقوا فى سبيل الله » (٣) وسنرى هذا المعنى متكرراً فى آيات كثيرة من القرآن الكريم ، وقد حددت أحاديث الرسول مكانة الذى يحارب أو ينفق على الحرب لإعلاء كلمة الله ، وحددت مكانة الذى يفعـل ذلك يلتمس الغنيمة أو الصيت والذكر ، وفيما يلى بعض الأحاديث الشريفة عن ذلك :

— عن أبى موسى قال : سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ، ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله (رواه الخمسة) .

— عن عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما من غازية تغزو فى سبيل الله فيصيبون غنيمة إلا تعجلوا ثلثى أجرهم ، ويبقى لهم الثلث فى الآخرة ، وإن لم يصيبوا غنيمة تم لهم أجرهم عند الله .

وعن أبى أمامة قال : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له : أرأيت لو أن رجلا غزا يلتمس الأجر والذكر ، ماذا له ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا شىء له ، فأعادها الرجل ثلاث مرات والرسول

---

(١) موسوعة التاريخ الاسـلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف جـ ١ ص ٤٩١ من الطبعة الثانية عشرة .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠ والآية ٢٤٤ .

(٣) سورة البقرة الآية ١٩٥

يقول : لا شيء له . ثم قال : إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغي به وجهه [١] .

فالمطلوب أن يكون الباعث الحقيقى على الجهاد هو قصد إعلاء كلمة الله سواء حصل غير الإعلاء ضمنا أو لم يحصل ، وهذا ما عليه أكثر العلماء ويؤيده ما جاء فى الطبرى عند قوله تعالى « ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم » [٢] فإن فضيلة الحج لا تتعارض مع التجارة فيه [٣] .

الإسلام وحرية الأديان :

وفى سورة البقرة حث المسلمين على حماية حرية الأديان ، وعلى مناهضة كل من يريد أن يَحْرِم الناس هذه الحرية ، ويفرض عليهم ديناً معيناً ، وفى السورة كذلك بيان أن غير المسلمين يتبعون سياسة مغايرة ، هى سياسة محاربة التدين ومحاولة منع الناس من الدخول فى الاسلام ورد الذين دخلوه عن الاستمرار فيه ، قال تعالى :

— وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين [٤] .

— لا إكراه فى الدين [٥] .

— ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا [٦] .

وفى سورة البقرة حث على التضحية والفداء وامتداح لأولئك الذين يهبون أنفسهم لمرضاة الله وإعلاء كلمة الحق ، قال تعالى « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله ، والله رءوف بالعباد » [٧] .

---

(١) الشوكانى : نيل الأوطار جـ ٧ ص ١١٩ .

(٢) سورة البقرة الآية ١٩٨ .

(٣) الشيخ عبد الله غوشه : الجهاد طريق النصر (من ابحاث مجمع البحوث الاسلامية) .

(٤) سورة البقرة الآية ١٩٣ .

(٥) نفس السورة الآية ٢٥٦ .

(٦) سورة البقرة الآية ٢١٧ .

(٧) نفس السورة الآية ٢٠٧ .

وهكذا فى هذه الدراسة الموجزة عن السورة المدنية الأولى « سورة البقرة » رأينا سياسة الإسلام عن الجهاد تتضح ، وخطته تظهر بكل جلاء ، ولسنا نستطيع فى هذا البحث الموجز أن نسير مع السور المدنية الأخرى واحدة واحدة نبرز اتجاهات كل سورة فى موضوع الجهاد ، ولذلك نفضل أن نعرف تعريفاً قصيراً بالسور المدنية التى اهتمت اهتماماً خاصاً بالحرب والجهاد ، ثم نعود إلى دراسة موضوع الجهاد من مجموع هذه السور .

وأول ما يطالعنا بعد سورة البقرة سورة الأنفال ، وهى السورة المدنية الثانية ، وكثير من آياتها نزلت بمناسبة غزوة بدر والصراع المرير الأول الذى خاضه المسلمون ضد قوة أكثر منهم عدداً وعدة ، وكيف كان الله معهم ، وكيف نصرهم مع قلة العدد وضعف العتاد ، وفى السورة آيات كثيرة تحث على الاستعداد وعلى الثبات والتعاون لمواجهة العدو ، وحديث طويل عن الأسرى والغنائم ، وهى بذلك ثروة كبيرة لمن أراد أن يدرس موضوع الجهاد بشرح وتفصيل .

وفى سورة آل عمران وهى السورة المدنية الثالثة سبع آيات تتصل بنظريات الجهاد [١] . وفى بعضها حث لأهل الكتاب أن يعودوا إلى الرشد ويبعدوا عن تعدد الآلهة ، وهتاف بهم أن يجيئوا إلى نقطة اللقاء مع المسلمين وهى عبادة الإله الواحد [٢] ، وتهتم هذه السورة كذلك بحث المسلمين على أن يكونوا منهم أمة واحدة معتصمة بحبل الله ، لا تعرف الفرقة ولا الخصام وألا يوالوا الكفار وأعداء الإسلام [٣] ، وتهتم السورة بإبراز المآل الطيب لمن يموتون شهداء فى سبيل الله [٤] .

---

(١) هناك آيات أخرى فى سورة آل عمران غير هذه الآيات السبعة تتحدث عن غزوة أحد .

(٢) سورة آل عمران الآية ٦٤ .

(٣) نفس السورة الآية ٢٨ و ١٠٢ .

(٤) سورة آل عمران الآيات ١٥٧ — ١٥٨ — ١٦٩ .

أما السورة المدنية الرابعة (سورة الأحزاب) فقد نزلت كثير من آياتها مرتبطة بالغزوة المسماة باسمها ، ولا عجب أن تكون كالأنفال كثيرة الحديث عن الجهاد والحرب الدينية .

ومن بين السور المدنية سورة القتال « محمد » وبها مجموعة من الآيات تتحدث عن الحرب والصرامة فيها ، وفيها وعد من الله بأن ينصر الذين ينصرون دينه ويثبت أقدامهم ، وفيها كذلك حديث عن شروط الهدنة والصلح

ومن بين السور المدنية سورة الحشر ، وأكثر آياتها تتحدث عن غدر بنى النضير وما آل له أمرهم ، كما أن بها الآيات الكريمة التى احتج بها عمر رضى الله عنه أمام من حكمهم من الأنصار ليجعل أرض السواد وأرض الشام ومصر أرض خراج لا أرض غنيمة (١) .

ومن بين السور المدنية سورة الحج التى تبرز بها الأسباب التى من أجلها منح الله المسلمين الإذن للدفاع عن أنفسهم قال تعالى : « أُذِنَ للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير ، الذين أُخْرِجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله » (٢) .

ونقفز إلى سورة الصف وهى سورة اتخذت اسمها من آية كريمة ترسم للمسلمين صورة التكتل الحازم أمام العدو ، قال تعالى « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » (٣) .

ونصل إلى سورة الفتح وهى التى نزلت عقب صلح الحديبية ، وقد سمى ذلك الصلح فتحاً لأن الدعوة عندما سارت فى سلام بعد هذا الصلح فتحت لها الآفاق وانهال عليها المسلمون ، وكانوا يخافون قريشاً قبل هذا الصلح ، فلا يستطيعون إعلان إسلامهم ، ويقول المؤرخون إن من

---

(١) سورة الحشر الآيات ٧ — ١٠ وانظر « الاقتصاد فى الفكر الاسلامى » للمؤلف ص ١٨٠ وما بعدها من الطبعة السادسة .

(٢) سورة الحج الآيتان ٣٨ — ٣٩ .

(٣) سورة الصف الآية الرابعة .

دخل الإسلام في السنتين اللتين تلتا صلح الحديبية أكثر ممن دخلوه في المدة التى تقرب من عشرين عاما ، والتى تبدأ من مطلع الإسلام وتمتد حتى ذلك الصلح ، وهذا يدل على أن انتشار الإسلام يتبع السلم ولا يتبع الحرب .

من الصراع ... لنعمة الأمن :

وسورة الفتح يمكن أن تعطينا في هذا المجال معلومات أوسع ، فلنقف عندها وقفة أطول ، وأول ما يستلفت النظر أن سورة الفتح تتلو في ترتيب السور بالمصحف سورة محمد التى تسمى أيضاً سورة القتال ، وبين السورتين في تاريخ النزول حوالى ثلاث سنوات ، وهى مدة ليست بطويلة ، ومع هذا فسورة القتال طابعها الصراع المرير من أجل الحياة ، ثم تبدلت الأمور في تلك السنوات الثلاث ، فلما جاءت سورة الفتح اتضح منها أن النعمة والأمن واليسر قد أصبحت طابع الحياة عند المسلمين .

— ونجىء بعد ذلك الى آيات السور فنقتبس منها ونعلق عليها :
قال تعالى : (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً) [1] وفي تفسير هذه الآية يتجه أكثر المفسرين الى أن الفتح هو صلح الحديبية الذى كان بعيد النتائج وكان فتح مكة أحد نتائجه .

ويتشعب الفتح الوارد في الآية — كما يرى المفسرون — الى فتح في النفوس وفتح في الدعوة ، وفتح في الأرض ؛ فقد كشف الموقف في الحديبية عن تردد المنافقين وهاجم نفوسهم المريضة ، ودفع المسلمين الى بيعة الرضوان وبها استعداد للتضحية دون حدود ، وقد أوضحت آيات السور اعتذارات المنافقين من الأعراب لأنهم لم يلحقوا بركب الرسول وهو قاصد مكة للعمرة ، ومع أنهم كانوا كاذبين في اعتذارهم فإن نفوسهم بدأت تعرف طريقها الى الحق والنور ، أما نفوس المؤمنين فقد غمرها السرور حين عاهدت الرسول على الصمود مهما كانت النتائج .

---

(١) سورة الفتح الآية الأولى .

وأما الفتح فى الدعوة فيتضح من أن الدعوة الإسلامية سارت بعد الحديبية سيراً هيناً سلساً ، وانهارت كل العقبات من طريقها .

وأما الفتح فى الأرض فإن المسلمين بعد الحديبية لم يَبْقَوا محصورين فى المدينة بل ذهبوا فقضوا على قوة اليهود فى خيبر وتيماء ووادى القرى ، وكانوا من قبل قد قضوا على يهود المدينة ، وبانهيار قوة اليهود وتوقف الصراع مع قريش فتحت الآفاق للدعوة الجديدة ودخلت دعوة الإسلام بقاعاً واسعة فى الأرض .

— فى سورة الفتح آيات ثلاث [1] تصف حال قريش وحال المسلمين عندما تأزمت الأمور وظهر شبح الحرب ، وعندما كانت المفاوضة تدور ، فقد كان معسكر الكفار تسيطر عليه حَمِيَّة الجاهلية وأنفتها ، تلك الحمية التى لا تعتمد على منهج أو عقيدة ، وكانت جماعة المسلمين تسيطر على قلوبهم السكينة والطمأنينة ، يبايعون الرسول فى ثقة وإيمان ، فهم يستعدون للحرب والتضحية بكل شىء ، ولكن فى هدوء واستقرار وطاعة كاملة للقائد ، وتقوى شاملة لله العلى العظيم .

وهذه الآيات هى :

* هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السموات والأرض وكان الله عليما حكيما .

* لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً .

* إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية ، فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، وألزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما .

---

(١) الآيات رقم ٤ و ١٨ و ٢٦ .

القرآن يسجل انهيار قريش :

ـ فى سورة الفتح آية كريمة كشفت أسرار قريش ، هى قوله تعالى :
(ولو قاتلكم الذين كفروا لولّوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً)[1]
ويتضح من هذه الآية أنه لم يكن لدى قريش أى أمل فى النصر ، وأن الانهيار كان متغلغلا فى أنفسهم ، ولم يعد فى طاقتهم أن يواجهوا المسلمين وأن يصمدوا أمامهم •

إكرام المجموع من أجل بعض أفراده :

ـ وآية أخيرة نقتبسها من هذه السورة الكريمة توضح لنا السبب فى عدم حدوث الحرب مع رجحان كفة المسلمين ، وهذه الآية هى قوله تعالى :
(ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطأوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ، ليدخل الله فى رحمته من يشاء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليما)[2] فقد كانت هناك جموع من رجال مكة ونسائها دخلوا الإسلام سراً ، ولم يستطيعوا أن يعلنوا إسلامهم وسط عناد قريش وقسوتها ، ولو اشتعلت الحرب لكان من الممكن أن يصاب هؤلاء بسوء ـ لأن المسلمين لم يعرفوا خبر إسلامهم ، ولو أنزل بهم المسلمون بعض الأذى ثم عرفوا فيما بعد خبر إيمانهم فإن المسلمين يحسون بالعار والأثم ، ولو تميز هؤلاء لكان من الممكن أن تقوم الحرب يسلط الله فيها المؤمنين على الكافرين وهكذا شاء الله أن يكرم المجموع من أجل بعض أفراده •

ولنختم عرضنا للسور المدنية بالكلام عن سورة التوبة ، وهى آخر سورة مدنية فيما عدا سورة النصر ، وفى سورة التوبة أحاديث طويلة عن غزوتى حنين وتبوك •

وهكذا نجد السور المدنية ترسم فكرة الجهاد الإسلامية وتضعها فى

(١) الآية رقم ٢٢ .
(٢) الآية رقم ٢٥ .

صورة واضحة ، وتتمشى مع الغزوات غزوة غزوة ، منـذ غزوة بدر وهى أولى الغزوات الى غزوة تبوك وهى آخرها ، ومن أجل هذا فالباحث يجد فى هذه السور ثروة واسعة تنير له الطريق ، وتمده بأدق العناصر عن موضوع الجهاد الذى احتاجه المسلمون منذ الهجرة ، ولايزالون يحتاجونه حتى كتابة هذه السطور ، وسيظلون يحتاجونه أبداً ليحموا أنفسهم وأهليهم وأوطانهم من عناصر الشر ما بقيت هذه الحياة . فلنسر فى دراسة الجهـاد فى ظل هذه الآيات البينات نفصل ما عممنا ونشرح ما أوجزنا .

الفكر الإسلامي

ومشكلات ما قبل المعركة

الإسلام والسلام

جاءت دعوة الإسلام للبشرية دعوة هدى ويسر ، كما أشرنا من قبل ، اتجهت الى الناس عامة تدعوهم لعبادة الله الواحد الأحد ، واتخذت البيان والمنطق والحكمة وسائل لها لتوصيل هذه الدعوة ، قال تعالى :

— يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذى جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء ، وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم ، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ، وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين [١] .

— يا أيها الناس إن وعد الله حق ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور ، إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير [٢] .

وخص القرآن الكريم أهل الكتاب بدعوة فيها تقرب وتعاطف قال تعالى :

— قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون [٣] .

— ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم ، وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ونحن له مسلمون [٤] .

---

(١) سورة البقرة الآيات ٢١ — ٢٣ . (٢) سورة فاطر الآيتان ٥ — ٦ .

(٣) سورة آل عمران الآية ٦٤ . (٤) سورة العنكبوت الآية ٤٦ .

وكانت مهمة الرسول ومهمة أتباعه من بعده توصيل الدعوة للناس وإقامة البرهان على صحتها ، وللناس بعد ذلك أن يختاروا دون إرغام أو إكراه ، قال تعالى :

— ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة [1] .

— فذكر إنما أنت مذكر ، لست عليهم بمسيطر [2] .

— فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب [3] .

— لكم دينكم ولى دين [4] .

ولكن الطغاة هبوا فى وجه الدعوة يقاومونها ويريدون القضاء عليها كما ذكرنا ، واشترك فى ذلك الوثنيون من قريش ، ويهود الجزيرة العربية ، وقادة الباطل فى إمبراطوريات الشمال ، وحاول الرسول أن يوقف هذا العدوان بالحسنى ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح ، وكان الرسول فى محاولته هذه يتبع فلسفة الإسلام التى تدعو الى السلم وتنكر العدوان وتكره إراقة الدماء ، وتدعو الى التعاون مع المسالمين أيا كانت أديانهم ، قال تعالى :

— يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين [5] .

— وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله [6] .

— لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين [7] .

---

(١) سورة النحل الآية ٢٥ .
(٢) سورة الغاشية الآيتان ٢١ و ٢٢ .
(٣) سورة الرعد الآية ٥٢ .
(٤) سورة الكافرون الآية السادسة .
(٥) سورة البقرة الآية ٢٠٨ .
(٦) سورة الأنفال الآية ٦١ .
(٧) سورة الممتحنة الآية الثامنة .

— فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا [١] .

وقد اتبع المسلمون فى جميع العصور فلسفة الإسلام ، فلم يلجئوا للسيف إلا اذا كان ذلك ضروريا ، وينبغى لنا هنا ان نبرز بعض النقاط التاريخية التى تزيل بعض الأخطاء الشائعة وتثبت أن المسلمين فى جميع العصور اتبعوا سياسة المسالمة ما لم يكن هناك عدوان عليهم ، وان لانتشار الإسلام ارتبط بالسلم ولم يرتبط بالحرب :

أولا : بدأ تحرش الروم بالمسلمين فى حياة الرسول ، يُرْوَى أنه فى سنة ٦٢٧ م (السادسة للهجرة) أسلم فروة بن عمر الجذامى عامل الروم على عمان ، وأرسل مع مسعود بن سعد الجذامى بغلا أشهب وفرسا وحمارا ، وأقمصة كتانية وعباءة حريرية هدية للنبى ، ولما بلغ الرومان ذلك حاولوا إقناعه ليرتد ، فأبى ، فما كان منهم إلا أن ألقوا القبض عليه وسجنوه ثم صلبوه على ماء يقال له (عفرى) بفلسطين .
ثم أمر هرقل بقتل كل من أسلم من أهل الشام :

وفى سنة ٦٢٩ (٨ هـ) أوفد النبى جماعة قوامها خمسة عشر رجلا الى حدود شرق الأردن ليدعوا الناس الى الإسلام ، وليستطلعوا أخبار الروم فخرج عليهم جمع غفير فى مكان يقال له (طلة) بين الكرك والطفيلة وقتلوهم كلهم إلا واحدا لاذ بالفرار [٢] .

وكانت تجمعات الروم تهدد المسلمين حتى كان المسلمون يتوقعون هجوم الروم عليهم كل لحظة ، ومما يدل على ذلك أن صحابيا فى أثناء حياة الرسول دق باب عمر بن الخطاب فى ليلة وعمر نائم ، فهب عمر من نومه مذعورا وهو يقول : ما هو ؟ أجاءت غسان ؟

ثانيا : فى السنة السابعة للهجرة أرسل الرسول — اتباعا لسياسة

---

(١) سورة النساء الآية ٩٠ .

(٢) كولونيل فردريك : تاريخ شرق الاردن وقبائلها ص ٨٥ نقلا عن « الرسالة الخالدة » لعبد الرحمن عزام ص ٢٢٨ .

الدعوة السلمية — كتاب دعوة الى ملك الغساسنة مع الحارس بن عمير الأزدى ، ولكن هؤلاء قتلوا رسول محمد وسخروا بمن أرسله ، وهددوا بالزحف على الجزيرة العربية والقضاء على الدعوة الناشئة ، فأعد لهم الرسول جيشاً بقيادة زيد بن حارثة ولكن الروم انضموا الى حلفائهم الغساسنة ، وأوقعوا بالمسلمين هزيمة في غزوة مؤتة (١) ، وهكذا بدأ الصراع بين المسلمين والروم .

وكما تحرش الروم بالمسلمين تحرش بهم الفرس أيضاً ، وكان تحرش الفرس بالإسلام ورسول الإسلام مبكرا فيروى أن كسرى فارس أرسل الى نائبه باليمن يطلب منه أن يرسل رجلين قويين إلى الحجاز ليأتياه بمحمد مكبلا ، ولما وصلا الى الرسول قال الرسول لهم إن الله أوحى لى أن كسرى الذى أرسلكم قتل . فقالوا ننتظر الأخبار فإن صدقت دخلنا دينك ، وصدق الرسول ولكن كسرى الجديد كان كالقديم تجبراً وعدواناً والتاريخ يروى لنا أن القبائل الموالية للفرس كانت توالى الإغارة على أرض المسلمين ، ولم تكن حرب المسلمين مع الفرس إلا امتداداً للدفاع الذى قام به المسلمون ليحموا أنفسهم وذويهم من هؤلاء المغيرين .

وكانت الشعوب الخاضعة لكسرى فارس وقيصر الروم تئن تحت الظلم الصارخ الذى تعامل به ، ففى فارس كان الملوك يعدون آلهة ، وفى الروم كان الاستعمار قاسياً على البلاد الخاضعة للامبراطورية ، وأكبر دليل على ما كانت تعانيه الشعوب من ضيق أنها لم تكن لها حماسة فى الحروب ، وأن القادة الطغاة كانوا يدركون ذلك ، حتى لقد حدث فى المعارك بين المسلمين وبين الفرس والروم أن اضطر القائد الفارسى أن يقيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا ، وقد سميت هذه الموقعة موقعة ذات السلاسل ، وحدث مثل ذلك مع الروم فى موقعة اليرموك (٢) .

---

(١) النووى : تهذيب الأسماء : القسم الأول جـ ١ ص ٢٦٥ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤١ .

ثالثاً : بعد ما توقفت الحروب ضد قادة الضلال فى فارس والروم تركت للشعوب الحرية الكاملة فى اعتناق الإسلام أو عدم اعتناقه ، ويقرر التاريخ أن انتشار الإسلام فى هذه الأقطار اتضح فى عهد عمر بن عبد العزيز ، وهو عهد أغمد السيف واتخذ الدعوة والمحاجة دستوراً له ، ولذلك يسمى هذا العهد « عهد إسلام الشعوب المفتوحة » ويقرر Kirk [1] أن غالبية أهل الشام ومصر السفلى فى القرن التاسع الميلادى كانت لاتزال مسيحية على الرغم من أن الإسلام كان قد مضى عليه فى هذه البقاع أكثر من قرنين ، ومثل ذلك ما يقرره Roland Oliver [2] من أن الإسلام لم يتخذ طريقه خلف الصحراء إلا بعد انحلال دولته الكبرى فى المغرب ، وكانت وسيلة الإسلام لهذه البقاع هى الثقافة والفكر والدعوة .

رابعاً : حارب صلاح الدين الأيوبى الصليبيين حرباً لا هوادة فيها ، وأذاقهم مر الكأس لعدوانهم على الأرض الإسلامية ، واستعاد أكثر هذه الأرض ، ودمر قلاع العدو وقلم أظفاره ، فلما وضعت الحرب أوزارها راح الفرنجة الذين سقطت بلادهم يطرقون أبواب المدن التى لا تزال فى أيدى إخوانهم الصليبيين ، ولكن هذه المدن أقفلت أبوابها فى وجوههم ، وحينئذ تجلت فى صلاح الدين شهامة الإسلام ، ففتح لهم بلاده على أن يعيشوا فيها فى ظل الإسلام ، وينعموا ما ضمنه الإسلام من حقوق لغير المسلمين فى المجتمع الإسلامى [3] .

وفى كلمة قصيرة : يسالم الإسلام من سالمه ، فمن اعتدى على الإسلام أو على المسلمين فإن الإسلام يدفع أتباعه الى نضال صارم يريدون به العدوان ، ويقضون على شوكة المعتدى الأثيم ، كما سنرى ذلك فيما يلى :

---

(١) A Short History o fthe Middle East. p. 36.

(٢) A Short History of Africa p. 77.

(٣) Stanley Lane - Poole Egypt in the Middle Ages p. 169.

الاستعداد للجهاد

مُلئت الحياة بالأشواك ، واتجهت نفوس الكثيرين إلى العدوان والغدر ، والإسلام دين الواقع ، لقد سالم وسالم ، ولكن العدوان استفحل واشتد ، وتجمعت قوى الشر ضده فى حياة الرسول وبعد الرسول ، ففى الغزوات تعاونت قريش واليهود والأحابيش وتهامة وغطفان وبنو مرة وأشجع على حرب المسلمين ، وفى عهد أبى بكر تعاون المرتدون ومدعو النبوة والمتنبئون ضد المسلمين ، وانضم لهؤلاء جند من الفرس والروم ، وفى العصور الوسطى تجمعت كل دول أوربا وزحفت على أرض الإسلام فيما يسمى بالحروب الصليبية ، وفى العصر الحديث استعمرت أوربا كل بلاد الإسلام ، وعندما تركتها عسكرياً كانت قد وضعت الأساس للون آخر من الاستعمار عن طريق إسرائيل فى قلب العالم الإسلامى ، وكذلك عن طريق الضغط الاقتصادى والتشويه الثقافى والاجتماعى ، وأكثر من ذلك ما تذكره المراجع الأوربية من أن تعاون اليهود والمسيحيين كان دائماً واضحاً ضد المسلمين وقد اتخذ فى العصور الوسطى الديانة المسيحية واجهة له ، ويتخذ الآن اليهودية واجهة جديدة [١] .

من أجل هذا كان لابد من المواجهة الجريئة ، ومن أجل هذا حث القرآن الكريم على الاستعداد للحرب لحماية الإسلام فى جميع العصور وجميع الأنحاء .

موالاة المسلمين ومعاداة الأعداء :

وأول خطوة فى الاستعداد للمواجهة والحرب ، موالاة الأولياء ومعاداة الأعداء ، فقد رأينا أن أعداء الإسلام تجمعوا ضد الإسلام ، فمن اللازم

---

(١) انظر كتاب اليهودية من سلسلة مقارنة الأديان للمؤلف ص ٧٢ و ٩٢ .
وانظر كتاب : الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام واستمرارها حتى الآن . للمؤلف .

أولا أن يتجمع المسلمون ويوالى بعضهم بعضاً ، وثانياً ألا تكون هناك موالاة بين المسلمين وبين أعدائهم ، وعن موالاة المسلمين بعضهم لبعض يقول الله تعالى :

— والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض [١] .

— إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض [٢]

وتجمّع المسلمين شيء طبيعى فى مواجهه التجمع الذى اتخذ أساسه معارضةَ الإسلام ومحاربة المسلمين ، ولا شك أن الخروج على هذا التجمع يعتبر ثغرة فى الإيمان ونقصاً ينبغى تداركه . ونقصد بالخروج على هذا التجمع عدم الاستجابة للتعاون مع المؤمنين ، أما إذا وصل الخروج إلى موالاة الأعداء فذلك خروج على قانون الإسلام ، أو ارتداد عن الإسلام نفسه ، ولنستمع الى قوله تعالى فى ذلك :

— لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ومن يفعلْ ذلك فليس من الله فى شىء ، إلا أن تتقوا منهم تقاة ، ويحذركم الله نفسه ، وإلى الله المصير [٣] .

— يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء ، بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين [٤] .

— يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ، ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون [٥] .

---

(١) سورة التوبة الآية ٧١ .
(٢) سورة الأنفال الآية ٧٢ .
(٣) سورة آل عمران الآية ٢٨ .
(٤) سورة المائدة الآية ٥١ .
(٥) سورة التوبة الآية ٢٣ .

— لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو عشيرتهم [1].

— يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة ، وقد كفروا بما جاءكم من الحق [2] .

وسار المسلمون فى عصور الإسلام الزاهرة فى ضوء هذه التعليمات ، فتنكروا لوشائج القربى وصلات النسب عندما تعارضت مع الدين وموالاة المسلمين ، حتى كان الواحد منهم يقف يصارع آله ويضرب ذوى رحمه لأن الدين عنده أصبح أقوى من كل رحم وأسمى من كل نسب ؛ ففى غزوة بدر وقف أبو عبيدة بن الجراح يحارب مع المسلمين ووقف أبوه فى جيش قريش ، وحاول الأب أن يضرب ابنه مرة ومرة ، وكان الابن يفر من الضربات ويتفاداها ، ولكن عندما استحكمت الحلقات ووجد أبو عبيدة نفسه على أن يختار إحدى اثنتين : إما أن يضرب أباه ، وإما أن يخذل عقيدته ، وآثر الأولى وأغمد سيفه فى أبيه فقتله ، وتساقطت دموعه ، لا حزناً على أبيه ، ولكن إشفاقاً عليه لموته على الكفر . وفى نهاية هذه الغزوة أيضاً كان من رأى عمر أن يقتل الأسرى ، وصاح بالرسول أعطنى آلى لأقتلهم ، وأسلم العباس لأخيه حمزة ليقتله ، ولولا مزيد من الرحمة عند الرسول لكان ما أراد عمر [3] .

تطهير الجيش من عناصر الخذلان :

ويرتبط بهذا الموضوع موضوع آخر شديد الصلة بدراسة نفسية المجاهد والاطمئنان على طهارته وإخلاصه ، والقرآن الكريم يحذر المسلمين أن توجد فى جيوشهم عناصر الفتنة والخذلان ، يقول تعالى فيهم :

---

(1) سورة المجادلة الآية ٢٢ .
(2) سورة الممتحنة الآية الاولى .
(3) انظر قصة أسرى بدر فى كتاب المجتمع الاسلامى للمؤلف .

« لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبـالا ، ولأوضعوا خلالكم ، يبغونكم الفتنة » [١] .

فمثل هذه العناصر تكون شديدة الضرر معدومة النفع ، وقد وُجِدت هذه العناصر فى عهد الرسول صلوات الله عليه ، وحاولت هذه العناصر إيقاع الفتن والهزائم بجيش المسلمين ، وجاءت فيهم آيات الذكر الحكيم قال تعالى : « وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا » [٢] .

وإذا كان ذلك قد حدث فى عهد الرسول ، فإن الإسلام يحذر القادة من أن يحدث هذا الآن ، فقد كان الوحى يكشف للمسلمين انحراف هؤلاء ، ولا حماية للمسلمين الآن إلا باهتمامهم وعمق فحصهم للجنود ، واطمئنانهم للإخلاص الجم الذى يشمل جميع عناصر الجيش .

الاستعداد بالقوة :

رأينا أن موالاة الأوليـاء ومعاداة الأعداء تُعَدُّ الخطوة الأولى للاستعداد للجهاد ، وتجىء بعد ذلك الخطوة الثانية التى وضحتها الآية الكريمة « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله وعدوكم . وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون » [٣] والناظر فى هذه الآية الكريمة يجد صوراً رائعة من الحكمة ومن سياسة الحرب ؛ وأول ما نلحظه أن الاستعداد فى هـذه الآية شمل ناحيتين إحداهما القوة ، وقد جاءت هكذا مجملة ، والثانية رباط الخيل وهى تقابل الاستعدادات الحربية فى عهدنا الحديث ، أما حديث القوة فليس مقصوراً على القوة الحسية فقط ، وإنما يمتد كذلك إلى القوى المعنوية ، قوة العلم وقوة النفس والقلب ، فكل هذه الطاقات يجب أن تحشد عند المسلمين لتؤدى دورها

---

(١) سورة التوبة الآية ٤٧ .
(٢) سورة الأحزاب الآية ١٢ .
(٣) سورة الأنفال الآية ٦٠ .

فى حراسة الأهداف الوطنية والقيم العليا ، ونحظ بعد ذلك شيئا مهما فى الآية هو أن قوة النفس وقوة العدة قد يسببان السلامة بما يبعثانه من رهبة فى قلوب الأعداء ، والقرآن الكريم بذلك يقرر بوضوح تلك القاعدة التى يقول بها القادة العسكريون فى عهد الحاضر ، وهى أن الاستعداد للحرب قد يمنع الحرب ويحقق السلام ، وفى الآية كذلك إبراز لحقيقة ينبغى ألا تخفى على المسلمين ، وهى أن أعداءهم كثيرون ؛ منهم من يعلن عداوته ومنهم من يكتمها ، وتختتم الآية بوعد من الله أن يوفى من أنفقوا فى سبيل الله جزاء ما قدموا .

ونعود الحديث عن القوة لنقرر أن القرآن الكريم لا يهتم بالكم بقدر ما يهتم بالكيف ، فإعداد جماعة ولو صغيرة إعدادا شاملا على النحو الذى وصفناه والذى سنصفه فى هذا البحث ، أعظم من الكثرة التى ينقصها الإعداد النفسى والبدنى والفكرى ، وفى ذلك يقول الله تعالى « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » (١) ، وقد روى أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : إنى لأخشى أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها . قالوا : أمن قلة نحن يومئذ يا رسول الله ؟ قال : لا ، بل أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل ، والرسول بهذا يحذر من الضعف والتهاون إذ لا يجدى مع الضعف كثرة .

الذين يخافون القوة أكثر من خوفهم من الله :

ومعنا آية كريمة نرد بها على المسلم الضعيف الذى يلجأ للاتكال ، ولا يعمل على تقوية نفسه ، تلك هى قوله تعالى « لأنتم أشد رهبة فى صدورهم من الله » (٢) ومعنى هذا أن العدو يهاب القوة أكثر مما يهاب الله لأنه لا يعرف الله ، ولأن القوة شىء مادى يراه ويحدث فى نفسه الاضطراب والقلق ، ولكن الله تعالى لا يراه إلا العاقلون المؤمنون .

---

(١) سورة البقرة الآية ٤٩ .

(٢) سورة الحشر الآية ١٣ .

ولنختم هذه القضية بآية ذكرناها من قبل هى قوله تعالى : « ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة »[١] وقد ربطها أكثر المفسرين بالحرب وقالوا إن التهلكة فى الآية معناها البخل بالقليل من الأنفس والأموال ويترتب على هذا ، تهلكة عامة وضياع الكثير من الأنفس والأموال ، فالأمة التى لا تستعد ولا تضحى ببعض مالها وبعض رجالها تجلب الذلة والفناء لكل الرجال وكل الأمــوال .

عون الله والصراع بين المسلمين وغير المسلمين :

نذكر هنا نقطة مهمــة تخطر ببال بعض المسلمين أو تَرِدُ على ألسنتهم ، وهى أن هؤلاء يريدون أن ينصرهم الله دون أن يتخذوا الأهبة لذلك النصر ، وعلى هؤلاء تردُ الآية الكريمة « ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ، ولكن ليبلو بعضكم ببعض »[٢] ويقول المفسرون فى شرح هــذه الآية : إن الله لو شاء لانتقم من الكافرين وهزمهم بأية وسيلة ولو بدون قتال ، ولكنه سبحانه شرع الجهــاد ليختبر المؤمنين ويكافىء استجابتهم لتعاليمه ، وليدركوا أن الله رتب المسببات على أسبابها ، فهو يريد من المسلمين أن يبذلوا الجهد والاستعداد ويستعملوا الحكمة دون تقصير ، فإن لم يفعلوا ذلك استحقوا الهزيمة ، وإن فعلوا ذلك كان الله معهم وحقق نصرهم ، قال تعالى « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »[٣] وقال « ولينصرن الله من ينصره »[٤] .

وهناك آية كريمة يجدر بنا أن نوردها هنا لأنها تلقى مزيداً من الضوء على هذه المسألة ؛ وهى قوله تعالى « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفســك وحرّض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الــذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا »[٥] ففى هذه الآية الكريمة عدة نقاط هى :

---

(١) سورة البقرة الآية ٩٥ .
(٢) سورة محمد الآية الرابعة .
(٣) سورة محمد الآية السابعة .
(٤) سورة الحج الآية ٤٠ .
(٥) سورة النساء الآية ٨٣ .

أولا : التزام الرسول بالجهاد فى سبيل الله وإن تخلى عن الجهاد بعض المنافقين أو المقصرين ٠

ثانياً : تحريض المؤمنين على الاشتراك فى الجهـاد لينـالوا رضى الله وثوابه ٠

ثالثاً : تبْرِزُ الآية أملا مهما هو أن يكف الله بأس الذين كفروا وأن يكتب عليهم الهزيمة إذا استجاب المؤمنون لدعوة الجهاد ٠

رابعاً : تقرر الآية أن قوة الله لاتَعْدِلُها قوة ، وبأسه لا يدانيه بأس ، وعلى هذا فعندما يمنح الله قوته وتأييده لمن يستحقه ، يتحتم أن ينال النصر المبين ٠

الجهاد المشروع وأسبابه

عند حديثنا عن آيات الجهاد فى سورة البقرة شرحنا ما اتصل بهذه الآيات من أسباب الجهاد ، ونريد هنا أن نعرض لأسباب الجهاد كلها ، وأن نوضح مشروعية الجهاد إيضاحاً شاملا .

والظلم والعدوان طبيعة البشرية منذ حلت البشرية على الأرض ، وقد وضَّح القرآن الكريم طبيعة هذا الظلم بقوله : إن الإنسان لظلوم كفار » [١] وقوله عن الإنسان : « إنه كان ظلوماً جهولا » [٢] وجاءت الأديان تهذب هـذه الطبيعة وتعمل على تقويمها وتدعو الناس للتعاون والمسالمة ، وتضع القوانين التى تضمن العدالة ولكن أكثر الناس نفروا من الأديان ، والذين اعتنقوها حرَّفوها لتلائم طباعهم ، وجاء الإسلام وحفظ الله كتابه الكريم من التحريف قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون » [٣] وفى هذا القانون الخالد تنظيم دقيق للجهاد ، وتحديد لأسبابه وأهدافه ، ومحاولة لجعل الجهاد وسيلة سلام إذا عجز السلام المحض أن يمنح البشرية الأمن والسلامة ، فعلى مر التاريخ لم يسعد قوم إلا بعد أن دافعوا عن أنفسهم وأثبتوا لمن حولهم أنهم يستطيعون حماية الذمار والدفاع عن الدار ، حتى لقد ارتبط عزُّ الأقوام بجهادهم ، ولا يمكن أن يبدأ عزٌّ قبل أن تكون الدماء والكفاح أهم دعائمه ، ولنسر مع كتاب الله الكريم لنرى الأسس التى رسمها لهذا الموضوع الخطير .

وأول ما يُعنى به الفكر الإسلامى ألا تكون هناك حرب قبل أن تسبقها دعوة سلام ، فقد ثبت أن الرسول عليه السلام كان اذابعث سريَّة قال لأميرها : إذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى الإسلام ، فإن أبوا فادعهم لإعطاء الجزيـــة ، فإن أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

---

(١) سورة ابراهيم الآية ٣٤ .

(٢) سورة الأحزاب الآية ٧٧ .

(٣) سورة الحجر الآية التاسعة .

وإذا كانت الدعوة للإسلام نوعا ضرورياً للتعريف به فى العهد الإسلامى الأول ، فإن أغلب الباحثين يرون أن تسبق الدعوة الجهاد فى عهدنا الحاضر أيضاً ، ولكنها دعوة للعدالة وتعهد للتعايش السلمى وعدم الجور على المسلمين ، فإن أبى المعتدون فالجهاد حكم بين المسلمين وبينهم [١] ، ولم يكن الجهاد قط وسيلة لفرض الإســلام ، ومن الجهالة أن يدعى ذلك ، لسبب واضح تماما هو أن العقائد لا تستقر بالإكراه .

ويتحتم على المسلمين أن يخوضوا المعارك ويجاهدوا عند حدوث سبب من الأسباب الآتية :

أولا : عند الدفاع عن المسلمين ضد أى عدوان يقع عليهم ، قال تعالى :

— وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين [٢] .

— إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الـــدين ، وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم ، أن تولوهم ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون [٣] .

— فإن لم يعتزلوكم ، ويلقوا إليكم السلم ، ويكفوا أيديهم ، فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم ، وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطاناً مبيناً [٤] .

— أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله على نصرهم لقدير . الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله [٥] .

---

(١) الأستاذ الشيخ محمد ابو زهرة : تنظيم الاسلام للمجتمع ص ٤٩ .
(٢) سورة البقرة الآية ١٩٠ .
(٣) سورة المتحنة الآية التاسعة .
(٤) سورة النساء الآية ٩١ .
(٥) سورة الحج الآية ٣٨ — ٣٩ .

— فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم (١) .

هذا وقد اعتاد الفقهاء المسلمون أن يفرقوا فى الدفاع بين الحق والواجب ؛ فيرون أن الدفاع واجب عن النفس والعرْض والحيوان والودائع من الأموال ، ففى كل هذا يصبح الدفاع واجباً ، ويلتزم المسلم بأن يدافع عن نفسه ، وعن أهله ، وعن مال الغير المودَع عنده ويدخل فى ذلك دفاع رجال القوات المسلحة عما بأيديهم من سلاح وما أُلزموا بحراسته من أرض الوطن ، لأن هؤلاء أمناء على ما فى أيديهم من العتاد الحربى ومن الأجهزة بكل أنواعها ، فهى ليست مملوكة لهم ، انما هى مملوكة للدولة وهم مسئولون عنها ، ومن ثَمَّ فهم مكلفون بالذود عن كل هذه الأشياء حتى آخر رمق ، والدفاع عنها واجب .

ولكن إذا كان العدوان على مال مملوك للمعتدَى عليه ، فإن الدفاع يصبح حقاً لصاحب المال ، فيجوز له أن يقوم بالدفاع عن هذا المال أو أن يتخلى عنه ، لأن المال ماله وله أن يتنازل عنه ، بيد أنه إذا كان التنازل عن هذا المال يسبب ضعف الجبهة الداخلية وتقوية العدو فإن الدفاع عنه يصبح واجباً (٢) .

ثانياً — عند الدفاع عن المظلومين من المسلمين الذين يعيشون تحت سلطان دولة جائرة غير مسلمة ، فإذا إعتُدِىَ على هؤلاء كان على المسلمين فى كل البقاع أن يهبوا لنجدتهم وأن يرفعوا الضيم عنهم ، قال تعالى : « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أَخْرِجْنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولياً واجعل لنا من لدنك نصيراً » (٣) . ولا يجوز للمسلمين

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٤ .

(٢) انظر بداية المجتهد لابن رشد . والمحلى لابن حزم ، وانظر كذلك مقالا للمستشار احمد موافى بعنوان « القانون الاسلامى للحرب » فى منبر الاسلام (رجب ١٣٧٨) .

(٣) سورة النساء الآية ٧٥ .

أن يتركوا أبناء دينهم يعيشون فى ضيم ينزله بهم عدو الإسلام ، والآية واضحة الدلالة على أن القرآن يستثير همم النفوس الكبيرة لترد هذا العدوان الأثيم .

ثالثاً : عند الاضطهاد الدينى وعدم حرية التدين ، قال تعالى :

- **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين (١) .**

- **وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فإن انتهوا فإن الله بما تعملون بصير ، وإن تولوا فاعلموا أن الله مولاكم نعم المولى ونعم النصير (٢) .**

وهكذا وضّحت هذه الآيات أن الجهاد واجب فى هذه الحال حتى تصبح حرية الأديان حقيقة لا تشوبها شائبة ، وهكذا يتحقق أن الحروب التى خاضها المسلمون لم تكن لحمل الناس على الإسلام وإنما لوقف إكراه الناس على عدم الدخول فيه ، وأوضح دليل لذلك أن المسلمين سمحوا لغير الإسلام بالبقاء فى البلاد التى سيطروا عليها ، ويقول ابن تيمية : وإذا كان أصل القتال المشروع وهو الجهاد بقصد أن يكون الدين كله لله وأن تكون كلمة الله هى العليا ، فَمَنْ منع ذلك قوتل باتفاق المسلمين (٣) .

وعلى هذا فينبغى أن ينشط المسلمون فى كل زمان ومكان للدعوة للإسلام ، فإن مُنِعوا من ذلك أو مُنِع من يريد أن يعتنق الإسلام من اعتناقه ، كان لزاماً أن تَرُدّ القوة هذا المنع ، وأن يُفْسَح السبيل للدعوة وحرية التدين ، والجهاد حينئذ لمنع الحواجز والعوائق التى تحول دون توصيل الدعوة للناس أو تحول دون اعتناقهم لها بعد الاقتناع بها .

---

(١) سورة البقرة الآية ١٩٣ .
(٢) سورة الأنفال الآيتان ٣٩ — ٤٠ .
(٣) السياسة الشرعية فى إصلاح الراعى والرعية ص ١٨ .

وقد سبق أن بينّا عند الكلام عن سورة البقرة أن الحروب الإسلامية ينبغى أن تكون فى سبيل الله وألا يقصد بها الحصول على غنيمة أو رفع الذكر بالشجاعة ، ونضيف هنا أن مراجعة كتاب الله تثبت أن التعبير (فى سبيل الله) ورد مرتبطاً بالجهاد والقتال اثنتين وثلاثين مرة ، ولا يكاد أمر" بالقتال أو الجهاد يخلو من هذا التعبير ، مما يوضح تلك الحقيقة التى أشرنا إليها من قبل ، وفى كتاب الله كذلك آيات تؤدى نفس المعنى مثل قوله تعالى : « وجاهدوا فى الله حق جهاده » [1] . بل إن القرآن الكريم يضمن نصر الله لمن قاتل فى سبيله ، مخلصاً وجهه إليه ، قال تعالى :

— ولينصرن الله من ينصره [2] .

— وكان حقاً علينا نصر المؤمنين [3] .

— يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم [4] .

وعلى هذا فإن المسلمين إذا هزموا فى معركة ينبغى أن يراجعوا أنفسهم ، ليعرفوا أخطاءهم التى حرمتهم النصر ، ومنعت عنهم عون الله .

وننتقل إلى نقطة أخرى فى حديثنا عن الجهاد المشروع فى الإسلام ، هى أن هذه الحروب ينبغى أن تكون حروباً فيها نبل" وعفة وكرم ، فلا يُقْتَل فيها إلا من يقاتل بنفسه أو بتدبيره ، أما الرجال الذين لا يشتركون فى المعركة بطريق مباشر أو غير مباشر ، فلا تمتد لهم يد بأذى ، والآيات التى أوردناها توضح هذا المعنى مثل « قاتلوا فى سبيل الله **الذين يقاتلونكم** » .

ويرى ابن حزم [5] أنه يجوز فى غير المقاتلين الوجهان أى أن يُقْتَلوا أو أن يُستبقوا ، وقد بنى رأيه على أن هؤلاء يقدمون العون أرادوا أو لم يريدوا للمقاتلين ، وأن القضاء عليهم إضعاف لشوكة العدو ،

---

(١) سورة الحج الآية ٧٨ .
(٢) سورة الحج الآية ٤٠ .
(٣) سورة الروم الآية ٤٧ .
(٤) سورة محمد الآية السابعة .
(٥) المحلى ج ٢ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ .

وبناء على هذا التعليل يصبح رأى ابن حزم جديراً بالقبول ، وبخاصة إذا ظهر عون هؤلاء للمقاتلين ولو بطريق غير مباشر .

أما الآيات التى فيها إطلاق القتال للكفار كقوله تعالى : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » [١] وقوله : « يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة » [٢] وكذلك الأحاديث المماثلة كقوله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإن قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ، فقد قرر جمهور المسلمين أن المراد بهؤلاء مشركو العرب ، فلهؤلاء حكم خاص لخطورتهم على المجتمع الجديد ، ويدل على ذلك كلمة « يلونكم » فى الآية السابقة والمراد بها يجاورونكم ، ويرى بعض العلماء أن المراد بالمشركين والكفار هنا هم المحاربون والمعتدون [٣] .

---

(١) سورة التوبة الآية الخامسة .

(٢) سورة التوبة الآية ١٢٣ .

(٣) الأستاذ الشيخ محمود شلتوت : الاسلام والعلاقات الدولية ص ٣٧ — ٣٨ .

وانظر بداية المجتهد لابن رشد جـ ١ ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

الفكر الإسلامي
ومشكلات المعركة

ذكرنا من قبل أن الاستعداد للحرب قد يمنع الحرب ، ولكن المعركة قد تقع على أى حال ، ومن هنا لزم أن نتحدث حديثاً مفصلا عن نقاط متعددة تتصل بالمعركة وميدان القتال :

حكم الجهاد

إن الآية الكريمة التى أوردناها آنفاً عند الحديث عن سورة البقرة وهى « كتب عليكم القتال وهو كره لكم » تبين بوضوح ضرورة القتال لحماية المجتمع الإسلامى ، وأن الله سبحانه وتعالى قد فرضه على الناس لصالح الناس ، وهناك آيات أخرى تزيد الموضوع وضوحا وتبين أبعاد هذا الواجب ، وهى قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ، إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شىء قدير ... انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون »[1] ويجدر بنا أن نتعرف على أسباب نزول هذه الآيات وعلى موجز لأقوال المفسرين عنها ، لندرك أسباب التثاقل من جهة ، وعقوبته من جهة أخرى ، وماذا يجب على المسلمين أن يفعلوا من جهة ثالثة يقول المفسرون إن هذه الآيات نزلت فى غزوة تبوك ، وكان المسلمون قد أمروا بالخروج لهذه الغزوة بعد رجوعهم من غزوة حنين والطائف ، وكان الوقت عسرة فى المال ووقت حصاد ، وكان وقت قيظ شديد ، ثم كانت الشقة بعيدة ، والعدو أكثر عدداً وعدة ، وكل هذا جعل بعض المسلمين يتثاقلون ولا يستجيبون للغزوة بحماسة ، فنزلت هذه الآيات توبخ وتهدد وتنذر ، مؤكدة أن هذه الدواعى وأكثر منها ينبغى ألا تحول دون الاستجابة لولى الأمر لمواجهة أعداء الإسلام ، وتقرر هذه الآيات بضع نقاط جديرة بأن نبرزها هى :

---

(١) سورة التوبة الآيات ٤٠ — ٤٣ .

أولا — أن الارتباط بالمادة وبالدار والولد وعدم خوض المعارك حُبًّا لها يعود بالوبال عليها جميعاً ؛ ثم إنه إن ضمن نعيم الدنيا فترة من الزمن فإنه يُحْرَم نعيم الخلود الذى لا يقاس به نعيم الدنيا ولا ما فيها من متع •

ثانيا — تهدّد الآية الثانية المتثاقلين تهديداً قاسياً ، يشمل فى الدنيا أن يُستبْدَل بهم غيرهم ، ويشمل العذاب الأليم فى الآخرة •

ثالثا — تقرّر الآية الأخيرة أمراً واضحاً هو أن الاستجابة للنفير بنشاط وحماسة أمر واجب مهما كانت المشقة أو الأعذار ، ويرى أن ابن أم مكتوم سأل الرسول عقب هذه الآية : هل علىَّ أن أنفر ؟ قال : نعم • ثم نزل قوله تعالى « ليس على الأعمى حرج ••• » [١] وتقرر هذه الآية كذلك أن الجهاد ينبغى أن يكون بالنفس والمال كليهما أو أحدهما ، وأن هذا الجهاد خير للمسلمين فى دنياهم وآخرتهم [٢] •

وقد عرض الفقهاء لحكم الجهاد وفصّلوا القول فيه ، وتكاد آراء المذاهب كلها تجمع على النقاط التالية :

والجهاد فرض كفاية ، بمعنى أنه إذا قام به من يكفى لحمل عبئه سقط الفرض عن الباقين ، لقوله تعالى « وما كان المؤمنون لينفروا كافة » [٣] ولم يخرج الرسول قط للغزو إلا وترك بعض الناس لرعاية مصالح المسلمين ، إذ لا يمكن أن يخرج الجميع للجهاد ، بل يتحتم أن يبقى عدد من الناس يفلحون الأرض ، ويباشرون التجارة ، ويعدون السلاح والطعام للجند ، ويحرسون الجبهة الداخلية ، ويقومون على البناء والعمران •

وهناك طوائف محددة أعفاها الإسلام من الجهاد ، قال تعالى :

---

(١) سورة الفتح الآية ١٧ •

(٢) انظر الفخر الرازى والقرطبى وسواهما من المفسرين •

(٣) سورة التوبة الآية ١٢٢ •

« ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج »(١) وقوله « **ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج** »(٢) ولو احتاج الأمر للأعمى فيما يكفى فيه السمع مثلا وللأعرج فيما لا يؤثر فيه العرج وجب على كل منهما أن يسهم بما يستطيع ، كما أن الذى لا يجد ما ينفق يلتزم بالغزو إذا كُفِيَ مئونة الإنفاق ، والأجر لمن جاهد ولمن عمل ليساعد المجاهد ، فقد روى عن الرسول قوله : لينبعث من كل رجلين أحدهما والأجر بينهما (٣) .

ويصبح الجهاد فرض عين فى الأحوال الآتية :

١ — إذا عَيَّن ولى الأمر أناساً للخروج ، فيجب عليهم أن يستجيبوا ولا يغنى عنهم سواهم ، يقول ابن حزم : ومن أمره الأمير بالجهادّ إلى دار الحرب ففرض عليه أن يطيعه فى ذلك ، لقوله صلى الله عليه وسلم : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد" ونية ، وإذا استنفرتم فانفروا (٤).

٢ — إذا دخل العدو أرض المسلمين ، فإنه حينئذ يتعين على الجميع أن يهبوا لملاقاته ودفعه لا فرق بين رجل وامرأة ، ولا بين خادم ومخدوم ، ويرتبط هذا الواجب بأهل المحلة التى نزلها العدو أولا ، ويمتد لمن جاورهم إذا احتاجوا لعونه ، وللمسلمين كافة إذا لزم الأمر ، فتخرج المرأة بدون إذن زوجها ، والعبد بدون إذن سيده ، والولد من غير إذن والديه والمدين بدون إذن دائنه (٥) . ومثل هـذا ما ورد فى « بلغة السالك لأقرب المسالك » فقد ورد النص التالى : ويتعين الجهاد بهجوم العدو على محلة قوم ، فيتعين عليهم وعلى من بقربهم إن عجزوا ، ويتعين على المرأة والرقيق والمدين مع هـذه الحالة ولو منعهم الزوج والسيد والدائن ، ولا يعفى من الجهاد إلا من له أبوان شيخان يضيعان لو تركهما هـذا

---

(١) سورة التوبة الآية ٩١ . (٢) سورة الفتح الآية ١٧ .

(٣) ابن رشد : بداية المجتهد جـ ١ ص ٣٩١ .

(٤) المحلى : جـ ٧ ص ٢٩١ .

(٥) مجمع الأنهر فى شرح ملتقى الأبحر .

الابن ، فقد روى معاوية بن جاهمة قال : أتيت رسول الله فقلت له : يا رسول الله ، إنى كنت أردت الجهاد معك أبتغى بذلك وجه الله والدار الآخرة ولكن أمى ... فقاطعه الرسول قائلا : ويحك ! أحية أمك ؟ قلت : نعم . قال : ارجع فبرّها (١) .

والسبب فى عموم الجهاد آنذاك أن تقدم العدو فى دار الإسلام يهدد الإنسان والزرع والضرع والتجارة ، ولا يغنى شىء مع تقدم العدو ، وإذا استمر هذا التقدم كان هذا الثراء خاضعاً لسلطانه ، وعلى هذا فلا معنى للاهتمام بعمران ديار لا يطمئن المسلمون على سلطانهم بها ، فلا بد أن يدفعوا عنها هذا العدو الآثم بأكبر قوة ممكنة ، وأن تتكتل الجهود لذلك ، وبعد النصر تعود الأيدى للبناء والتعمير .

---

(١) بلغة السالك لأقرب المسالك الجزء الثانى : باب الجهاد .

المرأة والجهاد

وبمناسبة الحديث عن خروج المرأة للجهاد إذا دخل العـدو أرض المسلمين ، نذكر كلمة عامة عن المرأة والجهاد فى الإسلام •

ويتجه الفكر الإســلامى إلى أن المرأة تدخل المعارك بالرجال من أهلها ، فهى تـُعِدُّهم للوغى وتشجعهم عليه ، وتحمل العبء فى غيبتهم ، وتنال بذلك نصيبها من الثواب ، فقد ورد فى ترجمـة أسماء بنت يزيد الأنصارية فى الاستبصار أن رفيقات لها بعثن بها للرســول لتقول له : إن الرجال يخرجون للجهاد ، ويشهدون الجنائز ، ونحن فى البيوت نحفظ لهم الأموال ونربى الأولاد ، فهل نشاركهم فى الأجر ؟

فقال الرسول : يا أسماء ، أعلمى مَنْ وراءك من النساء أن حسن تَبَعُّل إحداكن لزوجها ، وطلبها مرضاته تعدل كل ما ذكرت •

هذا جانب من الجهاد ، ولكنَّ هناك جهادا مباشرا ، فقد ثبت أن بعض النســاء كنَّ يصحبن الجيوش فى عهد الرسول وعهـد الخلفاء الراشدين ، وكن يداوين الجرحى ويخدمن الجيش ، وكنّ يأخذن قسطاً من الغنيمة ، وتقول Mugannam [١] فى ذلك « إن النساء المسلمات قمن فى الحروب الإسلامية بالدور الذى تقوم به فى العهد الحاضر منظمات الصليب الأحمر » فيروى أن أمية بنت قيس الغفارية قالت : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نسوة من بنى غفار فقلنا : يا رسول الله ؛ قد أردنا أن نخرج معك إلى وجهك هذا — وهو يسير إلى خيبر — فنداوى الجرحى ونعين المسلمين بما استطعنا • فقال : على بركة الله [٢] •

وتقول الربيع بنت معوذ : كنا نغزو مع الرسول فنسقى القــوم ونخدمهم ونداوى الجرحى ، ونرد القتلى والجرحى إلى المدينة [٣] •

---

(١) The Arab Wonmen p. 25.

(٢) ابن حجر : الاصابة ٤ : ٥٨٥ •

(٣) ابن هشــام ٢ : ٢٤٣ •

واشتركت المرأة المسلمة أحياناً فى الحرب اشتراكا فعلياً ، ومن هؤلاء أم عمارة الأنصارية التى قاتلت ببسالة يوم أحد ودافعت عن الرسول دفاعا يصوره قوله عليه السلام : ما التفتُّ يميناً أو شمالا إلا رأيت أم عمارة تقاتل دونى ... [١] .

وقاتل يوم اليرموك نساء من نساء المسلمين قتالا شديداً ، وجعلت هند بنت عتبة تقول : عضّدوا الرجال بسيوفكم [٢] . وكانت جويرية بنت أبى سفيان مع زوجها فى حومة الوغى [٣] .

وفى موقعة صفين كان يتميز جمل أحمر تركبه الزرقاء بنت عدى الهمدانية وهى توقد الحرب وتحض شيعة علىٍّ على القتال قائلة : أيها الناس إن المصباح لا يضىء مع الشمس ، ولا تنير الكواكب مع القمر ، ولا يقطع الحديد إلا الحديد ... إيها فى الحرب قدماً غير ناكصين ولا متشاكسين .

وقد استدعاها معاوية أيام خلافته فسيِّرتْ إليه فقال لها : والله يا زرقاء . لقد شركت علياً فى كل دم سفكه ، قالت : أحسن الله بشارتك . قال : أو يسرك ذلك ؟ قالت : نعم والله . فضحك معاوية وقال . والله لوفاؤكم له بعد موته أعجب من حبكم له فى حياته . ثم سألها أن تذكر حاجتها . فقالت : يا أمير المؤمنين آليت على نفسى ألا أسأل أميراً أعنتُ عليه أبداً [٤] .

---

(١) انظر الحديث عنها فى موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف ج ١ ص ٣١١ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ١٤١ .

(٣) الطبرى : ٢١٠٠ — ٢١٠١ .

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ١ : ٢١٢ .

— وفى نفس المعركة كانت عكرشة بنت الأطرش متقلدة حمائل السيف تقاتل أهل الشام وتحث قومها على الجهاد والنضال [١] .

— وفى سنة ١٢٩ هـ غزا صالح بن على والعباس بن محمد بلاد الروم ووغلا فيها وغزا مع صالح أختاه أم عيسى ولبابة [٢] .

وشهدت الشاعرة المشهورة الخنساء معركة القادسية ، وكان معها بنوها الأربعة ، وكانت تحرضهم على القتال ، وقد سقطوا جميعاً الواحد بعد الآخر ، فلما علمت باستشهادهم قالت : الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم : وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته .

* * *

وهكذا نجد للمرأة المسلمة أدواراً متطورة فى المعارك ، ونجدها بطلة فى كل دور من هذه الأدوار .

(١) المرجع السابق ا : ٢١٥ .
(٢) ابن الأثير ٥ : ٣٧٢ .

فضل الجهاد والاستشهاد

فى الحديث عن فضل الجهاد يمدنا القرآن الكريم بأروع المعانى ، قال تعالى :

— فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيما (١) .

— إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة ، يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعداً عليه حقاً فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به ، وذلك هو الفوز العظيم (٢) .

— يأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار ، ومساكن طيبة فى جنات عدن ذلك هو الفوز العظيم ، وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين (٣) .

وهذه الآيات واضحة الدلالة على فضل الجهاد فى الدنيا والآخرة ، ولا بأس أن نقتبس فقرات قليلة من بعض المفسرين تعليقاً على هذه الآيات الكريمة ، فعن الآية الأولى منها يقول المفسرون إن القرآن الكريم يحث الناس على أن يستبدلوا الخالد بالفانى ؛ وفى الآية تنبيه على أن المجاهد ينبغى أن يثبت فى المعركة حتى يعز نفسه بالشهادة أو يعز الدين بالظفر والغلبة .

---

(١) سورة النساء الآية ٧٤ .
(٢) سورة التوبة الآية ١١١ .
(٣) سورة الصف الآيات ١٠ — ١٢ .

وعن الآية الثانية يقول المفسرون إن الآية تمثيل للمثوبة العظمى التى منحهم الله إياها وهى الجنة ، بسبب بذلهم أنفسهم وأموالهم فى سبيل الله وفى الآية كذلك تأكيد لذلك بأنه وعد من الله ، وأنه ليس كالله فى الوفاء بعهده ، وتختتم الآية بالتبشير بالفوز العظيم الذى يجىء نتيجة لهذه الصفقة الرابحة .

وعن مجموعة الآيات التى اقتبسناها من سورة الصف تتكرر نفس المعانى ونفس الجزاء الأوفى الذى أعد للمجاهدين ، ولكن هذه الآيات تضيف جديداً إلى وعد الله ، هو الوعد بنعمة أخرى عاجلة محبوبة للناس وهى النصر فى الدنيا والأمن والسلامة ، وفى ذلك بشرى عظيمة لهم .

وفى أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم ، ثروة ضخمة عند الحديث عن فضل الجهاد ، ومن هذه الأحاديث نقتبس ما يلى :

— لغدوة أو روحة فى سبيل الله خير من الدنيا وما فيها .

— من اغبرت قدماه فى سبيل الله حرمه الله على النار .

— من قاتل فى سبيل الله فواق ناقة [1] وجبت له الجنة .

— إن أبواب الجنة تحت ظلال السيوف .

— رباط يوم فى سبيل الله خير مما طلعت عليه الشمس ، والروحة يروحها العبد فى سبيل الله خير من الدنيا وما عليها .

— من قاتل فى سبيل الله وجبت له الجنة ، ومن جرح جرحا فى سبيل الله أو قتل جاءت جراحه يوم القيامة لونها الزعفران وريحها المسك .

— من جهز غازياً فى سبيل الله كان له مثل أجره . من غير أن ينتقص من أجر الغازى شيئاً .

---

(١) فواق ناقة : مدة ما بين الحلبتين .

— رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه ، ومن مات فى سبيل الله جرى عليه بعد موته ثوابُ عمله الذى كان يعمله .

— عينان لا تمسهما النـــار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله .

وروى عن أحمد بن حنبل قوله : لا أعلم شيئاً من العمل بعد الفرائض أفضل من الجهاد ، ولا غرو أن كان الجهاد أفضل الأعمال بعد الفرائض لأنه استعداد للتضحية بأغلى ما يملكه الإنسان وهو النفس ، ثم إن أعمال البر كلها لا تتم إلا بعد السلامة من العدو وحماية البيضة ، فالجهاد حراسة للسور الضخم الذى يحمى المجتمع ، ولو انهار هذا السور انهار كل شىء ، ولم يعد هناك سبيل لجوانب الخير واتجاهات البر .

ومعنا قصة تاريخية ترينا مكانة الجهاد وأنه لا يعدله بعد الفرائض شىء ، فقد أعد الرسول مرة سرية من السرايا وجعل عبد الله بن رواحة قائداً لها وأمرها بالخروج إلى مكان حدده ، وكان ذلك يوم جمعة ، فقال عبد الله فى نفسه : إننى أستطيع أن أصلى الجمعة مع الرسول وألحق برفاقى فى الطريق . ونفذ عبد الله هذا الخاطر ، فأمر رجاله بالســير ، ووعدهم باللحاق بهم قبل وصولهم إلى الهدف .

ورآه الرسول — دون رفاقه — فى صلاة الجمعة ، فسأله : ما منعك أن تغدو مع أصحابك ؟ فأجاب : أردت أن أصلى الجمعة معك ثم ألحق بهم . فقال الرسول : « لو أنفقت مافى الأرض جميعاً ما أدركت غدوتهم » .

ويروى أن رجلا من أصحاب رسول الله مرَّ ذات يوم بعين ماء عذبة فأعجبته ، فأراد أن يقيم بجوارها يعبد الله . ويعتزل الناس ويقتات من النباتات التى تنبت حولها ، ثم قال لنفسه : لن افعل ذلك حتى أستأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له الرسول :

لا تفعل فإن مقام أحدكم فى سبيل الله أفضل من صلاته سبعين عاماً ،

الا تحبون أن يغفر الله لكم ويدخلكم الجنة : اغزوا فى سبيل الله ، من قاتل فى سبيل الله وجبت له الجنة •

ذلك هو فضل الجهاد ، فإن نال المجاهد الشهادة فهذك مزيد من الحديث عنه وعن ثوابه يقول الله تعالى :

— والذين قتلوا فى سبيل الله فلن يضل أعمالهم . سيهديهم ويصلح بالهم ويدخلهم الجنة عرفها لهم ، يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (١) •

— ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون (٢) •

— فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ، ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب (٣) •

— ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله : أموات • بل أحياء ولكن لا تشعرون (٤) •

— ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، فرحين بما آتاهم الله من فضله • ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولاهم يحزنون ، يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين (٥) •

وهكذا فصلت هذه الآيات هذا الموضوع تفصيلا واضحاً ، فذكرت أن أعمال الشهداء لا تضيع ولا تضل وإنما تصل إلى أهدافها وتحقق

---

(١) سورة محمد الآيات ٤ — ٧ . (٢) سورة آل عمران الآية ١٥٧ •

(٣) سورة آل عمران الآية ١٩٥ (٤) سورة البقرة الآية ١٥٤ .

(٥) سورة آل عمران الآيات ١٦٩ — ١٧١ •

غاياتها ، وأن الجنة تستقبلهم بعرفها وطيبها ، كما ذكرت أن ما يناله الشهيد خير مما يجمعه جامعو المال والراغبون فى حطام الأرض . ووعدت هذه الآيات بغفران سيئات الشهداء وبحسن ثوابهم ، ووضحت الآية الأخيرة أن الشهداء أحياء وليسوا أمواتاً ، وأنهم ينعمون بما لا ينعم به ولا ببعضه أحياء هذه الدنيا ، ويقول صلى الله عليه وسلم : من سأل الله الشهادة بصدق من قلبه ، بلغه الله منازل الشهداء ، وإن مات على فراشه . ويقول كذلك : ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا غير الشهيد ، فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل لما يراه من الكرامة .

وقد كان المسلمون الأوائل يسعون للجهاد لينالوا إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وكثيرون منهم كانوا يرون الشهادة أثمن وأفضل ، حتى بلغ من حرص المسلمين على الشهادة أن بعضهم كان يدخل المعركة وهو يدعو الله أن يقاتل ويجاهد وأن يقتل فى سبيل الله : يحكى التاريخ أنه فى بعض المعارك سقط أخ لعمر بن الخطاب ، ونجا من الموت عبد الله ابن عمر ، فعاد هذا إلى أبيه يقول له : سأل أخوك الشهادة فنالها وجهدت أن تساق إلىّ فلم أنلها .

وقبيل غزوة أحد التقى عبد الله بن جحش وسعد بن أبى وقاص ، فقال عبد الله لسعد : ألا تأتى فندعو الله ؟ فأجاب سعد : هلم لذلك ، وليذكر كل واحد منا حاجته فى دعائه وليؤمّن عليه صاحبه . فاستجاب سعد لذلك وانتحيا ناحية ، ودعا سعد فقال :

يارب ، إذا لقيتُ العدو غداً فارزقنى رجلا شديداً بأسه ، شديداً غضبه ، أقاتله فيك ، ويقاتلنى ، ثم ارزقنى عليه الظفر .

ودعا عبد الله فقال :

يارب ، ارزقنى رجلا شديداً بأسه ، شديداً غضبه ، أقاتله فيك ويقاتلنى ، ثم يقتلنى ....

وهكذا لم تكن نجاة الفرد أغلى من أن يستشهد فى سبيل الله .

ويروى التاريخ حادثة ترتبط بالآية التى أوردناها آنفاً وهى قوله تعالى : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم » فإن عمير بن الحمام كان يحارب قريشاً مع المسلمين فى غزوة بدر ، فأحس بالجوع ، فاعتزل المعركة ليأكل وأخرج من جرابه بلحات يهدىء بها حدة الجوع ، فسمع وهو يأكل قارئاً يتلو هذه الآية ، فتاق عمير للقاء ربه والتمتع بالجنة التى عرضها السموات والأرض ، ونظر إلى البلح الذى أمامه وقال : كيف يشغلنى هذا البلح عن لقاء الله ؟ لئن حييت حتى آكله إنها لحياة طويلة ، وألقى البلح عنه ، وأسرع إلى المعركة يخوض غمارها خوْض من لا يخاف ، فأبلى فيها بلاء حسنا ، وسقط فى النهاية وراح للقاء ربه كما تمنى ، بعد أن قضى بسيفه على الكثيرين [1] .

ومثل هذا ما يروى عن عبد الله بن رواحه ، فقد قاتل فى غزوة مؤتة بشجاعة نادرة ، ثم أحس بالجوع ، فانفلت يطلب ما يسدُّ به رمقه فأعطاه شخص قطعة لحم وقال له شُدَّ بهذه صلبك فإنك قد لقيت فى المعركة مالقيت ، فأخذها منه وقضم منها قضمة واحدة ثم رأى المعركة يحمى وطيسها فألقى بالطعام وهو يقول : ويح طعام يحول بينى وبين النصر أو الشهادة .

وفى الصراع ضد مسيلمة الكذاب تراجع مسيلمة ودخل حديقة عالية الأسوار قوية الأبواب واعتصم بها . وامتنعت أسوارها على المسلمين من جند خالد بن الوليد ، ووقف خلف الأسوار أتباع مسيلمة يدافعون عن الحديقة ، فتقدم البراء بن مالك وصرخ فيمن حوله من الجند : احملونى على هذا الترس برماحكم ، واقذفوا بى داخل الحديقة ، فإما أن أهلك وإما أن أفتح لكم باسم الله بابها فتندفقون منه إلى ملاقاة أعدائكم ، وحملوه على الترس ، وألقوا به فى الحديقة وراح

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد جـ ٢ ص ٨٨ .

يعالج فتح الباب ويدافع عن نفسه فى الوقت نفسه ضد الأعداء الذين تكالبوا عليه من أتباع مسيلمة ، واستطاع بعد جهد أن يفتح الباب فتدفق منه المسلمون ودارت بالحديقة معركة طاحنة سقط فيها الآلاف من الفريقين حتى سميت حديقة الموت (١) .

ومما يشرّف المصريين بوجه خاص والعرب والمسلمين بوجه عام أن **حرب السادس من أكتوبر سنة ١٩٧٣ أبرزت صوراً لا تقل مجداً وجلالا عن الصور التى شهدها عصر صدر الإسلام** ، فقد أثبتت الوقائع وقفات واندفاعات قام بها ضباط الجيش المصرى وجنوده تدعو للفخر والإعجاب ، نذكر منها نماذج قليلة لتدل على أن أبطالنا فى العهد الحاضر صورة من أبطال المسلمين فى الماضى ، وأن روح الإسلام تغذى مختلف الأجيال عبر القرون ، ومن هذه النماذج :

— أحد المقاتلين يلقى بنفسه فى حقل ألغام نشره العدو لتنفجر الألغام وتقضى عليه حتى ينفسح الطريق أمام رفاقه الزاحفين .

— بطل يطوّق وسطه بحزام من المتفجرات ، ثم يلقى بنفسه وسط تجمعات العدو ليقضى على نفسه وعلى الكثيرين منهم .

— أربعة من المقاتلين عبروا القناة ووجدوا أنفسهم أمام موقع حصين للعدو تنطلق نيرانه ، وعلى الفور اندفع واحد منهم إلى فوهة المركز وسده بجسمه فأتاح الفرصة لزملائه ليتقدموا لاقتحام الموقع والسيطرة عليه .

وفى كلمة موجزة ، لقد سجلت هذه المعارك بطولات أسطورية تعيد أمجادنا وتربط حاضرنا بماضينا .

ولا شك أن الذى يحرص على الشهادة وينالها ينال معها الخلود لنفسه ، فالنفس فانية على كل حال : قال تعالى « أينما تكونوا يدرككم الموت

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٢ ص ٤٤ .

ولو كنتم فى بروج مشيدة » [1] ومن شرف الإنسان أن يموت مجاهداً ليضمن لنفسه حسن الذكر فى الدنيا وحسن الأجر فى الآخرة ، وقد مات سيف الله المسلول خالد بن الوليد على فراشــه ، بعد أن خاض عــدداً كبيراً من المعارك ، وقد تحدث فى رقدته الأخيرة بأنه يموت على فراشه كما يموت البعير ، مع أنه ليس فى جسمه مكان خلا من طعنة رمح أو ضربة سيف ، وختم خالد حديثه بقوله : فلا نامت أعين الجبناء • ونحن فى أزمتنا للبطولة والشجاعة نهتف بهذا النداء : لا نامت أعين الجبناء •

ونختتم هذا الموضوع بإيراد بعض أحاديث الرسول التى تصف النقص الذى يلحق بالرجل الجبان الذى لا يجاهد ، والبخيل الــذى لا يبذل المــال للجهاد ، وسترينا هذه الأحاديث أن مثل هذا الرجل لن ينجو من الإيقاع به فى الدنيا وسيكون فيه ثلمة فى الآخرة ، قال صلى الله عليــه وسلم :

— من لم يغز ، أو لم يجهز ، أو لم يخلف غازياً فى أهله بخير ، أصابه الله تعالى بقارعة قبل يوم القيامة •

— من لقى الله وليس له أثر فى سبيل الله ، لقى الله وفيــه ثلمة (نقصان) •

---

(١) سورة النساء : الآية ٧٨ •

الرباط

يمتزج الرباط امتزاجاً وثيقاً بالجهاد ، ويُعَدّ جزءاً منه ، ومع هذا فيحسن أن نخصه بكلمة لأن بعض الناس يرون الجهاد هو الصراع العسكرى ودوران المعركة ، وقد يتوهمون أن الرباط لا يندمج فيه .

والرباط هو الوقفة التى يقفها جنودنا على الحدود يخيفون معسكر الشرك ويحمون حدود البلاد ، وقد جاء فى « الفتاوى الكبير » لابن تيمية أن الرباط هو وقفة الجند فى موضع لا يكون وراءه إسلام .

ولكن الأسلحة الحديثة تمتد بمكان الرباط ولا تكتفى بالحدود ، إذ لابد من وجود جماعة من المرابطين لحماية سماء البلاد ، وهؤلاء يعيشون فى المطارات بالقرب من طائراتهم ليطيروا بها عند اللزوم ليواجهوا طائرات العدو ، وقد تكون هذه المطارات داخل البلاد ، كما أن الجالسين أمام أجهزة الرادار ليرقبوا تحركات العدو هم أيضاً من المرابطين ، والجالسون أمام المدافع المضادة للطائرات فى أى موضع كانت ، وحراس المرافق العامة ، كل هؤلاء يدخلون ضمن المرابطين فى العهد الحاضر .

وبهذا ينفسح شأن الرباط الآن فيشمل كل الذين يقفون موقف الاستعداد لحماية البلاد والدفاع عنها ، سواء كان موقفهم على الحدود أو فى أى موقع من مواقع الدفاع والحماية .

وللمرابطين ثواب عظيم لا يقل عن ثواب المجاهدين الذين يخوضون المعارك ، وبخاصة إذا لاحظنا أن فترات الجهاد والصراع قصيرة إذا قيست بالرباط الذى لا ينى ولا يتوقف ، فالمرابط يقف متأهباً مدى يطول أو يقصر دون ملل ويغلب أن يكون المرابط بعيداً عن أسرته ، ويغلب كذلك أن يعيش فى حياة حافلة بالتقشف والخشونة والحرمان ، ويكثر أن يكون فى الصحراء أو الغابات أو البحار ، وهذا يوضح لنا الجهد

الذى يبذله المرابط ، كما يوضح أن هدوء الحياة فى الداخل ، وسير التجارة والزراعة فى أمن ، إنما هى فى الحقيقة مدينة للوقفة الصارمة التى يقفها المرابط يقظاً إذا نام الناس ، جاداً إذا لها الآخرون ، واضعاً أصبعه على زناد سلاحه إذا أمسك الآخرون بأقلامهم أو عزفوا على قيثاراتهم .

وفضل آخر مهم يرتبط بالمرابط ، ذلك هو أن وقفته الصامدة تخيف العدو فتجعله يتردد أو يمتنع من الهجوم على أرض الإسلام ، والمرابط بذلك يحمى الدماء والأرواح ، ولولاه لعربد العدو وكثر من عدوانه كما يحدث كثيراً عندما يضعف استعداد المسلمين .

ومن أجل هذا كان ثواب المرابط عظيما ، وقد سبق أن أوردنا بعض أحاديث الرسول التى تصف هذا الثواب ، وسنعيدها فيما يلى مع سواها لنبرز مكانة المرابط وفضله العظيم ، يقول صلى الله عليه وسلم :

— رباط يوم فى سبيل الله خير من ألف يوم فيما سواه من المنازل
(رواه الترمذى والنسائى)

— كل ميت يختم على عمله إلا المرابط فإن عمله ينمو إلى يوم القيامة .

(رواه الترمذى)

— عينان لا تمسهما النار : عين بكت من خشية الله ، وعين باتت تحرس فى سبيل الله .

(رواه الترمذى)

— ألا أخبركم بأفضل من ليلة القدر ؟ حارس حرس فى أرض خوف لعله لا يرجع إلى أهله .

— من رابط ليلة فى سبيل الله كانت كألف ليلة صامها وقامها .
(رواه ابن ماجة)

القلاع والحصـــون

وترتبط القلعة والحصن بالرباط ارتباطا شديدا ، ففيهما يعيش بعض الجنود دائما ، والقلعة طراز من الحصون شـــاع استخدامه فى العصور الوسطى ، وكان يقوم بوظيفتى المسكن والحصن ، دعت إليه ظروف الحياة فى تلك العصور التى كثر خلالها القتال ، وكان يراعى فى اختيار الحصون أن تكون فى أماكن مرتفعة للتحكم فى الأرض المحيطة بها ، وقد انتشر بناؤها فى أوربا فى القرن العاشر والحادى عشر والثانى عشر ، و خلال الحروب الصليبية اهتم الصليبيون والمسلمون ببنـــاء القلاع ، وكان يكثر أن يوجد بها أبراج مستديرة جانبية ، ولاتزال بعض القلاع الإسلامية فى سوريا موجودة ، أما القلاع الإسلامية فى القاهرة والاسكندرية فلا تزال ناطقة بالقوة ، ومستعدة لاستئناف نشاطها العسكرى إذا لزم الأمر .

وفى سوريا قلعة شهيرة بجبال النصيرية أسمها « الحصن » عرفت فى العهد الصليبى بحصن الفرسان ويقال لها الآن حصن الأكراد إذ كان بها حامية كردية فى القرن الحادى عشر ، وقد احتلها الصليبيون فى آخر ذلك القرن ، ثم استولى عليها الظاهر بيبرس سنة ١٢٧١ ، وهى مربعة الشكل تقريباً ، ويحيط بها صفان من الأسوار ، وبالسور الخارجى أبراج دفاعية مستديرة يتصل بعضها ببعض بواسطة ممر ، ويبلغ ارتفاع السور الداخلى حوالى عشرين مترا ، وهو أعلى من السور الخارجى وله منافذ لرشق السهام وبالحصن قاعة كبيرة ذات سقف معقود يرتكز على ٢٠ عمودا .

وهذه المظاهر نجدها متوافرة وعلى مستوى أرفع فى القلاع المصرية ، سواء فى ذلك قلعة صـــلاح الدين الأيوبى بالمقطم ، أو قلعـــة قايتباى بالإسكندرية ، وغيرهما من القلاع هنا وهناك .

أخــلاق المجــاهد

إن من أبرز تعاليم الإسلام الحربية تنظيم أخلاق المجاهد قائداً كان أو جندياً ، وسنعيش مع المجاهدين المسلمين الأول لنرى الأخلاق التى تحلّوا بها فضمنت لهم النصر المبين :

الشجاعة والصبر :

فى قمة هذه الأخلاق الشجاعة والصبر ، وذلك يبدو واضحاً من تكليف القرآن للمسلمين فى مطلع الإسلام أن يناضل الواحد منهم عشرة ، وأن يتغلب عليهم بالصبر ، وعندما خفف الله عنهم أصبح على المسلم أن يصارع اثنين وأن يصبر ليتغلب عليهما ، استمع إلى قوله تعالى : « يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال ، إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون ، الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفاً ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين بإذن الله والله مع الصابرين » [1] وقد ضرب المسلمون الأول وفى قمتهم الرسول أعلى المثل فى التخلق بالشجاعة والصبر ، وقد رُوِىَ عن على بن أبى طالب قوله : إنا كنا إذا اشتد اليأس واحمرت الحدقة اتقينا برســول الله ، فما يكون أحــد أقرب إلى العــدو منه ، ويقول عبد الله بن عمر ما رأيت أشجع ولا أنجــد ولا أجــود ولا أرضى من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان الصحابة يرون فى الرسول قدوة لهم ، وقد عبر عن ذلك سعد بن معاذ بقوله : والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هــذا البحر لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحــد ، وما نكره أن تلقى بنــا عدونا غداً ، إنا لصبر فى الحرب ، صــدق فى اللقاء ، ولعل الله يريك منا ما تقر به عينك .

---

(١) سورة الأنفال : الآيتان ٦٥ — ٦٦ .

وكان خالد بن الوليد يقول لجنده : يا أهل الإسلام ، إن الصبر عز . وإن الفشل عجز . وإن النصر مع الصبر .

الخشونة والتقشف :

ومن الأخلاق التى يراها الإسلام ضرورية للجندى الخشونة والتقشف ، ومن الواضح أن اللين والترف يفسدان حياة الجندى ويقضيان على نخوته ، والتاريخ يذكرنا بالأبطال الميامين الذين وقفوا خلف الخندق فى غزوة الأحزاب يدافعون عن الديار وقد شدوا الحجارة على بطونهم من الجوع ، وقد رأينا من قبل ذلك المحارب البطل الذى انسل من المعركة بدافع الجوع ليأكل بضع بلنحات هى كل زاده ، وقد أثبت أبطال الإسلام فى الجيل الأول بطولة نادرة لأن نشأتهم كانت نشأة صلابة وخشونه ، إنهم كانوا كما وصفتهم رسل المتوقس إليه : ليس لأحد منهم فى الدنيا رغبة ولانهمة ، جلوسهم على التراب وأميرهم كواحد منهم .

وفى العهود الإسلامية المتأخرة نجد الأنكشارية يحققون نصراً مبيناً فى مختلف الأرجاء لأن تربيهم كانت خشنة شديدة ، فلما ذاقوا اللين وانغمسوا فى متع العيش انهاروا وأصبحوا وبالا على أنفسهم وعلى بلادهم ، وكان لابد من القضاء عليهم لتبدأ الدولة من جديد [1] .

ويرتبط بالخشونة فى الحروب الطاعة ، وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الخلق أدق تعبير ، قال تعالى « طاعة ، وقول معروف ، فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم » [2] .

---

(١) انظر ماكتبناه عن الانكشارية فى الجزء الخامس من موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية .

(٢) سورة محمد الآية ٢١ .

صدق البلاء :

ومن الأخلاق الضرورية للمحارب صدق البلاء والإصرار فى الصراع يقول على بن أبى طالب : لقد كنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نقتل آباءنا وإخواننا وأعمامنا : ما يزيدنا إلا إيماناً وتسليما . ومضيا على اللقم (أى الطريق المعتدل) وصبراً على مضض الألم ، وجداً فى جهاد العدو ، ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين ، يتخالسان أنفسهما أيهما يسقى صاحبه كأس المنون : فمرة لنا من عدونا ، ومرة لعدونا منا . فلما رأى الله صدقنا أنزل بعدونا الكبت وأنزل علينا النصر ، حتى استقر الإسلام ملقياً جرانه ، ومتبوئاً أوطانه .

إنكار الذات :

ومن الأخلاق الضرورية للمجاهد إنكار الذات ، ودخول المعركة باسم الجماعة ، والتعاون التام للحصول على النصر وإن اختفى دور الفرد فى ثنايا العمل الجماعى ، وهو المقصود بقوله تعالى « إن الله يحب الذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » (١) أى تبدو فيهم وحدة البنيان لا تعدد اللبنات ، ويحكى التاريخ أن مسلمة بن عبد الملك كان اميراً على جيش من جيوش المسلمين ، وكان يحاصر حصناً من حصون الروم استعصى عليهم فلم يفتحوه ، فحرض الأمير جنده على التضحية بالإقدام ، حتى يحدثوا فى ذلك الحصن ثغرة ، ويثقبوا فيه ثقبا ، فأسرع احد من المسلمين بالاستجابة لنداء الأمير ، واندفع إلى الحصن وقد وضع لثاماً على وجهه حتى لا يعرفه أحد ، واستطاع أن يحدث فيه ثغرة اندفع منها جنود المسلمين وفاجئوا الأعداء وانتصروا عليهم ، ففرح مسلمة كثيراً ونادى : أين صاحب النقب ؟ فلم يأته أحد ، فصاح : عزمت على صاحب النقب ألا جاء لى ، فحضر الرجل الملثم واستأذن

---

(١) سورة الصف : الآية الرابعة .

فى الدخول على القائد فسأله الحاجب : هل أنت صاحب النقب ؟ فأجاب : أنا أدلكم عليه ، فأدخله الحاجب ، فلما مثل الرجل أمـــام مسلمة قال له : أيها الأمير ، إن صاحب النقب يشترط عليكم ثلاثاً ، ألا تبعثوا باسمه فى صحيفة إلى الخليفة ، وأن لا تأمروا له بشىء ، وألا تسألوه من هـو فقال مسلمة : ذلك له فقال الرجل فى استحياء : أنا صاحب النقب . ثم ولى مسرعاً .

فكان مسلمة لا يصلى بعد ذلك صـــلاة إلا دعا فيها فقال : اللهم اجعلنى مع صاحب النقب يوم القيامة .

ومثل هذا ما يروى أنه فى أثناء حصار عكا كان هناك رجل من دمشق يشرف على آلات النفط وتحضير المواد اللازمـــة للمفرقعات ، فأحرق ثلاثة أبراج للعدو ، فأمر صلاح الدين بأن يمنح جائزة ، ولكن الرجل رفض قبولها وقال « إنما فعلته لله ولا أريد الجزاء إلا منه » [١] .

الإيثـــار :

ومن الأخـــلاق الضرورية للمحارب الإيثار ، ففى رحاب الإيثـــار وحدة وصلابة وقوة ، ويذكر التاريخ أن ثلاثة من أبطال المسلمين وقعوا مثخنين بالجراح فى معركة اليرموك ، وهم عكرمة بن أبى جهل ، وسهيل بن عمرو ، والحارث بن هشام ، وعندما كانوا فى النزع الأخير مر بهم الساقى وكل منهم فى حاجة إلى قطرات من المـــاء ، ولكن كلا منهم كان يؤثر صاحبيه عن نفســـه ، فيروى أن الساقى عندما جاء إلى عكرمة أشار هذا إلى سهيل لأنه كان ينظر إلى إناء المـــاء ، فلما تقدم الساقى من سهيل قال ابدءوا بالحارث ، ومات الثلاثة دون أن ينالوا من المـــاء شيئاً .

---

(١) ابن خلدون : جـ ٥ ص ٣٢١ .

وفى صراعنا فى أكتوبر ١٩٧٣ على خط النار فى سيناء مثل جيشنا أروع دور فى الإيثار ، فكان فى بعض الظروف يعيش أفراده اليوم والأيام يتقاسمون قطعة من البسكويت لا تكفى طفلا رضيعاً ، ويقتسمون كوب ماء ليبل كل منهم لسـانه فقط .

وكان هذا من أسباب النصر المبين الذى أحرزه جيشنا فى صراعه مع الصهاينة أعداء الله وأعداء الإنسانية .

* * *

صفات خاصة للقائد :

تلك هى أبرز الصفات التى يلزم أن يتخلق بها المجاهد قائداً كان أو جندياً ، ولكنّ هناك صفات خاصة بالقائد ، ذلك الذى وضِعَتْ فى يده مقاليد الأمور وأرواح الناس ، من جند يدفع بهم إلى المعركة ، ومن شعب التزم القائد بالدفاع عنه وحراسته ، وهذا يحتم على القائد أن يكون أهلا لهذه المسئولية الكبرى ، لأن غلطة واحدة منه تجرُّ على الجند والشعب ألواناً من الكوارث ، وقـد كتب الهرثمى فى البـاب الثالث من مخطوطته عن سياسة الحروب أبرز الصفات اللازمة للرئيس ، قال :

أفضل الرؤساء فى الحرب أيمنهم نقيبة ، وأكملهم عقلا ، وأطولهم تجربة ، وأبعدهم صوتاً ، وأبصرهم بتدبير الحرب ومواضعها ، ومواضع الفرص والحيل والمكايد ، وأحسنهم تعبئة لأصحابه فى أحوال التعبئة ، وتسييرهم أوان المسير ، وإنزالهم أوان النزول ، وإدخال الأمن عليهم ، وإدخال الخوف على عدوهم ، مع طلب السلامة لنفسه وأصحابه من العدو ، وأن يكون حسن السيرة عفيفاً صارماً ، حازماً ، متيقظاً ، شجاعاً ، سخياً [١].

---

(١) الهرثمى : المختصر فى سياسة الحروب ، الورقة ص ٦ — ٧ (مكتبة الدول جامعة العربية) .

وقد تعرض الهرثمى لتقوى الله فى الحرب ، وأفرد لها الباب الأول من مخطوطه ، ومما جاء فيه قوله : ينبغى لصاحب الحرب أن يجعل رأس سلاحه فى حربه تقوى الله وحده ، وكثرة ذكره ، والاستعانة به ، والتوكل عليه ، والفزع إليه ، ومسألته التأييد والنصر ، والسلامة والظفر [١] .

(١) المرجع السابق : الورقة ٤ .

الإسلام وسياسة الحرب

هناك مبادىء مهمة تتضح لمن يدرس الجهاد فى الإسلام ، وهى ترتفع بمستوى الفكر الإسلامى فى هذا الموضوع إلى أرقى ما وصل له الفكر الحديث ، وهذه المبادىء هى :

١ – التعرف على أخبار العدو ، ومحاولة التجسس عليه .

٢ – الخديعة فى الحروب .

٣ – الجانب الإنسانى خلال المعركة وبعدها .

٤ – لا ظلم ولا مثلة ولا تدمير .

وسنتكلم عن هذه المبادىء فيما يلى :

١ – التعرف على أخبار العدو ومحاولة التجسس عليه :

يروى أنس أن الرسول قبيل غزوة بدر بعث بسبس بن بشر عيناً ينقل له أخبار عير أبى سفيان ، كما أرسل طلحة بن عبيد الله وسعيد بن زيد إلى طريق الشام يتجسسان له الأخبار ، وكان له جواسيس بمكة يأتونه بأخبارها ومنهم عمه العباس وبشير بن سفيان العتكى [١] ، ولما نزل قريبـاً من بدر خرج هو بنفسه ومعه أبو بكر يستطلعان الأخبار متنكرين [٢] .

وفى غزوة الأحزاب يروى جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لنفر حوله : من يأتينى بخبر القوم ؟ فقال الزبير : أنا . ثم قال الرسول : من يأتينى بخبر القوم ؟ قال الزبير : أنا . فقال النبى صلى

---

(١) عبد الحى الكتانى : التراتيب الادارية جـ ١ ص ٣٦ ، ٦٢ – ٦٣ .

(٢) ابن هشام : جـ ١ ص ٦٥ .

الله عليه وسلم : لكل نبى حوارى وحوارىّ الزبير . ويتضح من ذلك أن العين الذى ينقل الأخبار يكون من قمة الأصفياء المخلصين للقائد ، كما يجب أن يمتاز بالدهاء والمهارة .

وهكذا كانت عادته عليه السلام فى كل غزواته أن يكثر من العيون التى تأتى له بالأنباء حتى أنه أمر زيد بن ثابت أن يتعلم لغة اليهود ، وكتابتهم فتعلمها ليستطيع بهذا الطريق أن يتعرف أخبار اليهود (١) :

وربما فعل الرسول ذلك فى غير الغزوات ليتعرف على أحوال أعدائه ؛ ويروى أنه أرسل عبد الله بن جحش مع ثمانية رجال من المهاجرين ، ووجههم تجاه مكة دون أن يُعيِّن لهم الغرض من رحلتهم ، وكتب إلى عبد الله كتاباً أمره ألا يفتحه إلا بعد مسيرة يومين ، وسار عبد الله مع رفاقه طيلة اليومين ، ثم فتح الخطاب فإذا فيه : إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل (نخلة) بين مكة والطائف فتربص بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم .

وأوصى عمر بن الخطاب قائده سعد بن أبى وقاص بقوله : « تعرّف الأرض كلها معرفة أهلها » وبقوله أيضاً : « أذْكِ العيون بينك وبينهم ، ولا يخفَ عليك أمرهم » .

وأوصى الإمام على ابنه محمد بن الحنفية وهو يقود جيشاً باستكمال دراسته لأحوال العدو ، فقال له فيما قال : « ارم ببصرك أقصى القوم » .

وكان التعرف على أحوال العدو يتيح للذين يختارون لذلك أن يقولوا أحياناً شيئاً ضد الإسلام تظاهراً بالصدق أمام أعداء الإسلام ، يروى أن الرسول كلف محمد بن مسلمة الأنصارى بأن يدخل بين اليهود ليوقع بهم شيئاً أراده الرسول ، قال ابن مسلمة : يا رسول الله ،

---

(١) تاريخ الطبرى : ج ٢ ص ٤٢ .

سأستعين ببعض المسلمين ، ولابد لنا أن نقول فيك وفى ديننا مالا نعتقد لنحسن الوصول إلى أهدافنا . قال الرسول : قولوا ما بدا لكم فأنتم فى حل . واندس هؤلاء بين اليهود حيث قالوا إن دعوة محمد سببت لهم عنتاً شديداً وعداوة مع الناس ... وهكذا اطمأن لهم اليهود ، وهكذا وصل هؤلاء إلى ما أرادوا .

وقد وضع الرسول منهاجاً دقيقاً لعيونه وجواسيسه ، فعلمهم ألا يحدث أحدهم حدثاً ينبه الناس إليه ، أو أن يقتل أحداً إلا إذا أجبر على ذلك ، لأن فوز الجاسوس بالمعلومات النافعة أهم من قتل عدد من الأعداء ، ففى يوم الخندق أرسل حذيفة بن اليمان عيناً على قريش ونهاه أن يحدث شيئاً حتى يعود إليه ، وأرسل عبد الله الأسلمى ليقيم فى هوازن متنكراً حتى يعلم علمهم ثم يأتيه بخبرهم ففعل [1] ، وكان القائد يجزل المكافأة لمن يأتى له بالأخبار النافعة حتى وإن كانت كريهة لدى المسلمين ، فالدقة والصدق كانا من أهم ما يلتزم العين به .

وفى العصور الوسطى قل اهتمام المسلمين بالتعرف على أخبار أعدائهم ، ولكن العدو كان حريصاً على أن يتعرف على أخبار المسلمين ، وكان من نتائج ذلك أن هزم المسلمون فى الحرب الصليبية الأولى ، وعملوا بعد ذلك على تلافى النقص . فبذلوا جهداً كبيراً لاستقصاء أخبار الصليبيين ، بحيث لا تفوتهم كبيرة ولا صغيرة من أحوالهم ، فلم يعد يخلو مكان من صاحب خبر وبريد ، حتى تعرف المسلمون على أخبار الأقاصى والأدانى وكان من نتيجة ذلك أن تحققت انتصارات المسلمين على الصليبيين فيما بعد [2] .

---

(١) ابو يوسف : الخراج ص ٧٢ .

(٢) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠٦ .

٢ ـ الخديعة فى الحروب :

وعن موضوع الخديعة فى الحروب نجد مجموعة كبيرة من الأحاديث نورد منها :

ـ عن كعب بن مالك أن النبى صلى الله عليه وسلم كان إذا غزا غزوة ورّى بغيرها .

ـ عن أنس قال أن رسول الله قبيل غزوة بدر هتف بأصحابه : إن لنا طَلِبة فمن كان ظهره حاضراً فليركب معنا .

ـ عن أم كلثوم بنت عقبة قالت : لم أسمع النبى صلى الله عليه وسلم يرخّص فى شىء من الكذب مما تقول الناس إلا فى الحرب والإصلاح بين الناس وحديث الرجل لامرأته .

ويقول الشوكانى فى التعليق على هذه الأحاديث : إن قوله صلى الله عليه وسلم « ورّى » معناها « ستر » ويستعمل فى إظهار شىء مع إرادة غيره وهو فى الحرب أخذ العدو على غرة . وأما قوله « طلبة » فمعناها « حاجة » وهو إيهام للمقصود ويستدل به على أن الإمام يكتم أمره ، وقوله « الحرب خُدعة » معناها الأمر باستعمال الحيلة ما أمكن ، وأن الإنسان إذا خدع مرة واحدة لم تُقَلْ عثرته ، واستعمال اسم المرة لبيان أن المسلمين ينبغى أن يقوموا بالخداع ولو مرة واحـدة . وأن يحذروا أن يخدعهم الكفار ولو مرة واحدة فلا ينبغى التهاون بذلك لما ينشأ عنه من المفسدة ، وفى الحديث تحريض على أخذ الحذر فى الحرب والندب إلى خداع الكفار ، وأن من لم يتيقظ لم يأمن أن ينعكس الأمر عليـه ، وينقل الشوكانى [1] . عن النووى قوله : واتفقوا على جواز خداع الكفار فى الحرب كيفما أمكن إلا أن يكون فيه نقض عهد أو مخالفة أمان فلا يجوز ، وينقل عن ابن العربى قوله : الخداع فى الحرب

---

(١) الشوكانى : نيل الأوطار : جـ ٧ ص ١٢٧ .

يقع بالتعريض وبالكمين ونحو ذلك ، وفى الحديث الإشارة إلى استعمال الرأى فى الحرب بل الاحتياج إليه ، فذلك آكد من الشجاعة ، وينقل عن ابن المنير قوله : معنى الحرب خدعة أى الحرب الجيدة لصاحبها ، الكاملة فى مقصودها ، إنما هى المخادعة لا المواجهة وذلك لخطر المواجهة ولحصول الظفر مع المخادعة بغير خطر .

وسار الرسول فى حروبه على هذه السيرة فنراه فى غزوة بدر يأمر أصحابه بأن يقطعوا الأجراس من أعناق الإبل حتى يكون سيرهم خفية ، وفى غزوة الفتح كتم الرسول أمره حتى عن زوجته عائشة وأبيها الصديق ، وقال لعائشة جهزينى ولا تُعْلِمِى بذلك أحداً [1] ، ولما سار بأصحابه سأله بعضهم عن وجهته ، فأجاب بقوله : حيث شاء الله [2] ؛ ويقول الهرثمى : وإذا استطعت أن تحترس فى كتمان سرك فى حربك مَنْ تقاتل فافعل ، فإن فى ذلك إمضاء تدبيرك وقطع مكيدة من يكيدك ، واكفف لسانك عن فلتة كل منطق ، ينكشف به ما تضمر من أمرك ، أو تخفيه من سرك ، واعلم أنه قد يستدل بلحن المنطق على مصون السر ومكنون الضمير ، ولا تستهن فى إظهار سرك بصغير لصغره ، ولا بأعجمى لعجمته ، فرب سر مضمون قد اطلعوا عليه وأذاعوه [3] .

الحرب لتحقيق العدالة لا للانتقام :

وبالإضافة إلى هذين المبدأين اللذين وصفناهما بأنهما أرقى ما وصلت له البشرية فى العصر الحديث ، هناك مبادىء أخرى لم تستطع البشرية أن تحققها أو أن تقترب منها حتى الآن ، ومن هذه المبادىء أن الحرب ضرورة لتحقيق عدالة ، ولا يجوز أن تكون للانتقام ، ولا أن يصحبها

---

(١) ابن هشام : ج ٢ ص ١٧٨ .
(٢) الطبرى : ج ٣ ص ١١٥ .
(٣) مختصر « فى سياسة الحروب » ورقة ١١ .

أو يتبعها أى نوع من أنواع الحنق والتشفى ، يقول الله تعالى « ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان ، واتقوا الله ، إن الله شديد العقاب » [١] وفى تفسير هذه الآية يقول النسفى : ولا يحملنكم شدة بغضكم لقوم أن تنتقموا منهم ، وتعاونوا على البر والتقوى أى على العفو والإغضاء ومجانبة الهوى ، ولا تتعاونوا على الإثم والعدوان للتشفى والانتقام ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب فانتقامه أشد وسنزيد هذه المبادىء شرحا فيما يلى :

٣ ـ الجانب الإنسانى خلال المعركة وبعدها :

الجهاد فى الإسلام يرمى إلى كسب المعركة ، وعندما يكسب المسلمون المعركة ينبغى أن يعملوا على تخفيف حدة العداوة ، وعلى محاولة كسب قلوب الأعداء بطريق أو بآخر ، ففى غزوة حنين أسر المسلمون عدداً كبيراً من هوازن ، ولكن وفداً من كبار هوازن جاءوا إلى الرسول فى « الجعرانة » مسلمين تائبين وطلبوا أن يَرُدَّ إليهم الرسول أموالهم وأهليهم ، فنزل لهم الرسول عن حقه وحق بنى عبد المطلب فى المال والسبى ، وحبب الرسول للمسلمين التنازل عن حقوقهم فاستجابوا له وتنازلوا عن حقوقهم فى الأموال والسبايا ، بل إن الرسول أعلن أن مالك بن عوف الذى قاد جيوش هوازن وثقيف فى هذه المعركة لو جاء مسلماً لعفا عنه ورد إليه أهله وماله ، فخرج مالك من الطائف وقصد الرسول وأعلن إسلامه واسترد ماله وذويه [٢] ، وتكرر مثل هذا العمل فى غزوة بنى المصطلق وفى غيرها ، وهو يدل دلالة واضحة على أن المسلمين لا يرمون إلى استعباد أحد أو إذلاله ، وحسبهم أن يضمنوا لأنفسهم السلامة ، وأن يضمنوا حرية الأديان وحرية الدعوة لها .

---

(١) سورة المائدة : الآية الثانية .

(٢) ابن هشام : جـ ٣ ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧ .

٤ ـ لا ظلم ولا مثلة ولا تدمير :

والجهاد فى الإسلام لا يمتد للشيوخ والنساء والأطفال ورجال الدين ، بشرط الا يشترك هؤلاء فى المعركة اشتراكا فعلياً حتى وإن اشترك أهلوهم ، كما أنه لا يجوز فيه تعذيب الأحياء أو قذفهم ، ولايجوز التمثيل بأجساد الموتى ، وقد أخذ الباحثون ذلك من قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون » [1] ويقول البيضاوى فى تفسير هذه الآية : لا يحملنكم شدة بغضكم للمشركين على ترك العدل فيهم فتعتدوا عليهم بارتكاب مالا يحل كمثلة ، وقذف ، وقتل نساء وصبية ، ونقض عهد ، تشفياً مما فى قلوبكم .... ومن الأحاديث الواردة فى هذا الموضوع قوله عليه السلام :

ـ عن ابن عمر قال : وجدت امرأة مقتولة فى بعض المغازى فنهى الرسول عن قتل النساء والصبيان .

ـ وعن رباح بن ربيع أنه خرج مع الرسول فى غزوة غزاها وكان على مقدمته خالد بن الوليد ، فمر الرسول على امرأة مقتولة فقال : ما كانت هذه لتقاتل ، ثم التفت إلى أحد أصحابه فقال له : الحق بخالد فقل له لا تقتلوا امرأة ولا ذرية ولا عسيفاً (أجيراً) .

ـ وعن أنس أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : انطلقوا باسم الله وعلى ملة رسول الله ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ولا طفلا صغيراً ولا امرأة ولا تغلوا (لا تخونوا) وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين .

وعن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال : اخرجوا باسم الله تقاتلون فى سبيل الله ، لا تغدروا ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الولدان ، ولا أصحاب الصوامع .

---

(١) سورة المائدة : الآية الثامنة .

ويقول ابن حزم : ولا يحل قتل نساء الكفار ولا قتل من لم يبلغ الحلم منهم إلا أن يقاتل أحد منهم فلا يكون للمسلم منجى منه إلا بقتله فيجوز قتله حينئذ ، فإن أصيبوا فى الليل أو فى اختلاط الملحمة عن غير قصد فلا حرج فى ذلك [١] .

والجهاد فى الإسلام لا يمتد إلى قتل الحيوان أو تخريب البيوت أو قطع الأشجار ، ما لم تكن هذه وسائل لكسب المعركة كالحيوانات التى تساعد فى الحرب أو البيوت والأشجار التى تتخذ حصوناً ومعاقل ، ويقول ابن رشد [٢] : اتفق جمهور الفقهاء على جواز رمى الحصون بالمجانيق سواء كان فيها نساء وذرية أو لم يكن ، لأن النبى نصب المجانيق على أهل الطائف ، واختلف الفقهاء فى المبانى والحيوانات والنبات فمنهم من أجاز ذلك بقصد أن يكون ذلك إضعافاً لشوكتهم ، وما دام ذلك وسيلة للنصر فإنه جائز ، وقال الشافعى : تحرق البيوت والشجر إذا كانت لهم معاقل ، ويكره ذلك إذا لم تكن معاقل لهم ، وقد روى مالك عن أبى بكر أنه قال فى وصيته لجيشه ستجدون قوماً زعموا أنهم حبسوا أنفسهم لله ، فدعوهم وما حبسوا أنفسهم له ، ولا تقتلوا امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً ، ولا تقطعن شجراً ، ولا تخربن عامراً .

وأما الحيوان فقد أجمعوا على عدم ازهاق روحه إذا لم يكن عوناً مباشراً فى مساعدة العدو ، ويروى أن أبا بكر أوصى قواده إلى الشام : لا تقتلوا امرأة ولا صبياً ولا كبيراً هرماً ، ولا تقطعوا شجراً مثمراً ولا تخربوا عامراً ولا تعقروا شاة أو بعيراً إلا لمأكلة ولا تحرقن نخلا [٣] ، ويتجه ابن حزم إلى التفريق بين ما فيه روح وما ليس به روح ، فيحمى ما فيه روح لحرمة الروح ويبيح تدمير مالا روح فيه ، وهو يقول فى ذلك : وجائز تحريق أشجار المشركين وأطعمتهم وزرعهم

---

(١) المحلى : جـ ٧ ص ٢٩٦ .

(٢) بداية المجتهد : جـ ١ ص ٣٩٦ .

(٣) الشوكانى : نيل الأوطار جـ ٧ ص ١٤٩ .

ودورهم وهدمها لقوله تعالى : « ما قطعتم من لينة أو تركتموها قائمة على أصولها فبإذن الله وليخزى الفاسقين » [١] ، وقوله « ولا يطئون موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح [٢] ، وقد أحرق الرسول نخل بنى النضير ، أما نهى أبى بكر عن ذلك فيحمل على الإباحة إذ انه كما يجوز التحريق يجوز الإبقاء حسب الأحوال [٣] .

وقبل أن نتجاوز ذلك إلى ما فيه روح نحب أن نضيف أن الرسول فى حصاره للطائف أذن بتحريق الكروم ، وكروم الطائف أغلى ما يعتز به أهلها ، فأرسل هؤلاء إلى الرسول يرجونه ألا يحرق الكروم ، ويخيرونه أن يأخذها لنفسه أو يدعها لله وللرحم [٤] ، وقد أحس الرسول من ذلك أن عريكتهم بدأت تلين فاستجاب لتوسلهم وأوقف تحريق الكروم ، ولو أجرينا مقارنة بين تحريق نخل بني النضير وبين الكف عن تحريق نخل الطائف لاتضح لنا الفرق ، فاليهود لا أمل فى أن يهتدوا ، ويتقرب المسلمون إلى الله بكل إيذاء وغيظ ينزلونه بهم ، وبكل ما ينالونه منهم على مامر فى الآيتين المذكورتين آنفا ، وعلى العكس من ذلك أهل الطائف الذين لانت عريكتهم وسرعان ما أصبحوا من خيرة المسلمين ، وهذا يعنى أن القائد يتدبر الأمر فى حدود الصالح العام .

ونعود لابن حزم لنقتبس رأيه فى إتلاف ما فيه روح أو عدم إتلافه ، يقول ابن حزم : ولا يحل عقر شىء من حيواناتهم ألبتة ، لا إبل ولا بقر ولا غنم ولا خيل ولا دجاج ولا حمام ولا أوز ولا غير ذلك إلا للأكل

---

(١) سورة الحشر : الآية الخامسة .

(٢) سورة التوبة : الآية ١٢٠ .

(٣) ابن حزم : المحلى ج ٧ ص ٢٩٤ .

(٤) ابن القيم : زاد المعاد ج ٢ ص ١٩٧ .

فقط ، حاشا الخنازير جملة ، ومثل ذلك نحلهم لا يحرق ولا يغرق ولا تحرق خلاياه [1] .

بل نهى الرسول عن قتل العمال والأجراء الذين ليس لهم دور فى الحروب ، لأنهم بناة العمران والحارثون والزارعون ، والحرب الاسلامية ليست لإزالة العمران ولا لتعويق سير الحياة ، وعن ابن عباس أنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال : اخرجوا باسم الله تعالى ، تقاتلون فى سبيل الله من كفر بالله ، ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا الوالدان ولا أصحاب الصنائع .

وفى ختام هذه الدراسة ننقل وصية أبى بكر الصديق رضى الله عنه ، فقد كان يوصى كل قائد يرسله لمعركة بقوله : إنى موصيك بعشر : لا تقتل امرأة ، ولا صبيًا ، ولا شيخا هرما ، ولا تقطعن شجرة ، ولا نخلا ، ولا تحرقها ، ولا تخربن عامرا ، ولا تعقرن شاة إلا لمأكله ، ولا تجبن ، ولا تغلل (أى لا تخن فى الغنائم) .

---

(١) ابن حزم : المحلى جـ ٧ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

الثبات والفرار

لا نعرف شيئاً حث عليه القرآن الكريم ووعد بالإثابة عليه كما فعل مع الثبات فى المعركة ، ولا نعرف شيئاً أستهجنه القرآن وذمه وتوعد فاعله كما فعل مع الفرار والهرب من المعركة ، على أن مصادر الفكر الإسلامى لم تكتف فى هذا المجال بالحديث عن الثبات والفرار ، وإنما أحاطت بالموضوع من نواح متعددة ، ولذلك يلزمنا أن نبرز هنا نقاطاً خمسة هى :

أولا — الثبات فى المعركة :

عن الثبات فى المعركة يقول القرآن الكريم :

— يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار (١) .

— يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون (٢) .

— يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم (٣) .

وهكذا نجد هذه الآيات تأمر بالثبات والقوة وتحث على أن يتخذ ذكر الله وسيلة لذلك إذا التحم القتال .

والمجاهد الذى يثبت فى موقعه ولا يتزحزح إلا مهاجما أو محتالا بحيلة يرجو بها النصر ، جزاؤه عند الله عظيم ، قررته الآية الكريمة « فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ، ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » (٤) .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ١٥ .
(٢) سورة الأنفال : الآية ٤٥ .
(٣) سورة القتال : الآية السابعة .
(٤) سورة النساء : الآية ٧٤ .

وقد سبق أن تحدثنا عن جزاء المجاهد عند كلامنا عن « فضل الجهاد والاستشهاد » .

وفى أحاديث الرسول ما يلزم الثبات فى المعركة ويقرر ثواب ذلك ، فعن قتادة أن الرسول قام فى صحابته فذكر لهم أن الجهاد فى سبيل الله أفضل الأعمال ، فقام رجل فقال : يا رسول الله ، أرأيت أن قُتِلْتُ فى سبيل الله تكفر عنى خطاياى ؟ فقال الرسول : نعم . إن قُتِلْتَ فى سبيل الله وأنت صابر محتسب ، مقبل غير مدبر .

ثانيا — جريمة الفرار :

يُعْتَبر الفرار من الوغى جريمة قبيحة ، ورذيلة مريرة ، إنه إيثار لحياة رخيصة على الخلود أو النصر ، إنه أنانية مقيتة تستحق كل الكلمات القاسية والعبارات المشينة ، ولعمرى إن الذى يفر من حومة الوغى ستظل أشباح الهرب تطارده ، وسيعيش وفى نفسه صراع يأكله ، لأنه إن ستر هذه السوأة عن الناس فإن هذه السوأة تعيش فى داخله تلتهمه وتنهش عقله وقلبه ، وان اعترف بها نال من احتقار الناس واستهجانهم ، ما يجعله ميتاً وهو حى ، ويقضى عليه شر قضاء ، تعال بنا إلى مصادر الإسلام الأولى لنرى كيف تحدثت عن هذه الجريمة البشعة :

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الأدبار ، ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزاً إلى فئة ، فقد باء بغضب من الله ، ومأواه جهنم وبئس المصير » [1] ، والناظر إلى الآية الثانية من هاتين الآيتين الكريمتين يجد أنها لم تكتف بوعيد الآخرة وبنار جهنم وسوء المصير ، بل عمدت إلى الأيام التى سيقضيها ذلك الفارُّ فى الدنيا قبل أن يُلْقَى به فى الجحيم ، فوصفت

---

(١) سورة الأنفال : الآيتان ١٥ — ١٦ .

هذا الشخص بأنه يعيش أيامه يشمله غضب الله منذ باء وعاد من حومة الوغى ، وليس هناك من يحميه من هذا السوء أو يقيه منه .

وجاءت أحاديث الرسول فوضعت الفرار من المعركة ضمن الكبائر العظمى والموبقات السبعة ، قال صلى الله عليه وسلم :

— ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف .

— اجتنبوا السبع الموبقات ، قالوا : وما هن يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله ، وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولى يوم الزحف ، وقذف المحصنات المؤمنات ، والسحر .

وأثر عن الإمام على أنه كان يوصى ابنه محمد بن الحنفية قبيل المعركة بقوله : يا بنى ، تزل الجبال ولا تزل أنت أعر الله جمجمتك . أى إن هربت الجبال فابق أنت ثابتا ، ولتكن رأسك وحياتك عارية عند الله ، فالشهادة ليست إلا أن تودع نفسك عند خالقها ، وهو خير مصير لها .

ثالثا — الموت آت لا محالة :

لماذا يفر المقاتل من حومة الوغى ؟ الجواب بالتأكيد هو أنه يفر من الموت ، وهو جواب حافل بالسخرية ، فليس هناك من يستطيع أن يفر من الموت ، لأن الموت لابد أن يشمل كل حى ، ولذلك نجد القرآن الكريم يحادث الناس بأسلوب تفكيرهم وينبههم أن الفرار من الموت لن يجدى فتيلا ، يقول الله تعالى :

— قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا ، قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءا أو أراد بكم

رحمة ، ولا تجدون لكم من دون الله وليًا ولا نصيرًا [١] .

— قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ، ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تفعلون [٢] .

— أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة [٣] .

— كل نفس ذائقة الموت [٤] .

وفى موقعة الجمل التى كان يتزعمها مع عائشة رضى الله عنها الزبير ابن العوام وطلحة بن عبيد الله ، ترك الزبير المعركة وهى تدور لعدم إيمانه بأنه على حق فيما أقدم عليه ، وعند عودته مر بماء لبنى تميم ، فرآه الأحنف بن قيس فقال : جَمَعَ الزبير هذين العسكرين ثم ولىّ وتركهما ، فثار عمرو بن جُرموز لذلك وكان فى مجلس الأحنف فلحق بالزبير خِفية حتى جلس هذا تحت شجرة ليستريح ثم اضطجع وغفا فقتله عمرو وهو نائم [٥] . وهكذا مات الذى ترك المعركة قبل آلاف ممن استمروا فيها .

والأدب العربى حافل بهـذا المعنى يهتف به الشجعان المسلمون تذكيرًا وإشعالا للحماس والقوة ، فعبد الله بن رواحه يخاطب نفسه وهو فى حومة الوغى قائلا :

يا نفس إلا تُقتلى تموتى

وقطرى بن الفجاءة يعلمُ نفسه وهو يخوض المعارك ألا تنسى حقيقة الحياة فيقول :

---

(١) سورة الاحزاب : الآيتان ١٦ — ١٧ . (٢) سورة الجمعة : الآية لثامنة
(٣) سورة النساء : الآية ٧٧ . (٤) سورة آل عمران : الآية ١٨٥
(٥) العقد الفريد جـ ٤ ص ٣٢٣ .

أقول لها وقد طارت شعاعاً
من الأبطال : ويحك ، لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم
على الأجل الذى لك لن تطاعى
فصبراً فى مجال الموت صبراً
فما نيل الخلود بمستطاع

رابعا — الحياة هبة الإقدام لا هبة الفرار :

كثير من الجهلة يظنون أن الفرار يضمن لهم الحياة ، فيتركون المعركة مدبرين طلباً للسلامة ، والحقيقة أن المواجهة هى التى تحمى الإنسان ، والإقدام هو الذى يهب الحياة •

أما الفرار والذعر والإدبار فهى وسائل الموت ، وكثيراً ما يسقط المدبر بطعنة من جبان ما كان يقوى أن يطعنها فى المواجهة ، ومن أجل هذا كان أبو بكر الصديق يضع لجنوده دستوراً هو : احرص على الموت توهب لك الحياة • وكان يزيد بن المهلب يقول فى ذلك :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد
لنفسى حياة مثل أن أتقدما

والتاريخ يثبت فى عدد كبير من المعارك أن الذين فروا خوف الموت سقط عدد كبير منهم قتلى أكثر ممن كانوا يسقطون لو جالدوا وصبروا وذلك واضح تمام الوضوح ، فالفرار يبيح للعدو أن يحصد الفارين حصداً دون أن يضحى بشىء ، لأنه يضرب ولا يُضْرَب ، أما المقاومة ولو مع رجحان كفة العدو فضحاياها أقل بكثير •

خامسا ــ هناك ما هو أدهى من الموت :

هل يحاول الفارُّ من المعركة أن يتحاشى الموت ؟ ويح له ، لقد نسى أن هــذه الحيــاة أقسى من الموت وأمرُّ منــه ، والعرب يقولون فى ذلك « المنية ولا الدنية » ويقول الشاعر :

ســأحمل روحى على راحتى وأمضى بها فى طريق الردى
فإما حيــاة تسر الصــديق وإما ممــات يســوء العــدا

وفى إحدى المعارك الإسلامية كانت الغلبة فى مطلعها لجند الأعداء ، وكان فى جيش المسلمين مجاهد هو وحيد أمه فتذكر أمه فى هذه الساعة ، فضعف وآثر الحياة فانفلت الى أمه ، وأشــيع خبر الهزيمة ، وراحت الأمهات تتحسسن مصير أولادهن ، وفوجئت هذه الأم بابنها الهــارب يدلف عليها وهو يظن أنها ستسعد بلقائه ، ولكن الأم رأت فى عينــه الفرار فصاحت فيه : لستُ أماً لهارب ، لست أماً لهارب ، لا أحب أن تعيش فضيحة فى دارى ، اذهب فلتأت لى رأسك ، أو فلتعد مرفوع الرأس ، وانسل الابن عائداً للمعركة يريد الموت ، فأخــذ يضرب غير هياب ، ودفعت الحماسة جنود المسلمين فاستماتوا حتى تغير وجــه المعركة وكتب للمسلمين النصر ، وعاد هذا الابن مرفوع الرأس فاستقبلته أمه وأخذت تقبله وهى تقول : الآن أنت ابنى .

* * *

العدد والفرار :

وهناك رأى يضع مقياساً مادياً للفرار يمثــله ابن عباس الذى يقول : لمــا نزل قوله تعالى « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبون مائتين » [1] كان على الواحد ألا يفر من عشرة وكان الفرار من عشرة فاقل يعد فراراً ، أما اذا ولى الواحد من أكثر من عشرة فإنه لا يعــد

(١) سورة الأنفال : الآية ٥٦ .

، فلمـا نزل قوله تعالى « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين .. » [١] أصبح على ... أن يصابر اثنين ، ويقول ابن عباس : من فرّ من اثنين فقد فر ، ومن فرّ من ثلاثة فلم يفر [٢] ، واعتنق ابن رشد مذهب ابن عباس فقرر أن العدد الذى لا يجوز الفرار منه هو الضعف [٣] .

ملاحظة العدد تكون قبل المعركة فقط :

ولكن أكثر الباحثين لا يرون هذا الرأى ويبيحون ملاحظة العدد قبل المعركة ، أما اذا نشب القتال فليكن الثبات لنيل إحدى الحسنيين : النصر أو الشهادة ، وأوضح دليل على ذلك ما حدث فى غزوة حنين عندما فاجأ مالك بن عوف جيش المسلمين من شعاب الجبال وألقى عليهم وابلا من القذائف وهم يسيرون فى الممرات الضيقة التى كانوا يجتازونها قبل أن يستعدوا للقتال ، وفى هول المفاجأة انشمر المسلمون راجعين لا يلوى أحد منهم على أحد [٤] ، ولكن الرسول وقف كالطود الشامخ لا يعرف الفرار ولا الهرب ووقف معه جماعة من المهاجرين والأنصار ، وصمدوا للعدو محاربين حتى عاد لهـم الذين دفعتهم المفاجأة للهرب ، ولو كان الفرار من المعركة مباحاً لمـا وقف هؤلاء يواجهون عـدداً يزيد عشرات المرات عنهم ويفوقهم استعداداً .

وفى غزوة مؤتة واجه جيش المسلمين وعدده ثلاثة آلاف مقـاتل ، جيشاً من الغساسنة والروم عدده مائتا ألف مقاتل ، وعندما أدرك المسلمون قبل المعركة هذا الفارق الكبير فى العدد أخذوا يتشاورون ، وقال بعضهم : نكتب الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦٦ .

(٢) الشوكانى : نيل الأوطار ج ٧ ص ١٥٢ — ١٥٣ .

(٣) بداية المجتهد : ج ١ ص ٣٩٨ .

(٤) ابن هشام : ج ٢ ص ٢٨٩ .

فقال عبد الله بن رواحة : يا قوم ، والله ما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ، وإنما نقاتلهم بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين : إما النصر وإما الشهادة .

وفى هذه المعركة حارب جيش المسلمين بحماسة بالغة ، وخر قائد الجيش زيد بن حارثة . فحمل لراية عبدُ الله بن أبى رواحة فخر أيضاً ، فحملها بعده جعفر بن أبى طالب فلحق بصاحبيه ، فحملها خالد بن الوليد الذى أدرك أن فى استمرار المعركة فناء لجيشه دون طائل فانسحب بعملية باهرة ، إذ أثار الغبار خلف جيشه فأوهم الروم أن مدداً ضخما جاء من المدينة ، فلم يتبع الرومُ الجيش المنسحب [1] ، وكان انسحابه لمزيد من الاستعداد حتى يستطيع يوماً أن يقابل الروم مقابلة يثأر فيها لمن خروا فى هذه المعركة ، وربما كان ذلك النوع هو الانسحاب الوحيد الذى يجيزه الفكر الإسلامى فيما نرى ، ومع ذلك فإن المسلمين لم يغفروا لخالد وجيشه أن يفروا من المعركة وقابلوهم صارخين « يا فرار ، فررتم فى سبيل الله !! » ولكن الرسول اعتذر عنهم وأمّل فى الخير منهم فى المستقبل ، وقال : ليسوا بالفرار ولكنهم الكرّار إن شاء الله ، ومع هذا الاعتذار من الرسول الكريم فقد بقى الذين انسحبوا مع خالد يحسون بالخجل لهذا الانسحاب ويتوارون عن الوجوه ، رُوِىَ أن أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم قالت لامرأة سلمة بن هشام بن المغيرة : مالى لا أرى سلمة يحضر الصلاة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومع المسلمين ؟ فقالت : ما يستطيع أن يخرج ، لطالما سمع الناس يصيحون به : يا فرّار ، فررتم فى سبيل الله ! ! فآثر أن يقعد فى بيته ولا يخرج [2] .

وينبغى أن يلاحظ أن غزوة مؤتة حدثت فى السنة الثامنة للهجرة ، أى أنها حدثت بعد حوالى ست سنوات من نزول سورة الأنفال التى بها

---

(١) ابن هشام : حـ ٢ ص ٢٥٨ وابن القيم : زاد المعاد : حـ ٢ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٢) ابن هشام حـ ٢ ص ٢٦٠ .

آيات العدد التى أوردناها آنفاً ، وقد كان الواحد من جيش المسلمين يقابل حوالى سبعين من جيش الروم والغساسنة ، وكانت العملية عملية انسحاب تبعاً لخطة وليست عملية فرار ، ومع هذا لم يغفر المسلمون ذلك ، وأخذوا يعيّرون به المنسحبين ، ولو كان العدد يمكن أن يلحظ بعد بدء المعركة لما وقف المسلمون من جيش مؤتة هذا الموقف .

ابن حزم لا يبيح الفرار لغير ضرورة ملحة :

ولعل ابن حزم من أدق من تحدثوا عن هذا الموضوع وأحاطوا بأكثر أطرافه ، فلنعد له لنرى رأيه ، يقول ابن حزم :

« ولا يحل لمسلم أن يفر عن مشرك ، ولا عن مشركين ولو كثر عددهم ، إلا أن ينوى فى رجوعه التحيز الى جماعة المسلمين ، أو أن ينوى الكر الى القتال ، فإن لم ينو إلا أن يولى هارباً فهو فاسق لقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ...

« وقال قوم : إن الفرار للمسلم مباح من ثلاثة فصاعداً واحتجوا بآية سورة الأنفال وبقولة ابن عباس فى تفسيرها [1] ، وهذا خطأ ، ولا حجة لابن عباس لأن الحجة الواضحة توجد فى كلام الله وفى كلام الرسول ، وليس فى آية التخفيف نص ولا دليل يبيح الفرار عن العدد المذكور ، وإنما فيها أن الله تعالى علم أن فينا ضعفاً وأنه خفف عنا ، وفيها أنه إن كان منا مائة صابرة يغلبوا مائتين ، وإن كان منا ألف يغلبوا ألفين بإذن الله ، وهذا حق وليس فيه أصلا أن المائة لا تغلب أكثر من مائتين ، ولا أن الألف لا تغلب أكثر من ألفين ، ومن ادعى هذا فى الآية فقد أبطل وادعى ما ليس فيها منه أثر ولا إشارة ، ولا نص ولا دليل ، بل قال عز وجل « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » فظهر أن قولهم لا دليل عليه أصلا ، ونسألهم عن فارس بطل شاكى السلاح قوى لقى ثلاثة عزلا أو ضعافاً هل له أن يفر عنهم ؟ فإن قالوا : نعم . كانت الطامة التى يأباها الله والمؤمنون وكل ذى عقل وإن قالوا : لا . نقضوا

---

(١) سبق ان اوردنا راى ابن عباس .

قولهم الأول . ويروى ابن حزم عن عمر بن الخطاب قوله : اذا لقيتم فلا تفروا ، ويروى عن على وابن عمر قولهما : الفرار من الزحف من الكبائر ، ولم يخصوا عدداً من عدد ، [1] .

بقى أن تقرر أن تاريخ الغزوات وتاريخ الفتوح الإسلامية يسجل أن المسلمين تصدوا لجيوش كثيرة العدد حافلة العدة ولم يهتموا بالكثرة الهائلة فى جانب العدو ، ولم يعرف عنهم الفرار قط ، ذلك أنهم كانوا يسعون لإحدى الحسنيين النصر أو الشهادة ، وشرف الشهيد ثمة لا يقاس بها بحال من الأحوال قتل المدبر الفار ، ذلك خالد ، حسن الذكر ، طيب العاقبة فى الآخرة ، وهذا فار ، سىء الذكر فى الدنيا ، ومأواه النار فى الآخرة .

هل يترك المسلمون أرضهم لعدو هاجمهم ؟

بقى موضوع خطير ينبغى أن نوضح الرأى فيه ، ذلك هو أن العدو قد يحرز النصر على المسلمين فى جولة من الجولات ويحتل بعض أرضهم ، ويكثر أن يفر السكان من وجهه اتقاء لشره ، فهل يعد هذا فراراً ؟

ربما تختلف الآراء فى الإجابة عن هذا السؤال ، ولكنى أحس بأن إخلاء بيوت المسلمين للعدو نوع من الفرار يثبت أقدام العدو ويمنحه أقصى ما يريد من السهولة واليسر ، ومال المسلمين وديارهم وديعة فى أيديهم فيلزم أن يدافعوا عنه حتى آخر رمق ، ولا يعفى من ذلك رجل أو امرأة أو صبى ، فالكل سواء اذا هوجمت أرض المسلمين .

اتجاه واحد قد نبيحه اقتداء بموقف خالد بن الوليد ، ذلك هو التراجع للاستعداد للعودة للديار من جديد ، وعلى هذا فلا يجوز أن نخلى ديارنا للعدو . ويلزم أن نبقى شوكة فى حلقومه ، ولا يجوز أن ينسحب من الديار

(1) المحلى : جـ ٧ ص ٢٩٢ — ٢٩٤ .

إلا أولئك الذين يقصدون الى مزيد من الاستعداد ليهاجموا العدو بعزيمة أمضى وقوة أكبر ، وحينئذ يكون المتخلفون عوناً كبيراً للمهاجمين ، ويرى العدو نفسه بين قوى من الداخل وقوى عائدة من الخارج .

إن المسلم ينبغى أن يفضل أن يموت مدافعاً عن ماله ودياره عن أن يدع دياره للعدو ويعيش عمره لاجئاً فى ديار الآخرين ، إن المسلم الذى يدع دياره يقدم أكبر خدمة للعدو الأثيم .

وعندما احتلت اسرائيل بعض الوطن العربى هاجر عـدد كبير من الأرض المحتلة للخارج ، وبقى آخرون فى ديارهم صامدين أمام العدو ومتحملين عناء الحياة تحت سلطانه الجائر ، وهناك جماعة ثالثة اتخـذت الكفاح طريقها ، فعاشـت فى الكهوف والسراديب تتحين الفرص للانقضاض على العدو مهما كلفها ذلك من ثمن ، هل هذه الفرق الثلاث فى مسـتوى واحـد ؟ .

الإجابة الواضحة بالنفى ، فالمجاهدون هم قمة الفرق ، ويليهم الباقون بديارهم يؤازرون المجاهدين ويؤوونهم ويتسترون عليهم ، ويتحملون إرهاب العدو ، أما الذين هاجروا طلباً للسلامة فقد أتاحوا الفرصة للعـدو لسلب ممتلكاتهم ومصادرتها وإحلال اليهود محلهـم فى بيوتهم الخالية ، وقد أصدرت اسرائيل قانوناً أسمته « قانون أملاك الغائبين » . ويقضى هذا القانون بمصادرة الأملاك التجارية والعقارية بالقدس اذا كان صاحبها غائباً عن المدينة .

ولعله بسبب هذا الوضع قد تقرر أن يبدأ من أول شهر يوليو ١٩٦٩ تحصيل جباية مالية نسبتها ٥٪ من الرواتب والدخل الشهرى لجميع أبناء الشعب الفلسطينى فى كافة القطاعات العامة والخاصة فى جميع الأقطـار العربية التى توجد فيها تجمعات فلسطينية . وسيتم تحـويل الجبـاية للصندوق القومى الفلسطينى التابع لمنظمة التحرير لاستخدامها فى تمويل

الكفاح المسلح ومساعدة أسر الشهداء والاسرى والمعتقلين فى سجون اسرائيل وتقديم الدعم المالى للمواطنين العرب فى فلسطين المحتلة •

ومن المقرر أن تقوم الحكومات العربية بتحصيل الجباية وتوجيهها لصالح منظمة التحرير ، أما بالنسبة للبلاد الأجنبية التى توجد بها تجمعات فلسطينية فستتولى عملية الجباية لجان تشكلها منظمة التحرير لهذا الغرض •

والفلسطينيون بالخارج يجب أن يسهموا بهذا العمل فى خدمة الصراع الدائر من أجل استرداد بلادهم ، وبقدر الاستجابة لهذا القرار والتحمس له يرتفع قدر هؤلاء الغائبين ، ولا يعتبرون غائبين طلبا للسلامة ، بل غائبين ليكدحوا حتى يؤازروا المناضلين بما يحتاجونه من مال أو سلاح •

القضاء والقدر فى المعركة

انحرف بعض الناس بعقيدة القضاء والقدر فمالوا بها الى التواكل والاستسلام ، وانحدروا بالناس بسبب ذلك الى الضعة والضعف والامتهان ، وقد حذر الإمام محمد عبده من نتائج هذا الانحراف مؤكداً أن من يتبعه لن ينال عزاً ، ولن يعيد مجداً ، كما انه لا يدفع اعتداء ولا يسعى للأخذ بحق (١) .

ومن العجيب أن عقيدة القضاء والقدر التى استحالت فى عهود التخلف الى عقيدة الضعف والاستسلام ، أو الى عقيدة التخلص من المسئوليات ، هذه العقيدة كانت فى العهود الأولى ، عهود الإسلام الصحيح ، مبعثاً للقوة والشجاعة ، وسبباً من أسباب احترام النفس وعدم الخضوع للظلم ، وذلك اتباعاً لقوله تعالى : « وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا » (٢) وقوله « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون ، قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ؟ ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده ، أو بأيدينا ، فتربصوا إنا معكم متربصون » (٣) وكان المسلمون بذلك يخوضون المعارك غير هيابين ، اعتقاداً منهم بأن الحرص لن يهب السلامة ، ولذلك كانوا يبطشون بعدوهم ذات اليمين وذات اليسار ، وكانت بطولتهم تبعث فى نفوس أعدائهم الفزع فلا يصمدون أمامهم .

وهناك بيتان من الشعر عن القضاء والقدر كان الإمام على كرم الله وجهه ينشدهما فى مطلع كل معركة ، ويخوض بعد ذلك الصراع بقلب لا يهاب ، وهذان البيتان هما :

---

(١) محمد عبده : الاسلام والمسلمون ص ١١ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ١٤٥ .

(٣) سورة التوبة : الآيتان ٥١ — ٥٢ .

أى يومىّ من الموت أفرّ يوم لا يُقْدَرَ أو يوم قُدِر
يوم لا يقدر لا أرهبه ومن المقدور لا ينجى الحذَرْ

وهكذا كان الإمام على يدخل المعارك بشجاعة فائقة ، لأنه إن كان قد قدِّرَ له الموت فلن يحميه الجبن أو الفرار منه . وإن كانت قُدِّرت له السلامة فلن يستطيع أحد أن ينال منه مكروها . وباسم هذه العقيدة خاض الإمام أكثر الغزوات ، وبارز الأشداء الجبابرة الذين لم يعرفوا الهزيمة ، فأوقع الهزيمة بكل من صارعه أو بارزه ، حتى عمرو ابن ود بطل الجزيرة العربية فى حينه قضى عليه سيف الإمام بعد أن صرخ بهذين البيتين ثم نازله ، ونجا الإمام من كل الغزوات وكل المبارزات التى اقتحمها ، ولم يسقط إلا على يد غلام من الموالى طعنه طعنة خائنة أتت عليه .

وكان قطرى بن الفجاءة أحد زعماء الخوارج وشجعانهم يلقى بنفسه فى أتون المعركة وهو يخاطب نفسه ببيت من شعره اتخذه دستوراً له فى المعارك ، وفيه يقول لنفسه :

فإنك لو طلبت بقاء يوم على الأجل الذى لك لن تطاعى

وفى ظل هذا الدستور كان قطرى يضرب ذات اليمين وذات الشمال فيبعث الذعر فى صفوف الأعداء ، لأنه يعتقد أن الأجل محدد ، وأن ليس فى الطاقة أن يعيش الإنسان أكثر مما قدر له .

ويقول الإمام محمد عبده [1] : إن الذى يعتقد أن الأجل محدود . والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها كيف يشاء ، لن يرهب الموت ، ولن يخاف أحداً وهو يدافع عن حقه ، ويعلى كلمة أمته ، وبهذه العقيدة

(١) الاسلام والمسلمون : ص ١١ .

انتصر المسلمون الأول على أعداء الإسلام ، فنالوا منهم ، وحققوا فى تاريخ الإسلام أشرف ما يحققه إنسان لدينه ووطنه .

ومن مزايا الاعتقاد بالقضاء والقدر أن الإنسان لا يبالغ فى الحزن اذا نزل به مكروه ، وأنه يبدأ من جديد أملا أن يحقق فى المستقبل ما عجز عن تحقيقه فى الماضى [1] .

---

(١) انظر موضوع « القضاء والقدر » فى كتاب « الحياة الاجتماعية فى الفكر الاسلامى » للمؤلفة .

التجسس والخيانة

التجسس على المسلمين ممنوع :

نهى القرآن الكريم نهياً حازماً وشاملا عن التجسس على المسلمين ؛ قال تعالى « يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ... » [1] وفى التجسس يقول صلى الله عليه وسلم : لا تتبعوا عورات المسلمين فإن من تتبع عوراتهم تتبع الله عورته حتى يفضحه ولو فى جوف بيته .

اليهود والتجسس :

وقد ظهر التجسس فى مطلع الإسلام واتخذه اليهود وسيلة ليكشفوا أحوال المسلمين ، فقد ادعى بعض اليهود دخول الإسلام ولكنهم كانوا فى الحقيقة منافقين ومن هؤلاء داعس وسعد بن حنيف وزيد بن اللصيت ورافع بن حريملة وغيرهم ، وقد قال الرسول عن رافع يوم مات : اليوم مات منافق عظيم . وكان هؤلاء يتخذون المسجد وحلقات العلم مجلساً لهم ليتسقطوا أخبار المسلمين وليطلعوا على تنظيماتهم لينقلوا ذلك الى اليهود والى حلفائهم المشركين ، ولكن المسلمين شكوا فى تهجدهم ، فراقبوهم حتى ظهر منهم ما ينقل هذا الشك الى اليقين ، فانقض المسلمون عليهم وكشفوا أمرهم وأنزلوا بهم عقوبات مختلفة حسب ما ثبت من جرائمهم [2] .

المسلمون وجواسيس الأعداء :

وقد اعتاد المسلمون اذا عثروا بجاسوس يعمل لحساب العدو ألا يشعروه بذلك فى أول الامر ، وان يدعوا بعض الأسرار تصل اليه ومعها

---

(١) سورة الحجرات : الآية ١٢ .

(٢) ابن هشام جـ ٢ ص ٢٦ وما بعدها وانظر كتاب « اليهودية » من سلسلة « مقارنة الأديان » للمؤلف .

الوان من الزيف ، وذلك ليضللوا العدو عن طريق جاسوسه ، ويقول الهرثمى [1] : لقد تحتاج فى بعض الأحوال أن يعرف عدوك بعض أحوالك وتدبيرك لما تحاول من مكايدته ، فتلطف فى ذلك بإظهاره لجواسيسه ، ليوصلوه اليه على ما يظهر لهم فيه .

فإذا اضطر المسلمون لأن يُظْهروا للجاسوس اكتشافهم لأمره فإنهم يحاولون أن يعاملوه بلطف ، ويستميلوه إليهم ليحصلوا منه على أخبار تنفعهم ، أو ليرسلوا عن طريقه الى العدو أخباراً غير صحيحة ، وقد عثر المسلمون يوم بدر على واحد من عيون قريش وحاول المسلمون تعذيبه ، ولكن الرسول نهاهم عن ذلك واستدعاه وسأله عن عدد قريش فلم يعرف ، فسأله عما ينحرون من الإبل كل يوم ، فأجاب بأنهم ينحرون تسعة فى يوم وعشرة فى يوم آخر ، فاستنتج الرسول أن العدد يتراوح بين تسعمائة وألف [2] .

وفى فتح قيسارية قتل جنود عمرو بن العاص جاسوسا رومانياً فغضب عمرو وقال لهم : هلا أتيتمونى به لأستخبره ؟ فكم من عين تكون علينا ثم تصير لنا [3] .

وكانت وسائل المسلمين لنقل جاسوس العدو ليصبح جاسوساً لهم تتفاوت بتفاوت ظروف الجاسوس ، فقد يتخذ المال وسيلة لذلك ، أو تستغل فيه نزعة خير تجذبه الى الإسلام والإخلاص إليه ، أما اذا تعذر على المسلمين تحويل الجاسوس ليعمل لصالحهم ، فإن عقوبته تكاد تكون محددة فى التفكير الإسلامى ، فقد رأى الرسول مرة بعض عيون المشركين ، وصعب على المسلمين القبض عليه ، فأحل الرسول دمه ، وقال : اطلبوه فاقتلوه . فنفذ المسلمون أمره ، حتى لا يعود لقومه بالأسرار التى جمعها ،

---

(١) مخطوط عنوانه « مختصر فى سياسة الحروب » مصور بالجامعة العربية (ف ٨٤٤) ورقة ١٣ .

(٢) عبد الرءوف عون : الفن الحربى فى صدر الاسلام ص ٢١٦ .

(٣) الواقدى : فتوح الشام جـ ٢ ص ١٠ .

وفى غزوة بنى المصطلق ألقى المسلمون القبض على أحد الجواسيس ، فسأله الرسول عن قومه فلم يذكر شيئاً ، فعرض عليه الإسلام فأبى ، فأمر عمر بأن يُقْتَل فقُتِل [١] ، وكان المسلمون يلزمون غير المسلمين بلباس خاص ليتميزوا به فلا يستطيعون الاندساس بين المسلمين والتقاط الأخبار منهم [٢] .

الجاسوس المسلم على المسلمين :

وتشتد عقوبة الجاسوس لو كان مسلماً ، ويقول سحنون : اذا كاتب المسلم أهل الحرب قتل ، وقال غيره من أصحاب مالك : يجلد جلداً وجيعاً ويطال حبسه وينفى بموضع ينأى عن الكفار ، وقال ابن القاسم : يقتل ولا يعرف لهذا توبة وهو كالزنديق [٣] ، وذلك ما نراه .

أما الخيانة التى يقوم بها المسلم فهى أعم من التجسس ، إذ قد تكون لصالح العدو ، أو تكون للإضرار بالمسلمين بشكل عام ، وعقوبتها رادعة فى الإسلام ، يقول الله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة وأن الله عنده أجر عظيم » [٤] وقد نزلت هاتان الآيتان فى مسلم يسمى أبو لبابة كان مناصحاً لليهود خلال غزوة بنى قريظة ، فقد عرض الرسول على بنى قريظة أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فأبوا وقالوا أرسل إلينا أبا لبابة وكان عياله وماله فى أيديهم ، فبعثه الرسول اليهم فقالوا له : ما ترى هل ننزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فنصحهم ألا يفعلوا ، ويقول أبو لبابة انه سرعان ما أحس أنه خان الله ورسوله ، ونزلت الآية ، فذهب أبو لبابة

---

(١) ابن هشام : ج ٢ ص ٢٩٤ .

(٢) ابو يوسف : الخراج ص ٧٢

(٣) ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ ص ٢٩٠ والطرق الحكمية فى السياسة الشرعية ص ٣١٢ .

(٤) سورة الأنفال : لآيتان ٢٧ — ٢٨ .

وشدّ نفسه على سارية فى المسجد وقال : والله لا أذوق طعاماً ولا شراباً حتى أموت أو يتوب الله على .. [١] .

الموت أهون من إفشاء أسرار الجيش :

وكان المسلمون يحرصون كل الحرص على أسرار الجيش الإسلامى ويقدمون الأرواح دون ذلك ، فقد حدث أن عبد الله بن حذافة وقع أسيراً فى أيدى الروم فى أثناء معارك التحرير التى قام بها المسلمون لطرد الروم من الشام ، وكان عبد الله بطلا مغواراً أبدى فى المعركة صنوفاً من الشجاعة والكياسة ، فحمله جند الروم الى ملكهم ليرى نموذجاً من أبطال المسلمين : إذ كان الملك يرى فى هزائم جيشه تقصيراً من قادته وجنده ، فلما مَثَلَ عبد الله أمام الملك لم ينحن له ولم يكترث به ، فحاول الملك إغراءه بألوان الإغراء ليرتد عن الإسلام فسخر منه عبد الله وقال له : والله لو أعطيتنى جميع ما تملك لأرجع عن دينى طرفة عين ما فعلت . فسأله الملك عن بعض أسرار الجيش الإسلامى لينجو بحياته من موت محقق فأجاب : أنعم بها من شهادة ، ما للخيانة من سبيل ، فأمر الملك به فوضع فى مكان يوضع فيه من يوشك أن يقتل ، وأمر الملك الرماة بأن يرموا سهامهم قريباً من بدنه لإخافته وإرهابه ، ولكنه ظل كالطود الشامخ يبسم وهو يظن أنه يستقبل الموت ، فأمر الملك به أن يُحل وثاقه إعجاباً وتقديراً وأدرك الملك سر الانتصارات التى يحققها المسلمون .

ويقول الله تعالى عن الخيانة وذم الخونة :

ــ ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، إن الله لا يحب من كان خواناً أثيما ، يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، إذ يبيتون مالا يرضى من القول وكان الله بما يعملون محيطا [٢] .

ــ ضرب الله مثلا للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت

(١) تفسير البيضاوى والنسفى .
(٢) سورة النساء : الآيتان ١٠٧ — ١٠٨ .

عبدين من عبادنا صالحين فخانتاهما ، فلم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وقيل ادخلا النار مع الداخلين (١) .

وإذا كان هذا هو حكم الله فى الخيانة على العموم ، فإن الحكم فى الخيانة إبان الحرب أقسى وأعظم ، لشدة ضررها بأرواح المسلمين وأموالهم ، وقد نهى الإسلام نهياً صارماً عن إذاعة الأسرار الحربية بل نهى عن خوض العامة فى شئون الحرب حتى لا تلوك الألسنة هذه الأخبار مما يجعل من الممكن وصولها إلى العدو ، قال تعالى متهكما بذلك ومحرماً له « وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به » (٢) .

وعلى مر التاريخ وقف المسلمون موقفاً حاسماً من الخونة أياً كانت مراكزهم ، ففى سنة ١٢٤٠ م تحالف اسماعيل صاحب دمشق مع الصليبيين على غزو مصر ، وجمع هذا جيشاً من أهل الشام سار به متعاوناً مع الجيش الصليبى لتحقيق هـذا الهدف ، ولما أشرف الجيش الشامى على غزة ، وأصبح عليه أن يتخذ موقفه ضد الجيش المصرى مؤيداً الصليبيين ، حدثت المفاجأة التى لم يتوقعها الحاكم الخائن ولم يتوقعها الصليبيون ، تلك أن عساكر الشام استداروا فى لحظة سريعة وانضموا إلى الجيش المصرى ومالوا جميعاً على الجيش الصليبى فهزموه شر هزيمة (٣) .

بل حدث أكثر من ذلك ، فإن أماً أدركت أن ابنها يخون قضية المسلمين ويمالىء الصليبيين وتلك الأم هى « صفوة الملك خاتون » وابنها هو شمس الملوك فسرعان ما دبرت الأم قتل ابنها ، فقد كانت بلادها ودينها أغلى لديها من ابنها الخائن (٤) .

---

(١) سورة التحريم : الآية العاشرة .
(٢) سورة النساء : الآية ٨٣ .
(٣) السلوك للمقريزى جـ ١ ص ٣٠٥ والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى جـ ٦ ص ٣٢٣ .
(٤) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٣٠٢ .

الفكر الإسلامي

ومشكلات ما بعد المعركة

الأمان والهدنة

الأمان نوعان : مؤقت ودائم .

والأمان المؤقت نوعان : خاص وعام .

وعلى هذا فهناك أمان مؤقت خاص ، وأمان مؤقت عام ، وأمان دائم .

فالأمان المؤقت الخاص يمكن أن يقوم به جندى مسلم إذا استسلم له أحد جنود العدو وطلب منه الأمان ، أو إذا استسلمت جماعة من جنود العدو إلى جماعة من جند المسلمين ، ففى هاتين الحالتين يجوز للجندى المسلم أو لقائد جماعة المسلمين أن يمنحوا الأمان للمستسلمين إذا رأوا وأحسوا أن فيه مصلحة للمسلمين كالحصول على أسلحة منهم قبل تدميرها ، أو الحصول على أسرى أو الحفاظ على عتاد المسلمين وأرواحهم .

ومن هنا يجىء ما يسمى « المستأمن » وهو شخص أعطى الأمان وله بهذا الأمان حق فى إقامة غير دائمة ، وله حق الأمن حتى يصل إلى مأمنه ، فإن جعل إقامته دائمة انتقل من مستأمن إلى ذمى .

أما الأمان المؤقت العام فلا يبذله إلا الإمام أو نائبه ويكون لكل الجيش ، وهو جائز مادام الإمام قد رأى فيه مصلحة للمسلمين وهو الذى يسمى الهدنة وقد يتحدد لها وقت وقد تكون مطلقة ، ومنها الهدنة التى وافق عليها الرسول فى الحديبية .

وإذا أحس المسلمون خيانة من العدو ، أو وجدوا أنه انتهز فرصة الهدنة لمزيد من الاستعداد الذى يهدد المسلمين كان لهم نقضها .

وقد أجاز القرآن الكريم أن نوقف القتال بعد دوران المعركة ، فليس من الضرورى أن تكون المعركة حاسمة ، بل إذا طلب الأعداء وقف القتال استجاب لهم المسلمون ، قال تعالى « وإن جنحوا للسلم

فاجنح لها وتوكل على الله » [١] ولكن الفقهاء قيدوا ذلك بأن يكون فى مصلحة المسلمين وأن يكون لهم الغلبة ، لقوله تعالى « فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم » [٢] وقالوا : إذا لم يكن الصلح فى خير المسلمين ومصلحتهم وفى حدود الدين وتعاليمه فإنه لا يجوز حينئذ هـذا الصلح حتى لا يترتب عليـه إبطال الجهاد صـورة ومعنى [٣] .

على أن الإمام قد يلجأ للمهادنة لضرورة ولكن ينبغى أن يبـادر المسلمون للاستعداد من جديد وبسرعة حتى يستعيدوا حقهم أو ينالوا صلح الأعزاء الغالبين كما أشارت الآية الكريمة ، وإذا أحس المسلمون ريح الخيانة من أعدائهم بعد الهدنة ، كان لهم أن يعودوا للمواجهة قال تعالى « وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين » [٤] أما إذا لم تحصل خيانة فيجب الوفاء بعهود الصلح لقوله تعالى « وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا » [٥] وقوله « وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الإيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون » [٦] .

ويشترط فى العقود التى يجب احترامها والوفاء بها الشروط الآتية :

١ ـ ألا تخالف حكما من الأحكام الشرعيـة المتفق عليهـا لقول الرسول صلى الله عليه وسلم : كل شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط .

٢ ـ أن تكـون عن رضا واختيـار فإن الإكراه يسلب الإرادة ولا احترام لعقد لم تتوفر فيه حرية الإرادة .

---

(١) سورة الأنفال : الآية ٦١ . (٢) سورة القتال : الآية ٣٥ .
(٣) ابن الهمام الحنفى : شرح فتح القدير الجزء الرابع .
(٤) سورة الأنفال : الآية ٥٨ . (٥) سورة الاسراء : الآية ٣٤ .
(٦) سورة النحل : الآية ٩١ .

٣ — أن تكون العقود واضحة ، لا لبس فيهـا ولا غموض حتى لا تؤوّل تأويلا يكون مثار خلاف عند التطبيق [١] .

وقد وضّح الإمام عليّ كرم الله وجهه أن فى الصلح بشروطه يسراً على المسلمين ، ولكنه أوصى بضرورة الحذر بعد الصلح حتى لا يكون ذلك الصلح وسيلةً قوةٍ للعدو ، كما وضّح ضرورة الوفاء بالعهد فى حدود معينة ، وفيما يلى كلماته :

« ولا تدفعن (لا ترفضنّ) صلحاً دعاك إليه عدوك ، ولله فيـه رضاً ، فإن فى الصلح دعة (راحة) لجنودك ، وراحة من همومك ، وأمناً لبلادك ، ولكن الحذر كل الحذر من عدوك بعد صلحه ، فإن العدو ربما قارب ليتغفل (أى ربما تقرب منك بالصلح ليلقى عليك غفلةً عنه ثم يغـدر بك) فخـذ بالحزم ، واتهم فى ذلك حسن الظن .

وإن عقدت بينك وبين عدوك عقدة ، فَحُطْ عهدك بالوفاء ، وارع ذمتك بالأمانة فإنه ليس من فرائض الله شىء اجتمع عليه الناس أكثر من الوفاء بالعهود » [٢] .

بقيت كلمة عن الأمان الدائم ، هى أنه يكون مع أهل الذمة من أهل الكتاب ومع مشركى غير العرب ويعقده الإمام أو نائبه وبمقتضاه يلتزم أهل الذمة بواجبات وتكون لهم حقوق لدى المسلمين ومن أهم واجباتهم الوفاء لعهد الأمان بشروطه ، وألا يمسـوا المسلمين بضرر أو يعاونوا أعداء المسلمين وأن يحترموا المقدسات الإسلامية ، وأن يتبعوا القوانين الشرعية فيما أبيح لهم وفى التزاماتهم .

---

(١) الأستاذ سيد سابق : عناصر القوة فى الاسلام ص ٢٢٢ — ٢٣٢ وانظر الاسلام عقيدة وشريعة للامام الشيخ محمود شلتوت ص ٤٦٤ — ٤٦٥ .

(٢) نهج البلاغة ص ٣٤٥ — ٣٤٦ .

وأما حقوقهم فتشمل حرية التدين ، والدفاع عنهم ، وجواز أكل طعامهم على ما ذكرناه فى مكان آخر [١] .

الإسلام أو الجزية ، لماذا ؟ :

وفى الأمان الدائم يلتزم أهل الذمة أن يدفعوا الجزية ، والجزية دليل أمان ، أما رفضها ورفض الإسلام فدليل على نية الاعتداء .

صيغة أمان الرسول لأهل نجران :

إن صيغة أمان الرسول لأهل نجران مثل يحتذى ، ونص هذا الأمان هو : لنجران وحاشيتها جوار الله ، وذمة محمد ، على ما تحت أيديهم من قليل أو كثير ، لا يخسرون ولايعسرون ، ولا يطأ أرضهم جيش ، ومن سأل منهم حقا فلهم النصف غير ظالمين ولا مظلومين » .

استسلام العدو :

ما موقف الإسلام من العدو إذا استسلم وألقى السلاح ؟ :

لقد ذكرنا فى دراستنا آنفا أن أى جندى مسلم يمكن أن يعطى الأمان لأى جندى يستسلم له .... وتلك صورة من صور سماحة الإسلام ، فجيش العدو إذا استسلم وألقى السلاح كان على المسلمين أن يكفوا عن قتلهم ، وأن يتحفظوا عليهم حتى يرى الإمام رأيه فيهم ، ويكون رأيه دائما بالمطالبة بالإسلام أو الجزية ، ولا تمتد اليد لقتل أحد إلا اذا كان هناك فرد أو بعض الأفراد أسرفوا فى التنكيل بالمسلمين ، وأنزلوا بهم المهالك ، ومن بين الآلاف الذين استسلموا يوم

---

(١) راجع دراساتنا السابقة عن العلاقات الدولية فى المجال الاجتماعى .

فتح مكة لم يقتل الرسول إلا شخصين كانا قد أسرفا فى تعذيب المسلمين وإنزال الضر بهم (١) .

ولو قارنا هذا التصرف بما سجله التاريخ عندما كان الظفر لليهود أو الرومان أو المغول أو الأمريكان لرأينا الفرق شاسعا ، فقد وضَّح سفر التثنية لليهود كيف يعاملون أعداءهم ، ونَصَّ على أنه « حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استَدْعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح ، وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب الهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة فتغنمها لنفسك » (٢) .

ولا يزال اليهود حتى اليوم يعاملون المهزومين على هذا النمط ، فقد قضوا على المستسلمين فى حرب ١٩٦٧ ولاحقوهم بالحديد والنار دون أن يسمحوا لأحد بالحياة ، فالنفس البشرية عندهم لا قيمة لها ، وهم عند كتابة هذه السطور ينزلون الأهوال بالفلسطينيين فى لبنـــان . يا ويلهم من التاريخ .

وفعل المغول نفس الشىء فقد كانوا يهددون أعداءهم ويحاصرونهم حتى يستسلموا ، وحينئذ يعملون فيهم السيف دون رحمة وفى كثير من الأحـــوال كان المغول يحققون النصر بالرهبة والتخويف وليس بالكدح والصراع ، وكانت نهاية المستسلم هى القضاء عليه ، فقد فعلوا هذا مع الخليفة العباسى الأخير بعد أن ذهب لهم وأسلم نفسه إليهم ، وفعلوا هذا مع سلاطين الأيوبيين بالشام الذين آثروا السلامة واستسلموا (٣) .

---

(١) انظـــر الحديث عن فتح مكة فى الجـــزء الأول من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف .

(٢) سفر التثنية الاصحاح العشرون .

(٣) انظر الجزء الثامن من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف .

وكانت هذه أيضا هى طبيعة الرومان عندما كانوا يحققون النصر ضد أعدائهم من الفرس أو العرب ، وقد فعل الأمريكان الأفاعيل مع الألمان عند استسلموا فى الحرب العالمية الثانية •

لقد قدم الإسلام للبشرية حشداً من القيم ، ولكن كثيرين عجزوا أن يتبنوا هذه القيم الرفيعة .

الأسرى

بقيت كلمة عن الأسرى ورأى الإسلام فى نظام الأسْر ، ومن الواضح أن الإسلام كان يتجه إلى إلغاء الرق وتحرير البشرية من وصمة استعباد الإنسان للإنسان ، فأغلق الإسلام أكثر الطرق التى كانت تؤدّى إلى الرق فى الأديان والنظم السابقة ، ولكنّ إغلاق باب الرق عن طريق الأسْر فى الحروب ، كان يحتاج لموافقة غير المسلمين عليه حتى لا يسترق غيرُ المسلمين من المسلمين ، ولا يستطيع المسلمون أن يعاملوهم بالمثل ، فترك الإسلام هذا الباب مفتوحاً بعد أن ضيقه ونظمه حتى ترتضى البشرية حكم الله وحكم العقل فى إغلاقه تماماً (١) .

وعلى ذلك كان المسلمون يأخذون من أعدائهم ما يستطيعون من الأسرى ثم يجرى بعد ذلك تبادل الأسرى ، أو الإطلاق مَنّاً أى بدون مقابل ، أو الاطلاق بالفداء المالى أو ما يعادله ، كما أطلق الرسول بعض أسرى بدر نظير قيامهم بتعليم الكتابة لبعض من لا يعرفونها من المسلمين . وقد يقتل الأسير إذا كان شديد النكاية أو الاعتداء على المسلمين ، وقد يفرض الإمام الرق على بعض الأسرى ، ويكثر أن يكون ذلك مع الأرقاء الذين كانوا فى جيش العدو ثم أسروا وآثروا الرق فى ظل الإسلام على عودتهم لسادتهم ، وأحيانا يستبقى المسلمون بعض الأسرى من طبقة السادة لمواجهة حالة مماثلة قام بها الكفار مع بعض المسلمين حتى يمكن تحرير هؤلاء بأولئك ، يروى ابن ماجه أن إياس بن سلمة بن الأكوع روى عن أبيه قال : غزونا مع أبى بكر هوازن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنفلنى أبو بكر جارية من بنى فزارة من أجل العرب ، فلما أتيت المدينة لقينى الرسول صلى الله عليه وسلم فى السوق فقال : لله أبوك ، هبها لى ، فوهبتها له ، فبعث بها ففادى بها أسارى من أسارى المسلمين كانوا بمكة .

---

(١) انظر « الرق وموقف الاسلام منه » فى كتاب الاسلام للمؤلف

ويذكر الماوردى حكم الأسرى بقوله : الإمام مخير فيهم بين القتل والاسترقاق والفداء بالمال والمن عليهم [١] . وفى التاريخ الإسلامى أمثلة ونماذج لكل هذه المعاملات التى أوردناها عن الأسرى فيما غدا استرقاق الرسول لرجل حر بالغ فإن ابن القيم ينفيه ، قال ابن القيم : ثبت عن الرسول فى الأسرى أنه قتل بعضهم ، ومَنَّ على بعضهم ، وفادى بعضهم بمال ، وبعضهم بأسرى من المسلمين ، واسترق بعضهم ، ولكن المعروف أنه لم يسترق رجلا بالغاً حراً ، فقتل يوم بدر من الأسرى عقبة ابن أبى معيط والنضر بن الحارث ، وقتل من اليهود جماعة من الأسرى ، وفادى أسرى بدر بالمال وبتعليم جماعة من المسلمين الكتابة ، ومنَّ على ابن عترة الشاعر يوم بدر ، وأطلق يوم فتح مكة جماعة من قريش يقال لهم الطلقاء ، وهذه أحكام لم ينسخ منها شىء بل يخير الإمام فيها بحسب المصلحة ، وقال ابن عباس خيَّر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الأسرى بين الفداء والمن والقتل والاستعباد يفعل الإمام ما يشاء ، وهذا هو الحق لاقول سواه [٢] .

وهناك نص قرآنى وحيد يتضمن حكم الأسرى هو قوله تعالى « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما مناً بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها » [٣] فهذه الآية تقرر لزوم الشدة فى محاربة أعداء الإسلام الذين يعتدون على المسلمين ، وتظل الشدة صارمة حتى تضعف شوكة هؤلاء ، وحينئذ يأسر المسلمون من يستطيعون من أعدائهم ، ويكون حكم الأسرى بعد ذلك هو المن عليهم ، أو فداؤهم بأسرى المسلمين ، أو نظير مال أو عمل لإصلاح شأن المسلمين .

ويميل أكثر المفكرين إلى اتخاذ هذا النص أساساً للحكم فى الأسرى ،

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٢٥ .

(٢) ابن القيم : زاد المعاد : جـ ٣ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٣) سورة محمد : الآية الرابعة .

ويرون ما ســواه مما حصل فعلا من قتل لبعض الأسرى أو استرقاق لبعضهم أحداثاً قضت بها ظروف خاصة .

محاولة إنقاذ أسرى المسلمين :

يهتم ولى الأمر بإنقاذ أسرى المسلمين ، ويكون ذلك أولا بتبادل الأسرى ، ولو كان الأسير الذى فى أيدينا من جيش العدو عالى الرتبة فإننا لا نطلقه إلا مقابل عدد كبير من أسرانا لدى العدو ، وإذا بقى لنا أسرى لدى العدو بعد تبادل الأسرى ، فإن على الإمام أن يبذل الجهد والأموال لينقذ أسرى المسلمين من أيدى الأعداء .

متابعة التعرف على أحوال الأسرى :

ذكرت المراجع الإسلامية أنه عند توقف الحرب يهتم ولى الأمر بأسرى المسلمين ، ويتابع معاملتهم حتى يتم الاتفاق على إطلاقهم ، وقد كان المتبع أن يُسْمَح للمسلمين بزيارة أسراهم ، وبالتالى يسمح للعدو أن يزور أسراه ، ويذكر ابن شداد [١] أن هذا الأسلوب كان متبعا فى أسرانا لدى الفرنجة وأسراهم لدينا .

أما معاملة الأسرى فكانت تختلف تبعا لمكانة الأسير وأهميته .

---

(١) سيرة صلاح الدين ص ١٧٣ .

كلمة ختام عن الإسلام والجهاد

وبعد ، ذلك حديث موجز عن العلاقات الدولية فى المجال العسكرى ، ظهر منه أن الإسلام يريد بنا خير الدنيا والآخرة . فعلى الأمة الإسلامية أن تتدارس هـذه التعاليم وأن تتمسك بها لتعبر المحنة التى نجتازها فى هـذا العصر .

والمسلم الذى لا يتبع هذه التعليمات يبعد بإسلامه عن الكمال ، فقد رُوِى أن سالم بن عبيد الله بن ربيعة المعروف بمولى أبى حذيفة كان يصرخ وهو يناضل فى معركة اليمامة قائلا : « يا أهل القرآن زيّنوا القرآن بأعمالكم » ويعلق المرحوم الدكتور أحمد الشرباصى على هـذا التعبير بقوله : كان سالم يريد بهذا القول أن الذين آمنوا بالقرآن وتلوه ، ووعوا ما فيه من آيات عن الجهاد ، ووعد إلهى كريم للمجاهدين الصادقين ، يجب عليهم أن يبرهنوا على إيمانهم بأعمالهم ، وألا يخالفوا بين أقوالهم وأفعالهم ، فربهم هو الذى يقول : « يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون كبر مقتاً عند الله أن تقولوا مالا تفعلون ، إن الله يحب الـذين يقاتلون فى سبيله صفاً كأنهم بنيان مرصوص » [1] .

وأنت أيها المسلم فى كل بقاع الأرض ، نذكرك أن زحف العـدو لا يعرف حداً ولا غاية ، إنه زحف تشنّه الصهيونية والاستعمار على المسلمين والأحرار فى كل مكان بالشرق ، فإن ضننت ببعض أولادك على المعركة ضاع كل أولادك وسقطوا أذلاء تعساء كما سقط نظراؤهم فى المحنة ، وإن ضننت ببعض مالك على المعركة ضاع كل مالك واحتواه العدو كما احتوى مال إخوة لك فى البقاع العربية ، وما عاشت الجزائر وتحررت إلا بعد أن قدمت الفداء ، تعال أنا وأنت ، وهو وهى نخصص قدراً من دمائنا وأموالنا لنحمى الباقى ونسترد ما ضاع ، وعلى أولياء

---

(١) دكتور احمد الشرباصى : الفداء فى الاسلام ص ١٥٤ ؛ والآيات من سورة الصف .

الأمور فى البلاد الإسلامية ونحن نقدم لهم أولادنا وأموالنا أن يدبروا الأمر بحكمة بالغة ، وأن يحسنوا استعمال شبابنا الذين نرمى بهم فى أتون الحرب ليجلبوا لنا النصر وليعودوا مرفوعى الرأس ، وعليهم ألا يكونوا كالزعماء الذين تسلموا أولادنا ثم سرعان ما دفعوا بهم للموت دون إعداد ولا استعداد ، فخسرنا أغلى ما نملك من أرواح الشباب وتراب الأرض ، وانهالت اللعنات على أولئك الذين تصدوا للسلطة وهم عن إدارتها عاجزون .

وليكن الله معنا ليحمينا من أعدائنا بالخارج الذين أعلنوا عن عدائهم ، ويحمينا من أعدائنا بالداخل الذين تظاهروا بالقوة ولكن القوة كانت فقط فى حناجرهم ، أما قلوبهم وعقولهم فكانت مرتعشة مذعورة ، وتظاهروا بالإخلاص وكانت نفوسهم مملوءة بالحقد ، حسابهم على الله ، لقد تخلوا عن الله فتخلى الله عنهم ، والله لا ينصر إلا من نصره « إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم » .

وكلمة ختام عن العلاقات الدولية فى الفكر الإسلامى

وقد اتضح للقارىء العزيز ذلك الفيض العظيم الذى قدمه الإسلام للمجتمع البشرى عن طريق تنظيم العلاقات بين الدول وإن اختلفت بها الأديان ، فقد جاء الإسلام هدى ونورا لبنى الإنســان ، ولكن بعض الناس لم تكتب لهم الهداية فظلوا فى الظلام ولم يستجيبوا لداعى الله ، وبعض آخر لم تصلهم الدعــوة واضحة جلية لأن المســلمين ضنوا أو عجزوا عن توصيلها ، وأغلب الظن أن الذين أعرضــوا عن الإسلام لجهلهم به ، أكثر جدا من الذين أعرضوا عنه تكبراً وعنادا ، وهذا يوضح مسئولية المسلمين فى هذا المجال .

على أن الله سبحانه وتعالى كان رحيما بخلقه ، فقدم عن طريق الإسلام وسائل للتعاون بين مجموعات البشرية وإن اختلف الدين كما ذكرنا من قبل ، وقد اقتبست القوانين الوضعية كثيرا مما قدمه الإسلام فيما أسموه « القانون الدولى » ولكن روح الإسلام غائبة عن هــذا القانون ، ولو فهم الناس روح الإسلام لتضاعف النفع بهذا الشعاع الذى انبثق عن الإسلام ، كما انبثقت عنه أشعة فى ميادين مختلفة ، فغمرت الكون بالنور ، وإن جهل الكثيرون مصدر هذا النور .

والله المسئول أن يكتب لنا التوفيق لنؤدى واجبنا تجاه ديننا ، وتجاه المجتمع البشرى كله .

والى اللقاء فى الجزء العاشر من هذه الموسوعة إن شاء الله .

مراجع البحث

١ — القرآن الكريم .

٢ — تفاسير القرآن الكريم وبخاصة : القرطبى — الفخر الرازى — الالوسى — البيضاوى — النسفى .

٣ — كتب الأحاديث الستة .

٤ — مجموعة من المجلات الاسلامية .

٥ — التلمود شريعة اسرائيل .

٦ — الكنز المرصود فى شرح التلمود .

٧ — ابن الأثير : الكامل فى التاريخ

٨ — دكتور ابراهيم العدوى : الأمويون والبيزنطيون

٩ — دكتور ابراهيم العدوى : السفارات الاسلامية الى اوربا

١٠ — ابو الحسن الندوى : الاسلام واثره على الحضارة وفضله على الانسانية

١١ — ابو عبيد : كتاب الأموال

١٢ — ابو الفدا : المختصر فى أخبار البشر

١٣ — دكتور أحمد أمين : ضحى الاسلام

١٤ — دكتور أحمد أمين : قصة الفلسفة اليونانية

١٥ — دكتور أحمد الشرباصى : الفداء فى الاسلام

١٦ — دكتور أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى (عشرة اجزاء)

١٧ — دكتور احمد شلبى : المكتبة الاسلامية لكل الأعمار (١٠٠ جزء)

١٨ — دكتور احمد شلبى : سلسلة مقارنة الأديان (٤ اجزاء)

١٩ — دكتور احمد شلبى : المناهج الاسلامية

٢٠ — دكتور احمد شلبى : الفكر الاسلامى : منابعه وآثاره

٢١ — دكتور احمد شلبى : السياسة فى الفكر الاسلامى

٢٢ — دكتور احمد شلبى : الاقتصاد فى الفكر الاسلامى

٢٣ — دكتور احمد شلبى : الحياة الاجتماعية فى الفكر الاسلامى

٢٤ — دكتور احمد شلبى : المجتمع الاسلامى

٢٥ — البلاذرى : فتوح البلدان

٢٦ — ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة
٢٧ — ابن تيمية : الحسبة
٢٨ — الجبرتى : العجائب والآثار
٢٩ — ابن جبير : الرحلة
٣٠ — ابن حجر : الاصابة
٣١ — ابن حزم : المحلى
٣٢ — دكتور حسن الباشا : دراسات فى الحضارة الاسلامية
٣٣ — ابن خلدون : المقدمة
٣٤ — ابن خلدون : العبر
٣٥ — ابن رشد : بداية المجتهد ونهاية المقتصد
٣٦ — ابن شداد : سيرة صلاح الدين
٣٧ — Roland Oliver : A Short History of Africa
٣٨ — الزبير بن بكار : أيام العرب
٣٩ — Stanley Lane-Poole : Egypt in the Middle Ages
٤٠ — السلاوى : الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى
٤١ — سيد سابق : عناصر القوة فى الاسلام
٤٢ — دكتور سيد عبد الله حسن : المقارنات التشريعية
٤٣ — شاهنشاه بن ايوب : ذيل النوادر
٤٤ — الشوكانى : نيل الأوطار
٤٥ — الطبرى : تاريخ الأمم والملوك
٤٦ — عباس محمود العقاد : عبقرية محمد
٤٧ — المستشار عبد الحليم الجندى : المنهج الاسلامى
٤٨ — عبد الحى الكتانى : التراتيب الادارية
٤٩ — ابن عبد ربه : العقد الفريد
٥٠ — عبد الرحمن عزام : الرسالة الخالدة
٥١ — عبد الرحمن بن محمود : مجمع الأنهر فى شرح ملتقى الأبحر
٥٢ — عبد الرءوف عون : الفن الحربى فى صدر الاسلام
٥٣ — عبد الله غوشة : الجهاد طريق النصر

٥٤ — دكتور عمر كمال توفيق : الديبلوماسية الاسـلامية والعلاقات السلمية مع الصليبيين

٥٥ — الامام على كرّم الله وجهه : نهج البلاغة

٥٦ — العمـرى : مسالك الابصار

٥٧ — غوستاف لوبون : حضارة العرب

٥٨ — ابن الفراء : رسل الملوك

٥٩ — فريدريك : تاريخ شرق الاردن وقبائلها

٦٠ — الفيروز أبادى : بصـائر ذوى التمييز فى لطـائف الكتاب العزيز

٦١ — القلقشندى : صبح الأعشى .

٦٢ — ابن القـيم : السياسة الشرعية فى اصلاح الراعى والرعيـة

٦٣ — ابن القيم : زاد المعـاد

٦٤ — ابن القيم : الطرق الحكمية فى السياسة الشرعية

٦٥ — Kirk : A Short History of the Middle East

٦٦ — Mugannam : The Arab Wowan

٦٧ — المـاوردى : الاحكام السلطانية

٦٨ — الشيخ محمد ابو زهرة : تنظيم الاسلام للمجتمع

٦٩ — الشيخ محمد ابو زهرة : العلاقات الدولية فى الاسـلام

٧٠ — الشيخ محمد عبده : الاسلام والمسلمون

٧١ — محمد عبد السلام الرامبورى : فلسفة الهند القديمة

٧٢ — محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية

٧٣ — محمد هاشم عطية : الأدب العربى وتاريخه

٧٤ — الامام محمود شلتوت : الاسلام والعلاقات الدولية

٧٥ — الامام محمود شلتوت : الاسلام عقيدة وشريعة

٧٦ — المقريزى : الخطط

٧٧ — المقريزى : السـلوك

٧٨ — المقريزى : ملحق السلوك

٧٩ — الميدانى : مجمع الأمثال

٨٠ — ابن النديم : الفهرست

٨١ — النووى : تهذيب الأسماء

٨٢ — الهرثمى : مختصر فى سياسة الحروب

٨٣ — Haine's : Christionity and Islam in Spain

٨٤ — ابن هشام : السيرة

٨٥ — ابن الهمام الحنفى : شرح فتح القدير

٨٦ — الواقدى : فتوح البلدان

٨٧ — ول ديورانت : قصة الحضارة

٨٨ — Welfred Cantwell : Islam in Modern History

٨٩ — يحيى بن آدم : الخراج

٩٠ — ابو يوسف : الخراج

رقم الايداع ٤٢٩٠ لســـنة ١٩٨٧

ISLAMIC
INSTITUTIONS AND CIVILIZATION

9

International Relations
as Suggested by Islam

BY
AHMAD SHALABY,

B. A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,
Professor
of Islamic History and Civilization
Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Published by:
THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo.



دكتور أحمد شلبى

ـــ تلقى دراساته فى الأزهر وفى كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج .

ـــ زار الولايات المتحدة الأمريكية كما زار أكثر دول أوربا وآسيا وافريقيا ، ومثل مصر فى عدة مؤتمرات دولية .

ـــ درس مجموعة من اللغـــات الأجنبية ويجيد الانجليزية والاندونيسية .

ـــ اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة اســـتاذ ورئيس قســـم التاريخ الاســـلامى والحضارة الاسلامية ـــ وقـــد حاضر ـــ منتدبا وزائرا ومعارا ـــ فى جامعة الأزهـــر ، وعين شمس ، واندونيســـيا ، والســـودان ، وماليزيا ، والمملكة العربية السعودية ، وليبيا ، وفى معهد الدراسات الاسلامية ، ومعهد البحـــوث والدراسات العربية ، ومعهد الدراسات اندبيلوماسية .

ـــ مؤلفاته ـــ غير المكتبة الاسلامية ـــ تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الـــعشرون من بعضها ، واهم هذه المؤلفات :

١ ـــ موسوعة التاريخ الاسلامى فى عشرة اجزاء .
٢ ـــ موسوعة الحضارة الاسلامية فى عشرة أجزاء .
٣ ـــ مقارنة الأديان فى اربعة أجزاء .
٤ ـــ كيف تكتب بحثا او رسالة .
ـــ المكتبة الاســـلامية لكل الأعمـــار :
١٠٠ جزء من السير والتاريخ وقصص القرآن ، للأولاد والشبان والسيدات والرجال .
ـــ ISLAM : Belief Legislation Morals
ـــ History of Muslim Education

ـــ كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية ، وترجمت أكثر مؤلفاته الى الاوردية والتركية ، والاندونيسية والماليزية والفرنسية والفارسية .